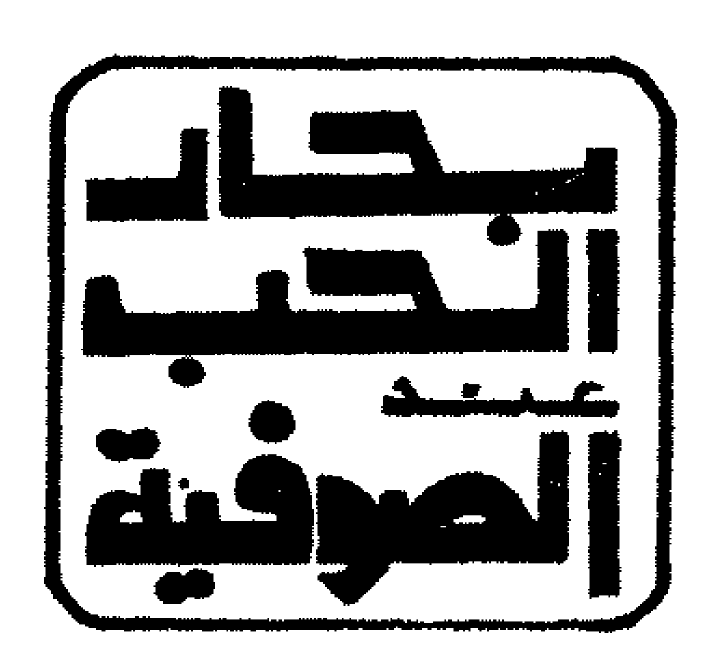


بحار الحب
عند الصوفية

اهداءات ٢٠٠٢
أ/حسين كامل السيد بك فهمى
الاسكندرية

بحار الحب عند الصوفية

أحمد بهجت



مؤسسة المعارف
للطباعة والنشر بيروت

الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م
الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

الغلاف للفنان خلف طايع



وقفة امام صورة

اذا وقفت روحي امام البحر .. احسست انني اقف امام كفء لي ..
فالبحر ـ كما يقولون هرمان ملفيل ـ ارض غفل ازلية مجهولة الهوية ،
والانسان هو الآخر ارض مجهولة الهوية ، ولا احد يعرف ـ سوى الله
تعالى ـ هل تنتمي هذه الروح بالميلاد لعذوبة الحليب ، ام انها ابنة شرعية
لوهج النار ..

وفى الانسان وداعة تتبدى فى البحر سطحا ازرق .. غير ان وراء هذه
الوداعة قوة تدمير هائلة .. واى قطرة من المياه تسقط بانتظام على صخرة ،
تستطيع أن تثقب الصخرة بقوة لا تستطيعها رصاصة تنطلق من سلاح ..

وكثيرا ما سحق البحر بثورته آلاف السفن منذ بدء الخليقة الى اليوم ،
ومع ذلك ، فان تكرار هذه الأمور جعل الانسان يفقد احساسه برهبة البحر
وقوته ، تلك الرهبة التى تقترن باسم البحر منذ بدء البدء ..

ايضا يفقد الانسان احساسه بالرهبة التى تعيش داخله لانها تعيش
داخله .. يعتاد عليها كما يعتاد على التنفس ، ومع الوقت ينسى انه
يتنفس ..

واول سفينة قرانا عنها كانت تسبح على صدر طوفان ولد من دعوة نبى غاضب ، وقد اغرق هذا الطوفان عالما باكمله ، لم يترك عينا تطـرف او حياة تتردد ..

« وفتحنا ابواب الســـماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر » ..

ولقد نسي المعاصرون هذا الطوفان القديم .. رغم أنه لم يزل يهدر الى اليوم ، وهو الذى حطم سفن هذا العام وسفن العام المنصرم ، هذه هى الحقيقة ..

ايها الاحياء الحمقى .. ان طوفان نوح لم يتوقف .. وما زال يغطى اربعة اخماس هذا العالم الجميل ..

نحن نعيش على الأرض .. نتصور أننا نعيش على ارض ..

وحقيقة الأمر ان الانسان يعيش على الماء .. فى جزر وســـط الماء .

قارات الدنيا وطرقها وبلادها ومدنها وقراها كلها جزر صغيرة ضئيلة وسط موج لا يكف عن لطم الشاطىء .

وحين التقطت سفن الفضاء صورة للكرة الأرضية ، لم ينتبه احد منا الى ان الكرة الأرضية ليست ارضية ..

انما هى كرة مائية ..

ظهرت زرقاء فى الصور الفلكية .. لان اغلبية الأرض مياه ، وهى اغلبية ساحقة تتيح للبحار ان تفوز فى اى انتخابات بينها وبين الأرض ..

اربعة اخماسها مياه .. والخمس الباقى هو المعارضة ..

ورغم ان اهل الأرض يتعصبون للأرض ، واحياء المياه يتعصبون للمياه، ويهلك ابناء الأرض لو سقطوا فى الماء ، وتحتضر خلائق المياه لو خرجت الى الأرض ..

رغم هذا فان هنالك تفرقة ظالمة بين الأرض والبحار .

لماذا تعد المعجزة فى الارض معجزة وتفقد اسمها فى البحر ؟ لقد انشقت الارض أمام قورح وجنوده وابتلعتهم الى الأبد ، وصرخ العبرانيون أمام المعجزة ، وتنشق المياه كل يوم وتبتلع سفينة فلا يقول الناس عما حدث انه معجزة .. اليست قوة البحر معجزة .. اليس غضبه معجزة ..

تامل البحر حين يثور ، عبثا تسال عن رحمته او ترجوه ضبط انفاسه ، انه يغمر الارض لاهثا ناخرا كانه جواد حرب هائج مجنون تجندل عنه فارسه ..

ثم .. ها هو الفارس يعود لامتطاء جواده بعد ان بعثته الرياح الشرقية من الموت ..

وها هو البحر الغاضب المهول يتحول الى طفل بالغ الوداعة ..

وتتحول امواجه الثائرة من افواه مفتوحة للموت .. الى سطور من أبيات شعر زرقاء تقبل اقدام الشاطىء ..

واحيانا تنصرف مشيئة الله تعالى الى شيء يتصل بالبحر ..

ويطيع البحر قوانين لا ندرى عنها شيئا ، وتنشق مياهه عن طريق مفاجيء يسير فيه موسى مع بنى اسرائيل .. ثم يتذكر البحر انه قد نسى شيئا فيعود لاحضاره ، ويلتئم على جيش فرعون وجنوده ..

نعم . كلما زاد تامل الانسان فى البحر زاد احساسه بدهاء البحر ومكره .. معظم مخلوقات البر تدب فوق البر ظاهرة للعيان مكشوفة واضحة ..

اما البحر فبالغ الدهاء .. ومعظم وحوشه المخيفة تنساب تحت الماء ، غير ظاهرة فى معظم الاحيان ، مستخفية استخفاء الماكر الرواغ تحت أجمل الالوان الوديعة الزرقاء ..

هل يحاكى البحر الانسان فى دهائه .. ام ان الانسان تعلم دهاءه من البحر . لا أحد يعرف ..

بوصفنا من البشر سوف نشهد للبشر .. وان كانت الحقيقة ستظل مجهولة رغم هذه الشهادة ..

اليس الانسان هو المخلوق الذى تتامل صفحة وجهه الجميل وتنظر فى عينيه الهادئتين ولا تعرف أنه سيغرس خنجره فى ظهرك حين تعطيه ظهرك ..

هذا المكر مدين بمولده للبحر الكامن فى روح الانسان ..

لا نريد أن نطيل وقوفنا امام البحر ..

فقط نريد ان نتامل البحر .. ونتامل هذه الارض الخضراء الوديعة الطيبه التى تحيط به من كل جانب ..

تأملهما كليهما .. البحر والبر ..

الا ترى فيهما شبها غريبا لشيء مستقر فى نفسك ..

مثلما يحف هذا المحيط المهول بهذا البر الأخضر .. كذلك تنطوى روح الانسان على جزيرة حافلة بالسلام والبهجة ، جزيرة تحيطها مرعبات هذه الحياة الغامضة المروعة ..

رعاك الله ..

لا تغادر تلك الجزيرة فانك ان غادرتها فلن تعود اليها أبدا ..

. . . .

وقفة امام البحر

اعرف ان الانسان هو المخلوق الذى يستمع الى النصائح ولا يلتزم بها . ومهما يكن من أمر ، فان البحر العظيم الذى كنا نتامله منذ لحظات ليس فى حقيقته الا صورة للبحر ..

الانسان هو البحر الحقيقى ..

حين نحب الاسرار .. نتحول الى حقيقة البحر

نعطى ظهرنا للصوره ونتأمل الأصل ..

نتأمل بحار الحب عند الصوفية ..

لماذا اخترت كلمة البحار تعبيرا عن الحب .. هل هو الولع بالاسرار الكامنة فى مياه البحر .. اليس الماء اصل كل شيء حى ..

. . . .

قبل أن يبدأ البدء أو يكون الكون ..

قبل ان تصفع الشمس ظلالها على الأرض ..

قبل ان تخلق الارض من انفجار كونى او ابتسامة كونية نتيجة امر يتالف من حرفين ..

قبل اى قبل ..

كان الله ولا شيء مع الله ولا شيء قبله ..

كيف كان ..

اين كان ..

افضل ان نذيب الأسئلة فى خشوع ماء يترجرج موجه بالسجود ..

« وكان عرشه على الماء » .

سبحانه وتعالى ..

كيف كان عرشه ..

هذا سر سكت عنه الحق ..

اين كان عرشه ..

هذا سر اجاب عنه الحق فزاد السر ولم ينقص ولم ينكشف « وكان عرشه على الماء » ..

اى ماء .. اين كان هذا الماء ..

أسرار وراء اسرار ..

. . . .

الشاطىء اسرار ..

وبحار الحب عند الصوفية اسرار ..

والصوفية اهل عطش الى الحقيقة .. والحقيقة كائنة فى الماء واحيانا يكتب العارفون كلماتهم على الماء .. واحيانا يسير رجال على الماء ويهلك من العطش رجال أفضل منهم ..

امر محير حقا ، ولكنه لا يستوجب اهدار المحاولة ..

قبل ان ننشر اشرعتنا البيضاء ونبحر فى بحار الحب ، نريد ان نعبر نهرا صغيرا متقلبا .. هو هذا الجدل حول الصوفية ..

يعتقد البعض ان التصوف كلمة لا علاقة لها بالاسلام .. كلمة دخيلة على الاسلام .. ويرى البعض أن التصوف بمعنى الصفاء فى حب الله هو لب الاسلام .. ومثلما يقف البعض من التصوف موقف العداء والحذر والتشكك والرفض ، يراه البعض غاية سير السائرين ومقصد أهل العابدين ..

ولكل فريق حجته واسلوبه فى اثبات وجهة نظره ..

ننظر فى أوراق الفريقين قبل أن نقطع برأى ويستبد بنا اعجابنا بهذا الرأى على امتداد التاريخ الاسلامى ..

نشب العداء بين الصوفية وغيرهم من الفرق .. وتجادلوا كثيرا واختلفوا كثيرا ..

من اعداء الصوفية علماء الكلام ، فقد رفع علماء الكلام رايات العقل ، على حين رفع الصوفية شعار القلوب والأسرار ..

من أعداء الصوفية اهل الظاهر ، وهؤلاء هم الذين يلتزمون بنصوص الآيات ويقفون عندها فلا يتزحزحون ، والاصل انهم ينظرون الى ظاهر الاشياء ، ويأخذون بظاهر الآيات ، لأن الغوص فيما وراء ذلك ليس فى امكان الانسان ، لأن السرائر والقلوب والنوايا والخفايا اسرار لا يطلع عليها غير الله ..

اما الصوفية فقالوا انهم يدعون اهل الظاهر فى المياه الآمنة ، وسيمضون هم فى البحار غوصا وبحثا عن كنوز القاع ..

من أعداء الصوفية أهل الشريعة أحيانا ، ويسمى الصوفية انفسهم أهل الحقيقة تمييزا لهم عن أهل الشريعة ، ويتساءل اهل الشريعة اذا كانت الحقيقة ليست كائنة فى الشريعة فلماذا انزلها الله ؟

ولقد حفلت كتب القدماء بهذا الجدل الطويل ، ولم يخل الامر من معارك استخدمت فيها السيوف أحيانا حين اعيا المجادلين المنطق ..

اما المعاصرون ففيهم رافضون كثيرون ..

كل الملاحدة يرفضون التصوف باعتباره تجربة روحية ، لانهم لا يؤمنون بالروح كما يؤمن بها المؤمنون ..

وفى الفلاسفة من يرفض التصوف كأسلوب من أساليب البحث عن الحقيقة لأنهم يرون الفلسفة هى الأسلوب الوحيد للبحث عن هذه الحقيقه . وفى المعاصرين من ينظر الى التصوف فيراه شرا كله ، ويعتبره لونا من الوان الهروب العاجز اليائس الى الخرافات والعجائب . وفى الباحثين من يدرس التصوف فيرجعه الى أصوله الهندية والفارسية ويبين تأثره بلاهوت المسيحية وفلسفة بوذا واضرابه ..

وفى المسلمين المتشددين من يعتقد ان التصوف انحراف عن الاسلام وجهاده الى رهبانية اسلاميه جديدة لم يأمر بها الله ولم يصنعها الرسول . وتكاد دوافع الرافضين للتصوف تكاد تنحصر فى الادلة التالية

اولا : ان التصوف بدعة ، فلم نسمع عن الكلمة فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صرح الرسول الكريم بقوله : « من احدث فى امرنا هذا ما ليس منه فهو عليه رد » .. وما دام التصوف بدعة فهو مرفوض .

ثانيا : ان التصوف مرض ، اندلع كالنار فى جسم الأمة الاسلامية من اطرافها مما وراء الجزيرة العربية ، حيث تحركت البقايا من ثقافة المجوس فى خرسان وبلغ فى محاولة لاستعادة الأرض التى فقدتها فى عقول المسلمين

الجند ، وتسللت عقـــائد الحلوليين فيما تاخم الهند من بلاد العراق ، وانبعثت اباطيل الفلاسفة فيما اتصل من البلاد بارض مصر واليونان .. وهكذا تسلل التعقيد الغامض الى العقيدة الاسلامية الواضحة المشرقة .. وادى صراع الصوفية مع علماء الكلام الى خلق ما يشبه قذائف الأعماق التي تنفجر داخل جسم الأمة الاسلامية باصوات مكتومة لا تتيح لأحد ان يحذرها .. وبعد ان كان الاسلام هو دين العقل والقلب والمنطق والعقل صار معرفة تبحث عن نفسها في الذوق والشوق والمشاهدة والمكاشـــفة والعشق والجذب ، وغير ذلك من افانين التصوف ومبتكراته المسرحية ..

ثالثا : ان التصوف كهانة ورهبانية ، وبهـــذين الوصفين يخرج من الاسلام وان تدثر بعباءة الاسلام ..

. . . .

هذه أهم حجج الرافضين تماما للتصوف ..

والحقيقة أن اول ادلتهم في الرفض يكفي وحده لاغلاق باب الجدل .. فهم يعتقدون أن التصوف بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضـــلالة في النار ..

والحق ان موقف الرافضين للتصوف ليس كله بهذا القطع .. ان هناك من ينظر اليه فيقبل منه أجزاء ويرفض منه اجزاء ، ويختار ما يتفق معه ويرفض ما لا يقبله .

وقد آثرت ان اورد راى اهل الذروة في الرفض لاتكلم عن راى اهـــل الذروة في القبول ..

في الصوفية من يدافع عن نفسه بغير اسلوب الدفاع .. لا يهاجم الفكرة التي ترمى التصوف بالخروج على الاسلام والرســــول ، وانما يؤكد ان التصوف هو قلب الاسلام وفطرة البشرية وهو سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

يقول كتاب من كتب المحدثين في التصوف ..

« التصوف عبـــادة وطهارة وزهـــد . ثم كشف وفيض واشراق ـ

اتصال بالخالق الأعظم الذى صدر عنه الكون ، اليست حياه محمد فى الغار صورة كاملة للصوفى الحق ، اليس هذا التأمل المحمدى فى عظمة فاطر السماوات والأرضين ، أساسا للأذواق والمواجيد الصوفية ، وسبيلا للكشف والفيض والاشراق .. غير أن محمدا نبى ولا نبى بعده ، وانما احياؤه واتباعه على سنته وهديه كان صلوات الله عليه امام الصوفية الاكبر ، وكان يواصل التعبد والتهجد ، وكان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه فتقول له السيدة عائشة :

ـ لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ..

فقال صلى الله عليه وسلم :

ـ افلا اكون عبدا شكورا .

ويروى الصوفية أحاديث كثيرة عن زهده وتحنثه فى الغار وكراهيته للدنيا وايثاره للآخرة وتواضعه للخلق ..

وقد دخل عمر رضى الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده يضطجع على حصير خشن ترك آثاره على جنبه ، فبكى عمر ، فسأله الرسول عما يبكيه قال ان أرى كسرى وقيصر على الحرير والاستبرق وأراك على هذا الحصير .. فغضب الرسول وتساءل : أتريدها كسروية يا عمر ؟

هذا رأى المغالين فى تأييد التصوف وذلك رأى المغالين من أعداء التصوف بسطناهما لنعرف ماذا يقول كل فريق ..

ونحن لسنا مع الفريقين لأننا لسنا مع الغلو أو التزيد ..

لست اعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان صوفيا ..

لست أملك أن اطلق على الرسول صفة لم ترد عنه ولم يوصف بها فى حياته ..

هو اجتراء اذا أن نسميه بعد موته صلى الله عليه وسلم بوصف

مستحدث .. حتى لو كان هذا الوصف مائدة من المديح والتعظيم .

الرسول صلى الله عليه وسلم نبي مرسل .

وهذه درجة لا يمكن للبشر الفانين معرفة قدرها .

وليس بعد النبوة درجة أو صفة أو تكريم أو امتياز .

ايضا لسنا ضد التصوف الى الحد الذى نخلعه من الاسلام ونرميه بتهمة البوذية والفارسية والهندية ونراه مرضا يصيب الروح فتهرب الى التيه والشتات ..

لو تصورنا أن قاضيا من بنى البشر يريد أن يحكم على التصوف فكيف يحكم عليه .

يجب على القاضى ان يكون هادىء العقل .. غير منحاز الى معسكر ضد معسكر ..

يجب على القاضي ان يكون امامه قانون يحكم به .. ومعيار يزن على أساسه ..

لا ينبغى ان يطمئن القاضي لقانون غير القرآن ..
نحتكم الى القرآن اذا .

ما وافق القرآن كان حقا وان حمل اسم التصوف أو اسم الظاهر .. او أى اسم ..

وما خالف القرآن كان باطلا وان حمل اسم الحقيقة ..
هذا هو المعيار الذى نطمئن له ..

. . . .

قبل أن نحتكم الى القرآن ونبدأ سياحتنا فى بحار الحب .
نريد أن نعرف أسرار هذا الجدل الطويل حول الصوفية .
لماذا اختلف الناس وانقسموا ؟.

ان جواب هذا السؤال رغم بساطته سر من أسرار الخليقة .

خلق الله الناس على قدر من التفاوت فى الفهم والاحساس والمقدرة

فى الناس من يمشي وراء عقله . ومنهم من يمشي وراء قلبه ، وفيهم من يرفع لواء الضمير ، وفيهم من يخرج على هذا كله لشيء أخطر ، وعــــدم تساوى القدرة البشرية أو العقل البشرى يعني أن الناس سوف تختلف ..

ولقد خضع الاسلام فى القرون الأربعة عشرة التى عاشها على الأرض لما خضعت له كل الأديان السابقة عليه من ضروب الدرس والفهم والتفسير والتاويل ، واذا كان كتابه قد ظل بغير تحريف ، فان فى هذا الكتاب قد تعرض لما يتعرض له فهم اى كتاب مقدس .

ان ظهور اتجاهات فى العقائد والعبادات والمعاملات ، قد أدى لنشوء مذاهب فى الفلسفة والفقه ، ومدارس فى علم الكلام والتصوف .

وكان طبيعيا ان يبدأ الاختلاف والمعارضة .

أن للمتكلمين فهمهم الخاص لأمهات العقائد والدفاع عنها .. وللصوفية موقفهم المختلف عن موقف علماء الكلام ..

بل ان المتكلمين ليسوا سواء فى فهمهم للعقيدة .. والصوفية ليسوا سواء فى نظرتهم الى الأمور .

والذين يؤولون الكتاب ويفسرونه يختلفون احيانا اختلافات محيرة .. نضرب مثالا بقوله تعالى ((**يد الله فوق ايديهم**)) اذا فهمها انســـــان بمعنى اليد ، مع التنزيه والتقديس ، وفهمها انسان آخر بمعنى القدرة ، فأيهما على حق ..

ان الاثنين على حق ..

يجب أن نعترف أن كثيرا من المختلفين يتكلمون باسم الاسلام وينتمون اليه ويصورون الاسلام لغيرهم كما تصوروه هم أنفسهم .. وهم فى هذا كما يقول سادتنا واساتذتنا مجتهدون . ان اخطأوا فلهم اجر ، وان اصابوا فلهم اجران .. ومن حقهم علينا ان ندين لهم بالفضل والشكر وان نحاول فهم آرائهم ووضعهم فى سجل التراث الفكرى الاسلامى اولا .. والتراث الفكرى العالمى بعد ذلك .

والحقيقة انه ليس هناك فى فهم مسائل الدين ما يمكن أن نسميه كاذبا

او صادقا .. ما دام قائما على أساس من الكتاب والسنة . وما دام المتأول لا يخرج بالنص عن المعانى التى جرى بها العرف فى اللسان العربى .. بل اقصى ما توصف به تأولات المتأولين انها حرفية ضيقة ، او متحررة واسعة ، او اكثر عمقا فى الروحانية . او مناسبة لموضوعها ..

ان الصـــــلاة عند الفقهاء افعال وأقوال مفتتحة بالتـكبير مختتمة بالتسليم ..

والصلاة عند الصوفية مناجاة قلبية بين العبد والرب .. اليس الاثنان على حق ، ان النظر الى الله باعتباره معبودا نظر صحيح .. والنظر اليـــه باعتباره محبوبا اولا ومعبودا ثانيا نظر صحيح ..

نبتعد اذن عن هذا الجدل والخصام وليكن امام القاضى قانون واحـد .. هو القرآن .

هل وردت كلمة التصوف فى القرآن ؟

لم ترد الكلمة ..

يقول الصوفية ان القرآن لم يورد الكلمة ولكنه أورد قصة عظيمة هي لب التصوف الاسلامى ..

قصة موسى عليه الصلاة والسلام .. والعبد الربانى .

* شاطىء بحر ..

هذا مكان القصة ..

الشاطىء رمادى باهت ، والبحر امامه ساكن ، والمكان مضبب بشىء يشبه السر ..

ليس هناك بحر واحد ..

هناك بحران يلتقيان معا .

اى أن هناك سرين قد اجتمعا فازداد الأمر غموضا فوق غموض .

اقدام موسى تدب على رمال الشاطىء وفوافعه ، العصـــــا تنغرس فى الرمال واحيانا يبلل الموج نهايتها ..

وتحس العصا انها تعيش زمنين معا ، طرف مغموس في مياه ملحة باردة وطرف يتلقى اشعة الشمس الدافئة .

والمياه سر .. والشمس هي الأخرى سر .. وزمن القصة سر هو الآخر ..

لا يقول لنا القرآن الكريم متى كان ذلك ..

لا يقول لنا اين كان ذلك ..

حدد القرآن المكان ولم يحدده ..

ان موسى يقرر امرا مفاجئا ..

« واذ قال موسى لفتاه لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين او امضي حقبا » .

ان موسى يقرر لفتاه (وهو فتى لايذكر القرآن اسمه) .. انه سيمضي حقبا ومسافات وازمنة .. حتى يصل الى مجمع البحرين ..

اين كان مجمع البحرين هذا .. اين كان لقاء البحرين هذا ..

لا يقول لنا القرآن الكريم شيئا عن المكان فهو قد حدده ولم يحدده ..

ولقد تحدث كثير من المفسرين عن هذا المكان ، وحدده بعضهم ، واجهدوا انفسهم في محاولة تعيينه ، ونرى أن هذا كله غير مطلوب ولا مقصود .. فان هذا الجو الخارجي الغامض المشحون بالأسرار يتفق تماما مع الجو الداخلي الغامض المشحون بالأسرار ، ويتفق مع لب القصة وهدفها ..

. . . .

يقول المفسرون ان رجلا من قوم موسى سأله يوما :

ــ من اعلم الناس في الارض اليوم يا موسى ؟

قال : انا .. وقالها باعتباره كليم الله ونبيا من اولي العزم الكبار .. فاوحى اليه الله أن يذهب الى مكان ليلتقي بعبد من عباد الله .. ولسنا نعلم هل كان موسى ذاهبا ليتعلم .. هل اخبره الله تعالى انه قد تجاوز حدوده حين اعتقد انه اعلم الناس ، فهو رغم نبوته وكونه « كليم » الله

تبارك وتعالى ، فقد يكون فى الارض من هو أعلم منه .. هل ذهب موسى لهذا السبب أم ذهب لأن الله أمره بالذهاب ليرى لونا آخر من العلم الذى يختلف عن علمه ..

لسنا نعرف لماذا ذهب موسى بالتحديد .. لاتشى الآيات القرآنيــة بسر ذهابه .. انما تخفى هذا السر ، وهكذا يذهب موسى امامنا كانه يمشى فى ضباب ..

تأمل العبد نفســه الذى ذهب اليه موسى ليتعلم منه ويتبعه ..

ان العبد بغير اسم .. يقدمه القرآن مجهولا بغير اسم .

لم يحدثنا الحق تبارك وتعالى عن أسمه .

« **فوجدا عبدا من عبادنا** » ..

تأمل هذه العبارة « **عبدا من عبادنا** » ..

ان العبد الصالح المنسوب لله تعالى يظهر على مسرح الأحداث مدثرا بالغموض ملتفا بالضباب .

رجل بلا اسم .. مثل تلميذ موسى .. مثل المكان الذى ذهب اليه .

هذا الغموض الذى يرتقى لحد الرهبة الساكنة مقصود ومتعمد لخدمة الغرض الاصيل فى القصة ، وهذا من الوان التصوير الفنى فى القرآن كما يقول الاستاذ سيد قطب .

نريد ان يتأمل القارىء هذه الآيات ليرى اعجاز الأسلوب الذى يسوق الله تعالى به بدايات القصة ..

« واذ قال موسى لفتاه لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين او امضى حقبا ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال ارايت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا ، قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا .. فوجدا عبدا من عبادنا » ..

تأمل ظهور العبد على مسرح الحدث .. ان صورا عرسه تقع امامنا

قبل ان يظهر هذا العبد ..

في البدء نرى موسى مصرا على عدم اليأس ، فهو لن يتوقف عن الترحال والبحث حتى يصل الى مجمع البحرين ، ويصل موسى مع فتاه بعد رحلة شاقة الى المكان المحدد ..

وينسى فتى موسى « حوتا » صغيرا ، ينسى سمكة كانت مشوية على النار ومهياة لغداء موسى ، يتساها تماما فتعود السمكة الى الحياة وتتسلل في البحر عجبا .. أمر بالغ العجب أن تعود السمكة الى الحياة وتعود الى البحر بعد أن طهيت على النار ، لكن الأسرار تزيد كلما تقدمت سطور القصة ، ونحن لا نعرف لماذا وقعت هذه الخارقة او المعجزة في هذا الوقت بالتحديد ، وسنفهم فيما بعد أن هذه المعجزة اشارة موحية من الله تعالى بتحديد المكان الذي سيعثر فيه موسى على العبد الرباني .. بعد أن تسللت السمكة الى البحر ، سار موسى وفتاه حتى تعب موسى وأحس بالجوع ، وقال لفتاه آتنا غداءنا .. وتذكر فتى موسى كل ما حدث ..

تذكر أنه رأى السمكة تقفز من السلة الى البحر .. وتسبح فيه وتمضي في طيات الموج مثل سر صغير يذوب في سر أكبر ..

ونسى فتى موسى كل شيء مما رآه .. انساه الشيطان ان يحدث موسى بما وقع ، وذلك أمر غريب ، لأن ما وقع كان جديرا بأن يذكره ، فهو معجزة ، وكان جديرا بأن يحدث عنه موسى ، لأنه ربما كان اشارة لموسى بشيء ..

ويبدو أن موسى اغفى قليلا فوقع ما وقع إثناء نومه ، وشاهده فتاه وخادمه ، فلما استيقظ موسى نسى فتاه كل شيء عما حدث ، وعاد يسير مع موسى حتى دميت إقدامهما من السير وأحسا التعب وجلسا للراحة ، وتذكر موسى غداءه وامر فتاه أن يحضره ، عندئذ تذكر الفتى أن الحوت الصغير قد عاد الى البحر .. وأنبأ موسى بما وقع ..

وفهم موسى الاشارة الالهية على الفور ..

قال ذلك ما كنا نبغ .. هذا ما نريده بالضبط .. هذه المعجزة او

هذا السر اشارة الى سر آخر سنجده فى هذا المكان ..

وعاد موسى مع فتاه يقصان آثار أقدامهما حتى عادا الى المكان الذى تسلل فيه الحوت ..

« فوجدا عبــــدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » ..

ينسب الله تعالى العبد الى نفسه ، وينسبه الى عباده الذين آتاهم رحمة من عنده ، ويقدم الله تعالى العبد بوصفه عبدا « **علمناه من لدنا علما** » ..

هذا بطل القصة .. وهو رجل بلا اسم .. وان اعتقد المفسرون انه الخضر عليه السلام ، وان القرآن لم يصرح باسمه لأن التصريح باســـمه لا يعنى شيئا ، وعدم التصريح باسمه يعنى آلاف الأشياء ..

نحن أمام رجل آتاه الله من علمه اللدنى .. وهو علم هائل ، وان كان سرا كله ، وهو علم يرتدى أكثر من قناع ، وربما نظرت فى صفحته البادية

فرايت ماساة أو جريمة ، ولكن قاع الحقيقة يخلف كل الاختـــلاف عما تراه ..

هذا العلم اللدنى يختلف تماما عن العلم البشرى ..

يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

تشير هذه الآيات الى العلم البشرى .. وهو علم يرمز له القرآن الكريم بالقلم .. أما العلم الآخر ، أو العلم اللدنى ، فهذا نوع آخر ، وهو ليس منسوبا الى الله فحسب ، انما هو من لدنه سبحانه ..

. . . .

لم يكد موسى يلتقى بهذا العبد حتى سأله أن يعلمه .

« قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » .

السؤال من موسى وهو سؤال جدير بأن يثير دهشتنا قليلا ..

ان موسى كما يرسمه الحق تبارك وتعالى فى القرآن رجل قوى عنيف سريع الغضب ، انه يتدخل فى مشاجرة ويدفع بيده رجلا فيقتله ، وهو حين القى العصا من يده فصارت حية أصابه الروع وولى هاربا ، وهو حين عاد يحمل الواح التوراة ووجد قومه يعبدون العجل ثار ثورة هائلة والقى الواح التوراة من يده وأمسك برأس أخيه ولحيته معنفا :

« **قال يا ابن ام لا تاخذ بلحيتى ولا براسي** » .

ولو عرفنا من قائل هذه الكلمات لأدركنا غضب موسى ، قائل الكلمات هو هارون النبى الكريم وشقيق موسى ..

بل ان موسى ظل غاضبا فترة ، وعبر القرآن عن هذا الغضب بصورة فنية معجزة فى قوله تعالى « **فلما سكت عن موسى الغضب** » .

نريد أن تقول ان موسى كان سريع الانفعال سريع الغضب ، وأحيانا كان صبره ينفد ، حتى فى مواقف الخوف او الرهبة ، ان صبره ينفد فيقول الحقيقة كاملة ، وها هو امام جبار الأرض فرعون يقول له بعنف «**وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل**» هل تمن على انك استخدمت بنى اسرائيل عبيدا لك ، هذا يحتسب ضدك ولا يحتسب لك .

نريد أن نقول أن موسى هذا النبى السريع الغضب ، يتحول الى شخص آخر ، فيحدث العبد الذى عثر عليه بأنه يريد أن يتبعه .. ويريد أن يتعلم منه ..

ورغم هذا السؤال الهادىء المدمث .. ترى العبد الصالح يجيب موسى اجابة عنيفة « **قال انك لن تستطيع معى صبرا** » .

بهذه الجملة السريعة ينبه العبد موسى الى حقيقة الفرق بين العلم البشرى والعلم اللدنى ، فالعلم اللدنى ثقيل ولن يصبر عليه موسى ، ولن يصبر على اتباعه بالتالى .

وربما أحس العبد أن موسى فوجىء ، فعاد يحدثه عن بديهية مفترضة :

« وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » .

الصبر يكون حين تعرف اقدار الأشـــــياء . ويكون حين تفهم اخبار الأشياء ، ولن احدثك عن أسرار الأشياء .. ولهذا لن تصبر عليها ..

عاد موسى يقول بأسلوب يشي بالرغبة والالحاح ..

« قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا اعصي لك أمرا » .

خضوع مطلق من تلميذ لن يعصي لأستاذه امرا .

ووعد في نفس الوقت بالصبر .. والصبر هو احتمال ما لانفهم .

ويضع الأستاذ شروطه :

« قال فان اتبعتني فلا تسالني عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا » .

الشروط .. الا تسأل ..

السؤال ممنوع تماما .. مهما رأيت .. مهما تحيرت ..

لا تسأل حتى احدثك انا .. عبارات العبد قصيرة وتلغرافية وموحية .

وافق موسى على الشرط وبدأ رحلته مع العبد الصالح .. **« فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة »** ركبا في سفينة رحبت بهما ورفض صاحبها أن يتقاضى منهما اجرا لانهما غرباء . وفوجيء موسى حين غادرها صاحبها ، فوجيء ان العبد الصالح الذي جاء يتعلم منه منهمك في خرق الســـــفينة واتلافها .. بل انه « خرقها » .. وغلبت موسى طبيعته المندفعة في الحق ، وحركه غضبه على الخطأ فانطلق يقول للعبد :

« اخرقتها لتغرق اهلها لقد جئت شيئا امرا » .

يتهم موسى العبد بأنه قد ارتكب خطأ بالغا ، فهو يرد على احســــــان اصحاب السفينة بالايذاء ، وهو يعرضهم للغرق والموت بفعلته .. وينظر العبد الصالح الى موسى ولا يزيد على ان نقول له :

« قال الم اقل انك لن تستطيع معي صبرا » ..

انه يذكره بما سبق أن قاله له . ان علمه ثقيل ولا قدرة لموسى على احتماله ..

ويعود موسى الى الاعتذار .

« قال لا تؤاخذني بما نسيت » .

وبعد الاعتذار رجاء بالا يرهقه العبد الصالح من أمره عسرا ، لقد نسى وهذه هى المرة الاولى ، ليسامحه هذه المرة ..

وتكاد نحس من غضب موسى المستتر لهفته البالغة فى التعلم ومصاحبة هذا العبد ذى التصرفات الغريبة .

ويعاود موسى مصاحبته للعبد ...

« فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله » .

كان تصرف العبد هذه المرة غاية فى الغرابة .. نحن امام جريمة قتل ، وهى جريمة شاهدها موسى واندهش لها دهشة عميقة ، وثار بسببها ثورة عميقة .. وكان بطلها هو نفس البطل الذى خرق السفينة ..

وعاد موسى يوجه حديثه اليه :

« قال : اقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا » .

النفس الزكية هى الغلام ، وهى زكية لأن الغلام صغير السن لم يرتكب بعد من الجرائم ما يسمح بقتله .. وقتله هنا شىء منكر بالغ البشاعة ..

وعاد العبد الصالح يلفت موسى الى جملته الأولى التى قالها له مرتين قبل ذلك :

« قال الم اقل لك انك لن تستطيع معى صبرا » .

لو تأملنا غموض العبد فسوف نلاحظ أنه يزداد كلما تقدمت القصة ، فهو لا يتكلم .. بطل القصة الرئيسى لا يتكلم مطلقا ، انما يتصرف فى هدوء صامت ، وهو اذا تكلم قال لموسى انك لن تستطيع معى صبرا ..

وهو يقول هذه الجملة ثلاث مرات .. وفى المرة الثالثة يعترف موسى بانه يوشك ان يؤكد ما قاله الأستاذ من أنه لن يصبر ، وكل ما يطلبه موسى فرصة أخيرة يثبت فيها صبره وقدرته على التعلم .

« قال ان سألتك عن شىء بعدها فلا تصـــاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا » ..

وعادا ينطلقان .. وصلا الى قرية بخيلة غاية البخل .. حاولا أن يأكلا منها كغرباء وضيوف بلا اجر ــ كعادة هذا الزمان ــ ولكن القرية ابت أن تطعمهما أو تضيفهما .. وانصرف الاثنان .. موسى والعبد الصالح ، ويبدو ان موسى لم يصحب فتاه معه فى رحلة التعلم هذه لأن القرآن يتحدث عنهما كائنين .. « **فانطلقا** »..« **حتى اذا اتيا** » « **فابوا أن يضيفوهما** »..

بعد هذه المعاملة السيئة ، انصرف موسى والعبد الصالح الى خلاء خرب فيه جدار يوشك أن ينقض .

وفوجيء موسى أن العبد الصالح يمضى الليلة فى اصلاح الجدار وبنائه من جديد ، ووصلت دهشة موسى الذروة من هذا العبد الصالح ..

لقد باتا بغير عشاء .. لم يطعمهما فى القرية احد .. لماذا يبنى الرجل هذا الجدار المتهالك .. لو شاء لاتخذ عليه أجرا .. ويقول موسى فكرته لصاحبه .

« **فانطلقا حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها فابوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض فاقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا** » ..

لقد نسى موسى وعده بالصبر ، وقد سأل قبل ذلك فرصة أخيرة ، وها قد مرت الفرصة الثالثة .

« **قال هذا فراق بيني وبينك** » .

انتهى الأمر ، ولن تعرف منى ما اردت أن تعرف ، ولن تتعلم منى ما اردت ان تتعلم .. ولكى تطمئن بالا فسوف احدثك بأسرار ما رأيت .

« **سانبئك بتاويل ما لم تستطع عليه صبرا** » .

سأفشى لك سر ما رايت .. وسيكون هذا ايذانا بفراقنا النهائى ..

السفينة التى خرقتها لم اكن اريد اغراق اهلها او هلاكهم .. على العكس من ذلك كان وراءهم ملك سيخوض حربا ، وكان ينوى مصادرة كل السفن ، وكان أصحاب السفينة سيموتون من الجوع . فخرقت السفينة ليلفظها الملك . فيعاود أصحابها اصلاحها ويعملون عليها ويأكلون ..

كان ظـاهر مارأيت إيذاء وقتـلا ، وكان باطن ما رأيت هو اللطف والرحمة ..

اما الغلام الذي اهتزت مشاعرك لقتله ، وظننت أن وراء قتله شيئا نكرا ، هذا الغلام طاغية وكافر ، كان غلاما بريئا أمام نظرك ولكنه كان طاغية وكافرا باعتبار ما سيكون حين يكبر ، وأبواه مؤمنان ، وكان سيرهقهما طغيانا وكفرا ، فشاء الله تعالى موته ليريح أبويه منه ، ويعطيهما بدلا منه ابنا بارا ، وهكذا انقذ الله الأبوين وانقذ الغلام نفسه من نفسه ، فهو قد صار الي الرحمة حين مات وهو غلام ، لأنه لم يرتكب بعد ما كان سيرتكب .. لقد نجا جميع الأطراف رغم انك تظن أن جميع الأطراف قد هلكوا .. هلك الولد بالموت .. هذا ما رأيته يا موسى ، ولكن الحقيقة انه نجا بالموت ، ولن يحاسب على ما لم يفعل ، مات وهو غلام برىء ، أما الأبوان فقـد حزنا كثيرا وبكيا كثيرا ، ووراء حزنهما وبكائهما كانت ترقد شمس الفرح والابتسام .. كان ما رأيته هو عكس الحقيقة ..

« اما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان ابوهما صالحا » .. وقد اراد الله الا يهدم الجدار فيظهر الكنز وينهبه أهل القرية البخيلة ، أراد أن يحتفظ لأبناء الرجل الصالح بالكنز ..

ويتقدم العبـد الصالح خطوة فى تعليمه لموسى فيكشـف له سر ما حدث ..

– رحمة من ربك ..

كل ما رأيت من صور الاعتداء أو القتل او وضع الشيء فى غير موضعه .. لم يكن غير رحمة ورحمة ..

حتى مآسى الوجود وكوارثه هي اقنعة للمآسى والكوارث .. والباطن العميق هو الرحمة ..

– وما فعلته عن امرى ..

لم يكن هذا رايا رايته ولا كان اقتناعا بشيء او معرفة لشيء او تطبيقا لعلم بشرى انما كان امرا من الله ..

قال تعالى فى سورة الكهف « **اما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فاردت ان اعيبها وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصبا . واما الغلام فكان ابواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا ، فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما . واما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحا فاراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن امرى ذلك تاويل ما لم تسطع عليه صبرا** » .

نريد ان يلاحظ القارىء أن العبد الصالح استخدم ثلاثة تعبيرات للارادة فى القصص الثلاث ..

قال عن السفينة « **فاردت أن أعيبها** » .

وقال عن الغلام « **فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه** » .

وقال عن الجدار واليتيمين « **فاراد ربك ان يبلغا اشدهما** » .

وقد ارجع الارادة الى نفسه فى قصة السفينة . والى الله ضمنا فى قصة الغلام . والى الله صراحة فى قصة الجدار واليتيمين .

ما الذى تعنيه هذه القصة ..؟

ما الذى تريد أن تقوله لنا ..؟

لا يملك العقل سوى التوقف امام هذه القصة ..

قصة موسى والعبد الصالح والسفينة والغلام والجدار ..

هى قصة من اعجب قصص القرآن ونقصد بالعجب هنا ما اشار اليه الجن حين قالوا « انا سمعنا قرآنا عجبا » فلم يستخدم غير الجن هذا التعبير ، واستخدمه تلميذ موسى حين قال عن الحوت الذى ارتد الى الحياة « واتخذ سبيله فى البحر عجبا » وتصور انت ان يصف الجن وهم عجب خفى فى حد ذاته) القرآن بانه عجب .. ان تحيرهم امام آياته دهشتهم ازاءها يعنى أن ما فيه من أسرار قد استولى عليهم واخضعهم .

وبهذا النظر نتامل القصة ، فهى عجب فى شدة خفائها وعمق معانيها ، وهى عجب فى المستويات المختلفة المتدرجة التى تنطوى عليها ، وهى عجب فى أسرارها المعلنة واسرارها الخفية ..

فى طفولتى ركبت السفينة مع موسى والعبد الصالح .. لم افهم مما يجرى شيئا .. كنت سعيدا بنزهة البحر ، وهياج الأمواج ، وهذه القواقع التى حملتها معى من الشاطىء ..

لم اكن واعيا لهذه الأسرار التى تضمنتها القصة .. موسى وفتاه .. وهذا الحوت (او السمكة المشوية المهياة للغداء) ..

لقد وصلا الى مكان .. يسميه القرآن « مجمع البحرين » ، ويسميه « مجمع بينهما » .. والمكان عند صخرة ..

اوى موسى وفتاه الى الصخرة .. وفى هذه الصخرة عين لا يحدثنا عنها القرآن .. ويبدو أن فى هذه العين سرا يتصل بالحياة ، لأن جزءا من مياه العين حين وقع على السمكة المشوية (أو الحوت الصغير) ، أصاب السمكة شيء مدهش ، فقـــد ارتدت الى الحياة وتقفزت فى مياه البحر ، ولاحظ فتى موسى أو تلميذه هذه المعجزات ونسى أن يحدث عنها موسى ..

كانت كل هذه الاسرار تخضع طفولتى ببداهتها .

وكبرت اكثر ، وقمت بالرحلة مرة ثانية ، وشاهدت العبد الصالح بخرق الســـفينة ، ودهشت وكدت احتج مع موسى ولكننى خشيت ان تغضب العبد أو يغضب موسى لأننى ارفع صوتى جوار صوته .. وهكذا صمت ..

وكبرت اكثر .. لم أعد أعترض على العبد وهو يخرق الســـفينة ، أدركت أنه كان ينقذ أصحاب السفينة باتلاف السفينة .

كنت أجلس صامتا اتأمل غرابة ما يجرى لموسى ..

لقد بدات حياة موسى وهو طفل بالقائه فى صندوق والقاء الصندوق فى الماء .. وكان هذا التدبير الالهى لينجو موسى من القتل ..

كان البحر هو اول من استقبل موسى وهو طفل ..

وها هو موسى . كب .سفينة ليولد من جديد ، او لينجو من تصـــور

ان علمه هو العلم الوحيد الموجود فى الارض ..
وقد قتل موسى انسانا حين وكزه فقضي عليه .
وها هو العبد الذى يصحبه يقتل غلاما ..

وقد تصرف العبد فى القرية البخيلة تصرفا أريحيا بلا أجر ، وكان هذا تصرف موسى حين وصل مدين ووجد الناس تحاول أن تسقى ووجد فتاتين لا تزاحمان الرجال ، فسقى لهما ..

ان قصة العبد الصالح تقابل قصة موسى ..

والرموز هنا تقابل الرموز هناك .. والأسرار تزيد وتتكاثف .. وكلما تقدمت الأيام واشتعل الراس شيبا وزاد حظ المرء من الادراك .. زاد حظه من التحير .

. . . .

القصة بحر مياهه بلا قاع ..
وفى البحار الحقيقية أجزاء تبدو من فرط العمق بلا قرار ..
وفى بحار الحب الالهى اجزاء بلا قاع حقيقى .
وكل موجة من أمواج هذا البحر سر كالبحر نفسه ..
ولو حاولنا اليوم أن نقرأ فلن نقرأ اكثر من هذا الموج القريب الهادىء الذى يتكسر زبدا أبيض على الشاطىء ..
لن نقرأ أبعد من سطور الشاطىء ..

. . . .

أحد معاني القصة ان فى الدنيا احداثا يختلف ظاهرها عن باطنها يبدو الظاهر مأساة على حين ينطوى الباطن على حقيقة الرحمة . أو يبدو الظاهر خاليا من العقل والتدبير يشى الباطن بالحكمة العميقة .

ولنتأمل — معا — هذه الاحداث الثلاثة فى القصة كرموز ثلاثة ..

● أن السفينة التى خرقها العبد الصالح الغامض ترمز الى كلّ ما نملكه الانسان ويحرص عليه من ماديات الحياة ولقمة العيش .

● والغلام الذى قتل بغير نفس او ذنب جناه يرمز لكل ما يقع على الانسان نفسه من ضرر أقصاه القتل .

● والجدار الذى أعيد بناؤه كان رمزا عجيبا لما نتصور أنه عبث او لا معقول وهو فى حقيقته غاية الحكمة .

وهكذا تكتمل الرموز الثلاثة ..

ان الضرر الذى يصيب ما نملك ..

والدم الذى يسيل منا او ممن نحب ..

والعبث الذى نراه فى الحياة حولنا ..

هذا كله وراء حكمة عميقة .. هى الرحمة الالهية الشاملة .. كل خراب ظاهر .. او موت ظاهر أو عبث ظاهر .. ليس كذلك فى حقيقته ..

الحقيقة انه جزء من نسيج الرحمة الالهية ..

وأى انسان يصيبه شيء .. تخرق سفينة عيشه .. او يقتل له طفل .. أو يموت له أحد ، أو يرى العبث يملأ الحياة حوله .. أى انسان يقع له شيء من هذا، فما عليه الا أن يذهب الى مجمع البحرين حيث ذهب موسى .. وليقف أمام الآية الستين من سورة الكهف ليقف هناك ويبكى ما شاء الله له أن يبكى فالبكاء رقة فى القلب وحنو .. ولتسقط الدموع بملح الصدق فى مياه البحرين بملحهما .. وليركل بعد ذلك السفينة ويصاحب موسى والعبد ..

سوف يقرأ فى أسرار الموج عناية الله ورحمته سبحانه ..

وليس هذا العبد المدثر بالخفاء والسر سوى رمز من رموز الرحمة الالهية فهو عبد يتحدث منه الحق بقوله تعالى :

« آتيناه رحمة من عندنا .. وعلمناه من لدنا علما » ..

. . . .

الرحمة الالهية معنى من معانى القصة ..

وفى القصة معان اخرى .. من معانيها ان العلم على الارض ثلاثة

أنواع ..

أولها : علم البشر المعتاد الذى تكسبه بالجهـــد والتعلم .. مثل علم الصيد أو الزراعة .

وثانيها : علم الأنبياء الذى يوحيه الله لأنبيائه بواحد من الطرق الثلاث التى حددها قوله تعالى :

« وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء » ..

وثالثها : العلم اللدنى او علم الاسرار ..

والفرق بين العلوم الثلاثة هائل .. ولا مجال للمقارنة بينها ولا المفاضلة او ترتيبها حسب الاهمية ، يمكن ترتيبها حسب الظهور على مسرح الحياة .. لقد سبق العلم البشرى كل العلوم على الأرض ، وحمل هذا العلم نبى كريم هو آدم عليه السلام ..

فقد خلق الله تعالى آدم بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه الأسماء كلها ، وأمره ونهاه ، وتاب عليه حين عصى واجتباه .. قال تعالى : **« وعلم آدم الأسماء كلها » ..**

لم يقل سبحانه أنه علم آدم الأسرار كلها ..

ومعنى تعليم الاسماء هو تعليم آدم هذه القدرة البشرية على استخدام اللغة والرموز ، هو تعليمه القدرة على الاشارة باللغة ، واستخدامها كرمز ، القدرة على البحث فى جميع العلوم البشرية .. وقد ورث أبناء آدم هـــذه المقدرة على البحث عن إسماء الأشياء ومعرفة طبيعتها واكتشافها .. وأول خصائص العلم البشرى هو الجهد والبحث ، وامكانيات الخطأ قائمة فى مجاله طوال الوقت يموت العالم فيكمل تجاربه عالم آخر ، ويسلم كل جيل معارفه للجيل الذى يليه ، وتمضى دورة البحث طالما ان فى الأرض انسانا ..

هذا أول انواع العلم ظهورا على مسرح الأرض ، وهو علم مركوز فى فطرة الانسان . وهو أساس مبدئى كرم الله تعالى آدم بسببه ، وهو مميأز

للتفضل الذى فضل الله به ابناء آدم على غيرهم من المخلوقات ، وحين سأل الملائكة رب العرش سبحانه :

« اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » أجاب الحق سبحانه :

« قال انى اعلم ما لا تعلمون .. وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤنى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين : قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم » ..

نفهم من هذا أن ميزة النوع البشرى هى العلم .

ومعيار تفضيله هو العلم ..

ومبررات خلقه رغم افساده فى الأرض وسفكه للدماء هى العلم ..

وحكمة اسناد الخلافة فى الأرض اليه هى العلم ..

العلم بالأسماء ..

هذا كله أساس لا بد منه لتلقى علم الأنبياء ..

وعلم الأنبياء هو علم التوحيد ، وقد ظهر هذا العلم بعد علم الأسماء على الارض .. لقد علم الله تعالى الانسان أن يصنع رغيف خبزه ، وعلمه أن يصطاد قوت يومه ، وعلمه أن له ربا واحدا هو خالقه سبحانه ، تقول ان علم التوحيد ظهر فى رسالات الأنبياء بعد نزول الانسان الى الارض ، والحقيقة أن هذا العلم ظهر قبل هبوط الانسان الى الأرض ..

يحدثنا الله تبارك وتعالى فى آية الميثاق انه أخذ العهد على أبناء آدم بتوحيده والاقرار بربوبيته فاقروا .. وتم هذا وهم فى عالم الذر قبل الخلق ..

« واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم .. قالوا بلى » ..

وقد بعث الله تعالى انبياءه ليعيدوا الخلق الى هذه الفطرة المركوز فى الأرواح والقلوب .

وعلم الانبياء هو الشريعة التى يريد الله عز وجل من عباده اتباعها والسير طبقا لدستورها ، وهو يختلف عن العلم البشرى فى تنزهه عن الاجتهاد والبحث والجهد والخطأ ..

يحتمل هذا العلم تفسير المعانى والآيات ، ولكن أصوله لا تخضع للاجتهاد والبحث كالعلم البشرى ..

اذا كان علم الانبياء هو علم الشريعة ، فان الشريعة هى الحقيقة كما هو معروف ، وليس هناك تعارض مطلقا بين الشريعة والحقيقة ، ولو دققنا النظر فى قصة موسى والعبد الصالح ، ونظرنا اليها من وجهة نظر الشريعة .. فسوف نرى ان الجزاء الذى وقع فيها كان متفقا كل الاتفاق مع شريعة موسى ..

ان انقاذ أصحاب السفينة بخرق السفينة عمل طيب تجازى عليه الشريعة ..

وقتل الغلام الذى كان سيرهق والديه طغيانا وكفرا هو جزاء الشريعة ، فقد كانت الشريعة التى انزلت على موسى فى التوراة تقضى بقتل من يقوم بعقوق والديه ..

اما بناء الجدار فامر يتفق كل الاتفاق مع الشريعة .. فليس بناء الجدار خيرا يسديه العبد الصالح للقرية الفاسدة ، انما هو ضرب لفسادها بمعنى من المعانى ، وهو منع لهذه القرية من سرقة كنز الرجل الصالح ، وصلاح الآباء يمتد الى الابناء رحمة من الله فى شريعة موسى ، كما ان عقوق الوالدين جزاؤه القتل فى هذه الشريعة ..

لا خلاف بين الشريعة والحقيقة ..

ولا مفاضلة بين موسى والعبد الصالح ..

من سوء الادب أن نقول ان هذا أفضل من ذلك .

احدهما استاذ .. والثانى تلميذ .. هذا صحيح ..

ولكن أى استاذ واى عبيد ..

الاستاذ يحمل اسرارا من الله والتلميذ نبى من اولى العزم الكبار ..

وما يقوله بعض الصوفيه الجهلاء من ان الأولياء افضل من الأنبياء ، امر يخرج القائل من الجد الى المجون والزندقة ..

ولو جاز لنا أن نفاضل بين من نعلم اكثر ومن يعلم أقل .. وقلنا ان العبد الصالح أفضل من موسى ، فسوف يجبر لنا هذا المنطق ان نقول ان هدهد سليمان كان أفضل من سليمان .. فقد كان الهدهد محيطا بعلم لم يحط به سليمان ، وكان يعرف أكثر مما يعرف سليمان عليه السلام .. قال الهـــدهد لسليمان « **احطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين** » ..

نريد ان نبتعد عن هزل المفاضلة بين رجلين من رجال الله .. ونريد ان نحسن الأدب ونحن نتحدث فى علم الشريعة وهو نفسه علم الحقيقة ..

ونريد ان نقول ان كلا الرجلين كانا قمة من القمم ..

احدهما كليم الله ونبيه ..

والثانى عبد أوتى من الاسرار ما أوتيه ..

ما هو علم الأسرار ؟..

تحدثنا القصة أن هناك علما من لدن الله ، علما مجهولا لولا هذه الاشارة التى وردت بشأنه فى القرآن لما عرفنا عنه شيئا ..

والواضح أن هذا العلم متصل بالأسرار موصول بالغيب ..

ان العبد الصالح يخرق السفينة وهو يعلم المستقبل . .ويعلم أن هناك ملكا سيأخذها لو لم تتلف ..

وهو يقتل الغلام لأنه عندما يكبر فسوف يعذب والديه ويعقهما ، وهذا مستقبل لم يقع بعد وغيب ..

وهو يبنى الجدار فى القرية لان سر الماضي والمستقبل قد كشفا له ، فعلم ان تحت هذا الجدار كنزا ليتيمين كان أبوهما صالحا ، واليتيمان يعيشان فى قرية تشتهر باللصوص ..

نريد ان نقول ان هذا العبد كان يعرف طرفا من غيب الله عز وجل ..

والغيب شيء لا يعرفه سوى الله عز وجل ، ومن يشاء اطلاعهم من عباده عليه سواء كان هؤلاء العباد من الملائكة او الانبياء أو البشر قال تعالى **« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول »** .. وليس الكشف عن الغيب متصلا بقدرة من يكشف الله له الغيب ، فان الجن رغم قدراتهم الهائلة وخفائهم لا يعرفون الغيب ، وقد مات أمامهم سليمان عليه السلام فلم يعرفوا نبأ موته الا بعد ان أكلت نملة الخشب عصـــاه فخر على وجهه ..

انما يخضع كشف الغيب لبعض العباد لقانون لا يعلمه سوى الله عز وجل هذا القانون هو مشيئته النافذة سبحانه ..

واحيانا يكشف الله طرفا من الغيب فى كتب الانبياء ، كما وقع فى الكتاب المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سورة الروم ..

« الم .. غلبت الروم فى ادنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون » ..

كانت هذه النبوءة كشفا لطرف من الغيب للمسلمين . وكان هـــذا الكشف يتم علانية فى كتاب الله المنزل الكريم .

احيانا يطلع الله عباده على الغيب علنا كما رأينا فى سورة الروم ..

واحيانا يطلع الله عباده على الغيب سرا كما حدثنا فى قصة موسى والعبد الصالح .. وعلم الأسرار ، وهو جزء من علم الشريعة . وليس علما أعلى منه كما يتصور البعض ، هـــذا العلم غيب بستائر الحق تبارك وتعالى به . ويمنحه بأقدار متفاوتة لبعض عباده ، تحقيقا لحكمة عليا هى الرحمة ..

. . . .

هذه القصة التى وردت فى القرآن الكريم هى النبع الأول للصـــوفية الاسلامية . هذا البحر الغامض البعيـــد المنطوى على الأسرار هو حلم الصوفية ..

ان موسى مسلم أسلم وجهه لله ، والعبد الصالح مسلم أسلم وجهه لله ، وكل أنبياء الله تعالى وأوليائه مسلمون أسلموا وجوههم لله ..

وهناك علم يمكن ان ينكشف بنور يقذفه الله فى قلب العبد اذا صفا قلب العبد لله ..

والصوفية هم الذين صفت قلوبهم لله ..

ويتكرم الله عز وجل على أصحاب القلوب التى لا تشهد غيره ولا تحب سواه بالمكاشفات والأسرار .. وربما منع الله تعالى أو منح .. ربما قبض علمه أو بسط علمه .. مشيئته سبحانه وتعالى مطلقة نافذة ، والمنع والمنح ليسا بسبب من جهد العباد وانما هما محض فضل من الله ..

وليست تجارب الصوفيين ومجاهداتهم الا تدريبات روحية لتصفية القلوب لله .. وبعدها ينتظرون ان يفتح الله عليهم ببعض اسراره سبحانه .

هكذا ينظر بعض الصوفية الى القصة ..

. . . .

وانكار هذا النظر استبعاد وجود عباد يفتح الله عليهم ببعض أسراره ، يعنى انكار آية من آيات القرآن ..

كما أن بسط هذا النظر على كل من يدعى الصفاء خطأ بالغ ..

لان علم الاسرار سر ..

ومميزات السر أن يحمله أقل عدد ممكن من القادرين ..

ونحن لا نعرف عدد عباد الله الذين يختصهم الله ببعض علمه وبعض اسراره لا نعرف أين هم .. ولا من هم ..

ان الفارق الجوهرى بين العلم البشرى وعلم الأنبياء ، وعلم الاسرار ، هو الشيوع والذيوع ..

اذا انتشر العلم وذاع كان علما بشريا ، او علما من علوم الانبياء طبقا لنوعه اما علم الاسرار فمن صفاته الكتمان والصمت .. لقد كان العبد الصالح عنيفا مع موسى حين ساله ان يعلمه .. ولم يستطع موسى ان يصبر على هذا العلم .. رغم كونه موسى ..

لقد ارسل الله تعالى موسى لفرعون وهو يعلم انه سيصبر على فرعون ويهزمه ..

وارسل الله تعالى موسى لهذا العبد الصالح وهو يعلم انه لن يصبر عليه وسيهزم صبره ..

ولو صبر موسى على العبد الصالح لعرفنا أسراراً كثيرة ..

ولكن الله تبارك وتعالى لم يشأ أن نعرف أكثر مما عرفنا ..

ولم يشأ سبحانه ان يعرف موسى اكثر مما عرف ..

معنى هذا اننا امام علم لا ينكشف الا بقدر محدود ، ولا يمنح الا بحساب بالغ الدقة ..

هذا العلم الذى يسعى اليه الصوفية بعد العلم البشري وعلم الأنبياء ولا يقوم الا بهما ، هذا العلم بالغ الصعوبة ..

وادعاؤه أمر رهيب ..

هي دعوى هائلة وخطيرة .. والدليل الوحيد على الصدق فيها هو الصمت وكتمان السر ..

ولهذا قال بعض الصوفية « **من تكلم خرج** » ..

او قالوا « **من افشى السر هلك** » ..

وسنرى مصداق هذا النظر نفسه فى القرآن ..

سنرى ان الكلام فى هذا العلم يخرج صاحبه من مجال الرؤية ان لم يخرجه من هذا العلم أصلا .. فى قصة موسى والخضر ..

حين خرج العبد من الصمت الى الكلام ..

خرج من مجال الرؤية .. اختفى تماما ..

قال لموسى « **هذا فراق بينى وبينك** » ..

ولم يكد العبد الصالح يتحدث حتى خرج من آيات القران .. انطوى عليه بحر كلمات الله عز وجل ودلف الى خفاء الخفاء ..

لم نره بعد ذلك ولم نصادفه ..

اذا كان التصوف كما نعتقد دعوى ، دليل صدقها الوحيد هو الصمت

.. فهذا يغلق الباب نهائيا امام التصوف .. واذن فما هذا الذى نراه من انتاج الصوفية وكتبهم واشعارهم وقصصهم ..

واذا كان التصوف له اصل فى القرآن ، فلماذا لم نسمع الكلمة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟.. وما هو التصوف اصلا ؟..

ولماذا لم يكن هناك صوفية فى عصره او بعد عصره ؟..

لماذا بدأ التصوف بعد ٢٠٠ سنة من رحيله الى الرفيق الاعلى ؟..

فى بحار التصوف ألف سؤال وسؤال ، والف غريق وغريق ، والف لؤلؤة ولؤلؤة ، والف محارة فارغة ومحارة مليئة بطين القاع .. وثمة حكايات لها العجب مثل حكايات الأساطير فى الف ليلة وليلة ، وبدلا من قصص الجن وعجائبه سنجد قصص الأولياء وكراماتهم ، وهى ايضا عجائب ..

وهناك احتمال قوى ان نغرق فى هذا البحر لو لم نكن نجيد السباحة .. او نستخدم ادوات الملاحة الصحيحة ..

نفرد اشرعة الروح البيضاء ونبحر ..

ما دمنا نسبح فى بحار القوم فلا مفر من استخدام اساليبهم فى هذه البحار .. ولا بد ان نبدأ رحلتنا البحرية واشرعتنا مفتوحة لكل الرياح القادمة من ابواب الكون ..

ونريد عقلا محايدا قبل كل شيء ..

لا نريد احكاما مسبقة او افكارا جاهزة للحكم على التصوف قبل الخوض فى امواجه ..

سهل ان يقف المرء على الشاطيء ويغمض عينيه ويقول :
ليس هناك بحر ..

واصعب كثيرا من ذلك ان يكابد الموج ويجرب السباحة او يحاول الوصول ..

سهل ان نقول ان التصوف بدعة .. او كلام فارغ .. ولكن هذا ليس حكما ..

لا يكون الحكم حكما الا اذا ملك ضمير قاض نزيه ، والقاضي لا يحكم في الدعوى الا بعد النظر فيها وتامل الادلة وامعان الفكر ..

نحن نبحث عن حقيقة التصوف ..

نحن اذن نبحث عن حقيقة ..

وكل انسان في الأرض يبحث عن حقيقة ..

والبحث عن الحقيقة يفترض حياد الباحث وتجرده ..

بعد رحلتنا قد نقف ضد التصوف .. وقد نقف مع التصوف ..
لا نعرف من الآن اى شاطىء سوف نرسو عليه ..

ولكننا عندما نفعل .. سنكون مدركين لماذا نقف على شاطىء الرفض او شاطىء القبول ..

لنبدا رحلتنا بالأسئلة ..

ما هو التصوف ..

ما اصل الكلمة ..

وما معنـــــاها ؟

يقول الصوفي ابو تراب النخشبي (متوفي سنة ٢٤٥) الصوفي لا يكدره شيء ، ويصفو به كل شيء ..

أي انسان هذا الذى لا يكدره شيء ، ويصفو من حلال عينيه كل شيء .. ويصفو به الكدر ذاته ..

أي انسان هذا ..

أى قلب يحمله مثل هذا الانسان ..

هل هناك وجود حقيقي لمثل هذا المخلوق ..

يقول الصوفية ان هناك وجودا لهذا المخلوق . فمن صفا قلبه لله وشاهد حكمته وراى بديع صنعه لم يكدره شيء . حتى الكوارث والآلام لا تخدش صفاءه . ومن وصل لهذا الحال صفا في عينه ملك الله . وصار اذا اختلط بالحياة صفاء يضاف الى عكارتها ..

ولماذا نأخذ عن الصوفية .. لو اخذنا عن الفقهاء فسوف نجد احمد ابن حنبل يقول فى سجنه ايام المحنة ..

ـ انا جنتى فى صدرى ..

وكان الناس يواسونه ويحاولون تهوين قسوة السجن عليه ، فافهمهم انه ليس سجينا انما هو فى الجنة ، لأن جنته فى صدره ..

. . . .

ترتفع أمواج البحر ..

رغم أننا لم نزل على الشاطيء ..

صعب ..

الدخول على القوم صعب ..

ما هو أصل كلمة التصوف .. أصل الكلمة محل خلاف بين العلماء هناك القائلون باشتقاق الكلمة من اهل الصفة الفقراء الذين كانوا ينزوون فى جانب من مسجد الرسول ويبيتون فيه لانهم لا يملكون نقودا يستأجرون بها بيوتا ..

وليس صحيحا أن التصوف مشتق من أهل الصفة ..

ايضا يختلف العلماء على الصفاء .. والصوف ..

فى العلماء من يقول ان التصوف لفظ مشتق من الصفاء ، ومنهم من يقول انه لفظ مشتق من ارتداء الصوف ولبس خرقة الصوفية وهناك من يقول ان التصوف لقب ، وقد استعرض الدكتور أبو العلا عفيفى فى كتابه « التصوف ، الثورة الروحية فى الاسلام » أكثر من خمسة وستين تعريفا للتصوف .. وقال بعد ذلك .

« كنا نطمع بعد دراسة خمسة وستين تعريفا للتصوف ان نجد معنى عاما مشتركا ينتظمها جميعا ، ولكننا لم نظفر بهذا المعنى على وجه التحديد ووصلنا الى معنى قريب منه » ..

وسر هذه الحيرة أن تعريفات التصوف شخصيه لحــــد بعيد . فكل صوفى يعبر عن حاله .. وأحوال الخلق الروحية تختلف مثلما تختلف أحوالهم فى المعايش ..

وللقشيرى راى لطيف فى تعريف التصوف انه لا يحاول أصلا تعريفه ويرى أن اسم التصوف لقب ..

« ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشــــتقاق ، والاظهر انه كاللقب » ..

ومعنى كلامه ان التصوف لقب لا يســـــأل عن معناه او اشتقاقه كما لاحظ د. أبو العلا عفيفى ..

هذا معناه أن الصوفية يوصدون الباب حتى أمام من يسألهم عن معنى اسمهم .. وهذا دليل على أمر من امور ثلاثة ، أما ان التصوف سر ، وانما انه امر خلاقى بحت ، وأما انه متعدد الجوانب كالفن الفنى ، وسوف نترك للقارىء أن يجد الجواب بنفسه .. ولننظر نحن فى الموج محاولين قراءة الكتابات الكثيرة التى كتبها الصوفية على الماء ..

. . . .

ان بشر بن الحارث « الحافى » وقد لقب بالحافى لأنه خلع نعليه يوما وأسرع يجرى فى الرمضاء فلم يدركه أحد . ان بشر الحافى يقول فى تعريف التصوف **« الصوفى من صفا لله قلبه »** .

مات بشر ببغداد سنة ٢٢٧ .

لن نجد قبل المائة الثانية من الهجرة تعريفات للتصوف ..

لم يكن التصوف معروفا كمذهب روحى له مدارسه وشيوخه ..

كان الزهد هو المعروف ..

لهذا نجد معظم تعريفات التصوف بعد القرن الثانى للهجرة ..

قال معروف الكرخى (توفى سنة ٢٠٠ هجرية) .

« التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق » ..

يريد معروف أن يقول ان التصوف اخذ ويأس فى نفس الوقت .. أخذ لحقائق الآخرة ويأس من دنيا الناس .. والأصل اللغوى للدنيا هو الدنو والتدلى والتدنى ..

واذا يرتفع معروف الكرخى عن الدنيا ويزهد فيها ، ويسلك طريق الاخذ بالحقائق ..

ويقول فريد الدين العطار صاحب كتاب منطق الطير :

« **الصوفى من اذا نطق كان كلامه عين حاله فهو لا ينطق بشيء الا اذا كان هو ذلك الشيء** » ..

تأمل قول الرسام العالمى الشهير فان جوخ ــ بعد ذلك بعشرة قرون ــ **عندما ارسم زهرة .. اصير انا الزهرة ..**

لاحظ ان معنى العبارتين واحد ..

فهل يكون التصوف فنا ..

سؤال نطرحه وننتظر قبل الاجابة عليه مزيدا من النظر . سئل سمنون المحب عن التصوف فقال ..

« **الا تملك شيئا ولا يملكك شيء** » ..

اليس هذا الكلام فنا فى حد ذاته ..

يحكى القشيرى قول الصوفية « **الصوفى ابن وقته** » ..

اليس هذا تجسيدا لحال جميع الفنانين المتقلبين ..

فى تعريفات التصوف من يمت بصلة الى الفن ، وفيها ما يمت بصلة الى الحقيقة الدينية ، كقول رويم حين سئل عن التصوف فقال « **استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده** » ..

وفى التعريفات ما ينتمى الى الزهد كقول أبى حمزة البغدادى وكان معاصرا للجنيد « **علاقة الصوفى الصادق أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العزة ويخفى بعد الشهرة ، وعلاقة الصوفى الكاذب ان يستغنى بعد الفقر ، ويعز بعد الذل ويشتهر بعد الخفاء** » ..

وفى التعريفات ما ينتمى الى فلسفات معقدة فى التوحيد كقول أبى بكر

الشبلى (توفى سنة ٣٣٤) **التصوف شرك ، لانه صيانة القلب عن رؤية الغير ولا غير ..**

يريد أن يقول ان التصوف لون من ألوان الشرك ، لانه يصون القلب عن رؤية الدنيا .. وليس هناك غير الله .. الدنيا أو الكون لا وجود له ولا قيام له وليس هناك الا الله .. يريد الشبلي ان يخترق ببصره المكونات الى المكون ، والمصنوعات الى الصانع ، والخلائق الى رب الخلائق ..

وهذا تعبير آخر عن حالة الفناء أو وحدة الشهود ..

سنعثر على تعريفات عديدة للتصوف .. وهى تعريفات تتحدث عن احوال .. والأقوال عن الاحوال عادة لا يمكن فهمها الا اذا مررنا بهـــذه الأحوال ..

ونحن نفضل البحث عن تعريف جديد للتصوف كتجربة روحية .. وارجح ما نراه ان التصوف هو فن الوصول الى الله ..

وربما أسفر هذا الوصول عن جذبة تعترى العقل فاذا العقل ذاهب ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ..

وربما أسفر هذا الوصول عن رؤيا فنية بالغة العمق والتعقيد كمذهب وحدة الوجود .. وربما أسفر هذا الوصول عن عشق يدعو الى الجنون فاذا الصوفى يصرخ « **ما فى الجبة الا الله** » .. واذا السيوف والنمال ترتفع الى رأسه ..

وربما أسفر هذا الوصول عن ثبات فى الدين وتمكن فى العقيدة .

اختلفت مصائر الصوفية كما اختلفت طرائقهم فىالتذوق وان جمع بينهم جميعا خيط واحد ..

الحب ..

انهم يرون أنهم يحبون الله كما لا يحبه احد ..

وهم يرون ان الحب نسيج اصيل فى الكون ، وسر غائر من اسراره ..

يقول الرازى ان الآيات الواردة فى القرآن عن الاحكام الشرعية اقل من

ستمائة آية ، وان البواقي في بيان التوحيد والنبوة والدعوة الى الله ..

والقرآن يذكر كلمة الحب وينسبها الى الله تجاه البشر ، وينسبها الى البشر ازاءه سبحانه ..

قال تعالى على لسان خاتم رسله :

« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » آل عمران (٣١) .

وقال تعالى حاكيا عن موسى :

« والقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني » سورة طه (٣٩) .

وقال تعالى مخاطبا عموم المؤمنين :

« ان الله يحب المتقين » سورة التوبة (٩) .

وقد فسر الامام الغزالي حجة الاسلام قوله تعالى : **« والذين آمنوا اشد حبا لله »** فقال .. اثبت الله تعالى الحب ، واثبت انه يزيد عند المؤمنين لقوله تعالى : **« ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حبا لله »** سورة البقرة (١٦٥) .

وينظر الصوفية أساسا الى الحب كعنصر أصـــيل من عناصر الكون وسبب هام من أسباب الخلق ..

يقول الله تعالى **« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ..**
والعبادة قمة من قمم الحب وكمال من كمالاته ..

وقد فسر ابن عباس كلمة العبادة بالمعرفة وقرا الآية هكذا وما خلقت الجن والانس الا ليعرفون ..

والمعرفة لازمة للحب .. هي سبب الحب .. ومن عرف عن الله اكثر احبه أكثر .. ومن لم يعرف عن الله الا القليل كان حبه على قدر معرفته . ويتوقف الصوفية كثيرا أمام قوله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف ياتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

تريد ان نلاحظ ان الله لا يخوف الذين يرتدون عن دينهم بأن يلقيهم فى النار او يصب عليهم عذاب الجحيم بما فيه من نحاس مصهور ، نريد ان نلاحظ أن الله يخوف المرتدين بالحب .. بأن يستبدل بهم قوما يحبهم ويحبونه ، والارتداد من الدين شرك ، والشرك فساد فى العقل وهو أشرف ما فى الانسان ، وكأن الله تعالى يهدد أقسى الذنوب وأرهبها بأرق ما فى الوجود وأعذبه وهو الحب ..

يقول جلال الدين الرومى ان كلمه « **يحبهم** » يمين كامل ، أما كلمة « **يحبونه** » ، فمن ذا الذى يصدق عليه هذا الوصف .

يشير الرومى كعادة الصوفية بايجاز الى معنى بالغ العمق ..

ان الحب عطاء وتكرم ..

والله هو الذى يملك العطاء وحده والكرم ..

والله هو الذى يحب حبا ..

اما كلمة يحبونه .. اما الحب البشرى .. فى ارفع صوره .. حتى لو كان موجها الى الله .. فماذا يستطيع ان يعطى ..

لا شيء ..

لو أعطى الانسان وقته لله ، فالوقت ملك لله اصلا .

ولو قدم الانسان كل ماله لله ، فالمال وديعة الله عند عبده .

ولو فرق الانسان جسده فى سبيل الله شظايا فهذا الجسد ملك لله ، هو خالقه من تراب ثم من نطفة .

لا يعطى الانسان لله شيئا .

لا يملك ان يعطى من معنى الحب سوى شاطئه .

اما الله عز وجل فهو المعطى الوهاب حقا ..

هكذا ينظر الصوفية الى العالم ..

انهم يرون الحب قانونا حاكما فى الوجود .. وسببا فى ميلاد الكون .

ونسيجا تشف به الحياة على رحابتها وجلالها .. وهم يرون أن الله قـد خلقنا ليتفضل علينا بحبه ، ويتفضل علينا مرة ثانية بأن يسمح لنا بحبه ..
قال تعالى « **ان الله اشـترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** » ..

هل يشترى الله عز وجل ـ رغم أنه مالك كل شيء .. هل يشترى الا شيئا يحبه ..

ان الله تعالى بلفظ « أشترى » يقرب من اذهان البشر اهمية العطاء .. والعطاء هو اول عطر يخرج من شجرة الحب ..

اذا كان التصوف هو فن الوصول الى الله .. أو هو من عبادة الله .. او هو حب الله تبارك وتعالى .. اذا كان هذا حقا فهل كان عصر رسول الله وعصر الخلفاء الراشدين أقل حبا لله من عصر المائة الثانية بعد الهجرة .. حيث ظهر التصوف ..

نريد ان نسأل لماذا لم يظهر التصوف فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

الجواب على السؤال يسير .. كان عصر رسول الله صلى الله عليـه وسلم اشد العصور حبا لله ، وكان الرسول اشد الخلق حبا لله لأنه كان اعرف الخلق بالله ، ولقد تحدث الله تعالى عن أبى الانبياء ابراهيم فقال « **واتخذ الله ابراهيم خليلا** » .. ومعنى الخلة شدة المحبة .. اما خاتم النبيين فقال الحق تعالى فى حقه « **وما ارسلناك الا رحمة للعالمين** » .

واطلاق الرحمة عليه هذا الاطلاق يعنى انه اشد عباد الله حبا لله .. لأن الرحمة أعرف بالرحمن الرحيم وأحب ..

واذاً .. تسقط دعوى حب الله حبا يقرب من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يساويه ..

لماذا لم ينشأ التصوف فى عصره صلى الله عليه وسلم ؟

لم يكن التصوف قضية مطروحة فى عصره كانت قضية قد استهلكت واستنفدت أغراضها .

يقول بعض الصوفية أن الرسول مر بتصفية النفس قبل أن يكون نبيا ، فقد كان يتحنث فى غار حراء ..

ونحن ننفى عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصف تصفية النفس ، لأن نفسه كانت صافية ولا تحتاج الى صفاء لم يكن يتعبد لأنه متعكر ، وانما لأنه متحير ، ولم يكن تحنثه فى غار حراء هو سبب هبوط الوحى عليه ..

لم يهبط الوحي عليه لأنه ارتقى فى تجاربه الروحية حتى أوحى الله اليه انما هبط عليه الوحى اصطفاء من الله واختيارا لا دخل له فيه ولا تطلعات عنده اليه ..

قال تعالى ((**ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان**)) فنفى عنه انه كان ينتظر الرسالة أو الوحى أو يدرى عنهما شيئا أو عن الكتاب أو الايمان أى القرآن والتكاليف الشرعية ، لم يكن التصوف قضية مطروحة فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم لسبب آخر .. ان تصفية القلب لله تعنى السير على سنة رسول الله ، ولم يكن رسول الله قد انهى رسالته لتبدأ التجارب الروحية بهدف تصفية القلب ..

ايضا لم يظهر التصوف فى عصر الرسول كفن من الفنون المعقدة لانشغال المسلمين بما هو الخطر ..

كانت هناك أعباء نشر الدعوة .. وهى أعباء فادحة ..

وكانت هناك المعارك الساخنة بين السيوف ، ومعارك الجدل القائم فى الأسواق والتجمعات .

وكان المسلمون يعبرون عن حبهم لله بالقتال فى سبيله دفاعا عن الدعوة أولا ، ونشرا لمبادئها ثانيا ..

كان الحب يأخذ شكل التعبير العملى ..

كان الحب عملا ..

لم يكن مجرد أقوال تقال فى الليل .. والليل يدهن الكلمات بالزبدة . فاذا طلعت عليها الشمس ذابت واسفر وجه الحقيقة ..

وكان طبيعيا ان تلك النزعة العملية لأيام الاسلام الأولى ، مع جفاف

الحياة وانشغال الأوقات ، كان طبيعيا أن يولد الزهد من هذا كله ..

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم زاهدا بكل ما تحمله كلمة الزهد من معان حقيقية .

كان ينام على حصيرة في الأرض .. حتى لتترك الحصيرة آثارها في جنبه الشريف .. وكان يأكل فلا يشبع ، تعففا ان يأكل وفي أرض الله جائع ، وكانت عائشة من بيت غني هو بيت ابي بكر ، وكانت تأكل في بيت ابيها افخر الأطعمة ، فلما صارت اما المؤمنين بزواجها من رسول الله قالت « كنا لا نوقد النار ثلاثة أيام متتالية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل القديد (الخبز الجاف) وغموسه الزيت » .

كان الرسول زاهدا فقيرا .. وقد شكته نساؤه يوما لأنه لا يزيد في النفقة عليهن ، ولم ترتد بناته الذهب ولا لبست نساؤه الحرير ، وحين مات صلى الله عليه وسلم .. مات ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام اشتراه لأهل بيته ..

هذا المحارب في سبيل الله دائما ، المجاهد في الله أبدا كان زاهدا وبذور الزهد موجودة في آيات القرآن .

« ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين » .

« وما الحياة الدنيا الا لهو ولعب » .

« وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

تأمل قوله عن الحياة انها لهو .. ولعب .. واللهو هو اللعب كما يتبادر الى الذهن .. ولكن هناك معنيين للهو وللعب ، وهما ــ باعجاز القرآن ــ معنيان يستغرقان حقيقة الدنيا وباطنها الأجوف .

ولقد فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات حق الفهم .. محارب لنشر الاسلام معرضا حياته للقتل ..

وفهم الصحابة قدر الدنيا فآثروا عليها الآخرة وعملوا في الدنيا ، لأن الدنيا ــ رغم تفاهتها ــ هي الطريق الوحيد للآخرة ، وهو طريق هام وخطر رغم قسمته اليسيرة ..

أيضا فهم التابعون معنى الزهد ..

وسيطر على المسلمين فى السنوات الاولى للدعوة ، فهم حقيقى للدعوة كان الجهاد هو رهبانية هذه الامة الجديدة ..

كان لليهودية رهبان ، وكان للمسيحية رهبان ، وكان للأديان رهبان ، وكان هؤلاء الرهبان ينقطعون فى الصحراء ويعيشون فى الاديرة ويتدارسون فى دينهم ويتجنبون الدنيا ويتاملون فى الكون ، وكان للاسلام رهبان أيضا ، ولكن رهبانا من لون جديد .. رهبان فى الليل وفرسان فى النهار .. وأحيانا فرسان فى الليل وفرسان فى النهار .. فقد كان خالد بن الوليد يفاجيء

عدوه أحيانا فى قلب الليل .. وكانت المعارك العسكرية تستغل أوقات المسلمين سواء كانت ليلا أم نهارا ..

وهكذا كانت الأيام الأولى فى الاسلام .. كانت الفروسية والجهاد هما رهبانية المسلم ..

روى عن رسول الله قوله « **لكل امة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد** » .

وفى الأيام الاولى للاسلام لم يكن الفرسان العظام يجدون وقتا للتصوف .. أو اجراء التجارب الروحية .. كانوا مشغولين بالحرب والجهاد ..

وظلت الشعلة التى اوقدها الرسول صلى الله عليه وسلم تدفع المؤمنين، وانطلقت سيوف المسلمين تحطم أسوار الشعوب السجينة .. وتطلق الحرية للمحرومين من الحرية ، وتفك السلاسل التى تكبل العقول أن تبحث وتنطلق وتعرف خالقها الاحد ، ومرت أيام الله تعالى وانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى .. وحكم المسلمين بعده أبو بكر الصديق ، ثم تلاه عمر بن الخطاب ، ثم ولى أمور المسلمين عثمان بن عفان . وقتل عثمان والمصحف فى يده ونساؤه حوله .. وقتل على بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين كرم الله وجهه ، واستمرت الفتنة الكبرى ..

وارتفعت سيوف المسلمين بعد أن جرها الصراع السياسي للداهية معاوية ، وسالت الدماء .. وتغير الوقت .. وولد التصوف من افكار عديدة .. أفكار ودماء وكلمات وقضايا ومواقف ..

وكان لا بد للتصوف أن ينبع منها ..

وقد نبع التصوف من مصادر عديدة ..

من حق الواقف امام البحر ان يسأل نفسه .

كيف تولد البحار ؟

ومن أين تجيء كل هذه الامواج والمياه والتيارات المائية وحركة الرياح ..وما هى العلاقة بين الرياح وتيارات البحر وحركة دوران الأرض وحركة دوران النجوم والمجرات ..

نحن نعرف اقل القليل .

وان كان كبرياؤنا يصور لنا اننا نعرف الكثير ..

من بين ما نعرفه أن البحار تولد عادة من بكاء السحب ..

فى البدء يصطدم سحاب يحمل شحنة كهرباء موجبة ، وسحاب يحمل شحنة كهرباء سالبة ..

ومن الصدمة يولد البرق .. بعد ثوان من ميلاد البرق يرتج الأفق بصوت الرعد ..

ثم تسقط الأمطار .. تذيب قمم الجبال وتذيب معادنها وصخورها وتحفر مجاريها وتشق طريقها نحو البحر ..

يوما بعد يوم تعلو أمواج البحر ..

وكل الانهار تجرى الى البحر والبحر ليس بملآن كما تقول التوراة ..

. . . .

هذا تفسير علمي لميلاد البحار ..

وهناك تفسير آخر لميلاد البحار ..

تفسير غير علمى وغير موضوعى .. تفسير عاشق اخرجه السهر والوجد عن صوابه الى صواب أعمق . نفترض ان عاشقا مثل ابن الفارض يريد أن يفسر لنا ميلاد البحر .. يقول أكثر من أربعة أبيات من الشعر :

أبـرق بدا من جانب الغـور لامع

ام ارتفعت عن وجـه ليلى البـراقع

انار الغضا ضاءت وسلمي بذي الغضا
.. ام ابتسمت عما حكتــــه المدامـع

ان ابن الفارض يعلم ان البرق يولد فى السماء ، ولكنه ـ بوصـــفه سلطان العاشقين ـ يرى أن وجه الحبيبة او وجه الحقيقة هو البرق ..

وهو يرمز لهذا الوجه باسم ليلى ..

اى ليلى .. نحن نعرف ..

هل هناك ليلى فعلا أم انه يحترق الى الحد الذى نخجل أن نسأله اين ليلاك ..

كل ما نعرفه ان هــــذه النار التى اضاءت هناك وسلمى جوارها .. كانت تشبه ابتسامة بكت فيها سلمى ..

انشر خزامى فاح ام عـرف حاجـــر
بام القـــرى ام عطـر عزة ضــــائع

اختلفت الروائح على العاشق فلم يعرف مصدر هذا العطر .. لم يعرف كم قطرة من البنفسج وكم ذرة من الياسمين وكم جزيئا من الفل .. لم يعرف هل جاء هذا العطر من خزامى .. أم من حاجر .. لم يعرف هل جاء العطر من المدينتين الشهيرتين بصنع اثمن العطور .. لم يعرف وان ادرك فجأة أن هذا عطرها هى ..

عطر عزة الضائع ..

لماذا ضاع عطر عزة من الحياة وظل فى عقل العاشق ..

هذا سؤال سخيف فلا تسأله للمحبين ..

تضيع الأشياء فى دنيا الحب لانها ينبغى أن تضيع .. ولو بقيت لما صار لها معنى سوى التطفل ..

يحب الشاعر حتى الآن ثلاث نساء ـ اذا اخذنا كلماته بنص معناها ـ وهو يحب امرأة واحدة اذا ادركنا مراده الحقيقى ..

فى البيت الرابع سنراه يضيف اسما ..

الا ليت شعرى هـــل سليمى مقيمة
بوادى الحمـــى حيث المتيـــم والع

٢اسمها سليمى ..

حبيبته الرابعة عند الحمقى وقصار النظر ..

والحق أن الرجل ليست لديه حبيبة لانه يعدد الأسماء ، وما دام يعددها فهذا معناه أنه يسبح نحو بحار أخرى تتجاوز الأسماء ..

نحن أمام متيم والع . هذا نص كلماته .. والعاشق اذا احترق رفعت منه الجزية فاسلم ، وخرج عن نطاق الشرك الى التوحيد ، ولأن القرية التى تحترق لا تطالب بشيء سوى أن تظل والمة فكذلك العاشق .. هو الأولى أن يظل مضيئا باشتعاله ..

. . . .

هذا تفسير عاشق لميلاد البحر ..

ان بحار الحب ولدت عنده داخل منطقة مجهولة فى عقله أو فى قلبه أو فى روحه ..

المنطقة مجهولة مرتين ..

مرة نحن لا نعرف هل هى فى قلبه أم فى عقله أم فى روحه ..

مرة ثانية نحن لا نعرف فى أى مكان هى فى هذا الجزء من الحياة المجهولة .. الغامضة ..

اى تفسير تحبون ان نناقش به ميلاد التصوف ومصادره .

اى اجابة تحبون ان نكتبها على الرمال عن سر ميلاد البحار عند الصوفية ..

. . . .

نسأل شاعرا كان عاشقا هو الآخر ..

يقول محمد اقبال « ليس من الصواب ان نرجع كل ظاهرة تظهر فى احدى البيئات الى العوامل الخارجية .. فنهمل بذلك العوامل الداخلية ، ان اى فكرة من الأفكار ، لا يمكن أن يكون لها سلطان على النفوس ، الا اذا كانت تمت لهذه النفوس بصلة ، والعوامل الخارجية تجيء لايقاظ هذه

الفكرة ، ولكنها لا تخلقها خلقا .. وعندما بحث المستشرقون فى أصـــل التصوف ، ذهبوا الى ان مصدره هذا العامل او ذلك ، ونســـوا ان اى ظاهرة عقلية ، او تطور عقلى فى أمة ، لا يكون لهما معنى ، ولا يمكن فهمهما الا على ضوء الظروف العقلية والسياسية والدينيه والاجتماعيه التى عاشت فيها هذه الأمة قبل ظهور تلك الظاهرة » .

يقول د. ابو العلا عفيفى :

« بهذه العبارة الموجزة الرائعة لخص اقبال النقد الأساسى الذى نريد ان نوجهه الى المستشرقين فى نظرياتهم لنشأة التصـــوف .. واشار الى الطريق الحقيقى لمعالجتها » ..

ما هو السر فى حماس الدكتور ابو العلا عفيفى وهو أستاذ للفلسفة لراى شاعر صوفى ؟

سر الحماس ان المستشرقين ـ او معظمهم ـ وقع فى خطأ مبدئى حين ناقش التصوف وبدأ يبحث عن اسبابه ..

وتمثل هذا الخطأ فى انهم لم يأخذوا بمنهج اختلاف المستويات وتعدد المصادر ..

قالوا ان هذا البحر ولد من هذه الســـحابة التى مرت من هناك .. ونحسب ـ بادىء ذى بدء ـ أن نقول ان ارجاع التصوف لمصدر واحـــد أمر يفتقر كثيرا الى الدقة فضلا عن تجاوزه للصواب ..

وكل الآراء الاحادية النظرة ، او التى تعتقد ان هناك مصدرا واحدا لنشوء الأفكار ، كل هذه الآراء تقع فى اخطاء فادحة حين تقدم نفسها الينا فى بداية ابحاثه ، لجأ المستشرق نيكلسون الى التعميم فقال ان التصوف بكل نظرياته اسلامى اساسه القرآن واتهم المستشرق القرآن بالاضطراب والاختلاف لأنه وجد اضطرابا واختلافا فى نظريات التصـــوف ، وكان اضطراب منطقه هو السر فى حكمه الخاطىء ..

وقال المستشرق كريمر ان الفضل فى نشوء التصوف الاسلامى يرجع الى الرهبانية المسيحية المؤسسة على الخوف من الله والرهبة من الجحيم

.. وغفل كريمر أن القرآن يحتشد بمشاهد القيامة والجحيم وفيه مجال خصب لامكان التطور بما لا يخرج عنه ..

ولكى نحدد أنفسنا ابتداء ..

نقول اننا لن نرجع لأحكام المستشرقين فى أمور التصوف .. لا باس ان نقرا ابحاثهم ، ولا باس أن نعترف لهم بفضل اكتشاف كنوز التراث الصوفى ، ولكننا نؤمن بهذه النظرة العلمية الحرة التى اوردها الدكتور عبد القادر محمود فى كتابه « الفلسفة الصوفية فى الاسلام » يقول

« لا أنكر أن بحوث المستشرقين قد افادت البحوث الاسلامية رغم عمومية احكامها احيانا وتعصبها احيانا اخرى . ودقة بعض مفهوماتها فى القليل النادر ، ولا شك ان بعد المستشرقين جميعا عن الروح الاسلامى عامل هام فى كل هذا ، وبخاصة اذا ذكرنا ان دراساتهم للتصوف الاسلامى لم تبدا الا فى القرن التاسع عشر لأول مرة » ..

هنالك عبارة خطيرة فى رأى الباحث ..

« بعد المستشرقين عن الروح الاسلامى » ..

هذه العبارة هى المسئول الأول فى راينا عن تعصب المستشرقين وآرائهم الخاطئة وهذا السم الذى دسوه لنا فى العسل ، وهذه الأحجار الزجاجية التى قدموها الينا باعتبارها قطعا من الماس الاصيل ..

ان التصوف الاسلامى ذوق وشهود .. وليس علما باردا يمكن ان يناقشه عالم يرى ببصره وان كانت بصيرته عمياء ..

من الصعب على الباحثين فى التصوف الاسلامى فهم التصوف بغير تذوق له .. سواء كان هذا التذوق دينيا او حضاريا أو أدبيا ..

فما بالك بمن لا يؤمن بالاسلام اصلا ..

والأصل ان الزهد هو الأب الشرعى للتصوف .. ونحن نعرف أن الزهد فى العصر الاسلامى الأول لم يكن حركة من الحركات الدينية ، ولا مذهبا من المذاهب ولا نظاما جماعيا ، بل كان احساسا قلبيا بتفاهة الحياة وبساطة

الموت وهذه الرغبة فى نشر الاسلام ..

والظاهر من سير بعض المجاهدين فى الاسلام ، ان الجهاد كان يحظى بنفس النظرة التى التصقت فيما بعد بالزهد ، ثم انتقلت منه الى التصوف .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **مرابطون الى يوم القيامة** » ..

واشار بكلمته الى ان الجهاد قائم طالما ان الحياة قائمة ..

غير أن الحياة اوقعت المسلمين فى أكثر من ازمة .. وجاء على المسلمين وقت ترادفت فيه المحن فصار الزهد والبعد عن الأحداث هو افضل جهاد ممكن ..

وقعت الفتنة الكبري فى تاريخ الاسلام استحيت بذورها أن تظهر يوم انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، وان أحدث النبأ اضطرابا هائلا فى المدينة المنورة ..

أظلمت المدينة وأظلم فيها كل شيء ..

وبكى المؤمنون وحى السماء الذى انقطع ..

وبكى المسلمون رحيل سيد الخلق وخاتم النبيين عن دنياهم ..

وكان السؤال المطروح يومها :

من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حكم المسلمين ..

وحسم الموقف شخص ابى بكر وتاريخه . كان ابو بكر قد ولى الامامة الصغرى حين أم الناس فى الصلاة بناء على طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض الموت ورغم معارضة عائشة فقد أصر النبى على امره ، وصلى ابو بكر بالناس ..

ولقد خشى بعض المسلمين ان يلى امورهم هـذا الرجل اللين الدمث الذى يبكى اذا صلى حتى تخضل لحيته بالدموع . وتحول هذا الرجل فيما بعد الى سيف صارم من سيوف الله فى الارض حين بدات ماساة الردة وحين مات ابو بكر رضى الله تعالى عنه عادت الفتنة تحاول رفع راسها ثم حسم الموقف شخص عمر بن الخطاب وتاريخه ، وخشى بعض المسلمين ان يلى امورهم هذا الرجل الشديد الذى يبطش اذا غضب ، وتحول هذا

الرجل فيما بعد الى رقة الحليم ، وحكم المسلمين حكما سيظل مثلا اعلى لنزاهه الحكم البشرى ..

ورغم ان عمر بن الخطاب كان يحرك بأوامره جيوشا فتحت دمشق ، واندحرت امامها الفرس فى القادسية ، واندحر امامها البيزنطيون فى اليرموك رغم أن جيوش عمر بن الخطاب فتحت مصر وفارس ..

رغم هذا كله ، لم يكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يملك حرسا خاصا يستطيع أن يدفع عنه الخيانة اذا امتدت اليه الخيانة ..

ان غلاما فارسيا هو ابو لؤلؤة فيروز ، كان يعمل فى المدينة فى خدمة حاكم الكوفة المغيرة بن شعبة ، جاء الى عمر بن الخطاب يشتكى اليـــه شيئا . فلم يجبه الخليفة لانه راى الحق ليس فى جانبه ، فلما كان صباح اليوم التالى وانتهى الخليفة الى المسجد ليؤم المسلمين فى صلاة الفجر طعنه الفارسى بخنجره طعنتين ..

وكان سؤال عمر بن الخطاب وهو يموت عن قاتله وسر قتله ، فلما عرف ان قاتله مجوسى وقد قتله لأسباب ليست عامة ، اطمأن باله أنه مات على العدل فمات ..

وكان عثمان بن عفان هو ثالث الخلفاء الراشدين .. ولم يكن يملك مثل شخصية سلفيه العظيمين .. اتفق المسلمون عليهما واختلفوا فيه .. وقد وقعت فى عصره اخطاء نبرئه منها ــ تأدبا ــ وننســــبها لمن حوله من معاونيه ..

فى العام الرابع والثلاثين من الهجرة النبوية انقض الثائرون على منزل الخليفة وقتلوا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه وهو جالس يقرأ المصحف فى هدوء ، وسال دم الخليفة على قميصه وسال على نسخة القرآن التى كان يقرأ فيها ..

ولعب قميص عثمان دور البطل بعد موته ..

وتداعت الاحداث وبدات الفتنة الكبرى فى الاسلام . وحمدا لله انها لم تكن فتنة فى كتاب الامه الاسلاميه . وانما كانت فتنة سياسية لتصل لصاحب الحق الاول فى حكم المسلمين ..

وسالت دماء كل قطرة منها تكفي لملء الكون بحزن ثقيل فاجع .. قتل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بعد خمس سنوات من قتل عثمان ، وكان ذلك في مسجده بالكوفة وهو قائم يصلي ، وقد قتله رجل يدعى ابن ملجم وكان معه مهرا لامرأة تسمى قطام .. وكان دمه مهرا لازواج معاوية من السلطة السياسية وانفراده بحكم الدولة ..

بعد تسعة عشر عاما من قتل علي بن أبي طالب في الكوفة ، قتل الحسين في كربلاء واجتز القتلة راسه الشريف وحمله الى يزيد بن معاوية ابن ابي سفيان زوج هند آكلة كبد حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

تمضي سفينتنا في موج من الدم ..

سحاب من الفتن كقطع الليل يمضي وراء سحاب .. والظلمة تشتد وتتكاثف .

وثمة مواقف عجيبة ..

فتن تقف منها قوى متكافئة في الفضل مختلفة في الاتجاه والنظر والآراء والمواقف ..

واقعة الجمل مثلا .. وقوف علي ضد عائشة ..

« وتوقفت المعركة امام الجمل الذي كانت تمتطيه السيدة عائشة ام المؤمنين وتستفز من على ظهره المقاتلين حسب العادة العربية العريقة ، ولم تتم الغلبة لعلي الا بعد ان عقر الجمل الذي خلع اسمه على هذه المعركة » ..

نفترض اننا كنا نعيش في هذا العصر لاي جيش كنا ننضم ..

هل ننضم لجيش علي بن ابي طالب ونرفع السيف على عائشة ..

أم ننضم لجيش فيه عائشة لنرفع السيف ضد علي ..

ان عليا لا يقف مع الباطل ..

وعائشة لا تقف مع الباطل ..

والامتحان بالغ الصعوبة ، وافضل للمرء ان يجرر اقدامه نحو جبل بعيد ويهجر هذا كله وينزوي ..

وهناك امتحانات يكون النجاح فيها هو الهرب منها .. وهذا ما فعله بعض المسلمين يومئذ ..

انسلخوا من الحيـــاة العامة ، وهجروا المجتمع الذى راح يتناقش بالسيوف والحراب ، وآثروا البعد عن لعبة السياسة الأموية القذرة التى ارتدت قميص عثمان وطالبت بدمه وهى تفكر فى الحكم اولا وفى الســياسة اخيرا ..

وهكذا دفعت الأهوال والفتن كثيرا من المسلمين الى الفرار بدينهــم والزهد فى المساهمة فى الحياة العامة ، حتى ان جماعة من أهل بدر لزموا بيوتهم واتخذوها منازل للآخرة .. فلم يخرجوا منها الا الى قبورهم .. وفى المسلمين أيامها من عمد الى الصمت المطبق فمه .. روى الجاحظ أن رجلا قال صحبت الربيع بن خيثم سنتين فما كلمنى الا مرتين خـــلال العامين ..

سالنى : امك حية ..

وسالنى مرة اخرى : كم فى بنى تميم من مسجد ..

فلما قتل الحسين بن على أتى قوم اليه فقالوا لنستخرجن منه اليوم كلاما .. قالوا يا ربيع .. قتل الحسين ..

وجم الربيع .. ثم قال بعد فترة صمت « **الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون** » ..

كانت الفتنة سببا فى زهد البعض أو صمت البعض كما رأينا والزهـد والصمت بذرتان من بذور التصوف ..

وقد القيت البذرتان فى أرض تصلح للزراعة ..

وعادت الأمطار تسقط ..

امطار أحيانا .. ودموع فى أحيان أخرى ..

ها هو بحر زين العابدين .. ابن سيد الشهداء الامام الحسين بن على ابن أبى طالب ..

كان حزنه على ابيه عميقا ..

ولقد بكى الرجل رغم ان الرجال لا يبكون ..
وقال يوما « فقد الأحبة غربه » .
وقد شرب اغترابه من حزنه على ابيه سيد الشهداء حتى أثمر وأينع
واصبح الاغتراب مقاما من مقامات الزهد ..
واصبح الصوفى كالغريب فى الدنيا لانها ليست داره ..
وهذا اصل كبير من اصول التصوف .

اذا كان الصوفى مغتربا ، وكان الفنان مغتربا ، فهل ينطوى الصوفى على شيء من الفن ؟ وهل التصوف فى حد ذاته فن ؟
ان الاجابة على هذين السؤالين امر بالغ الاهمية .

. . . .

حين ولد التصوف منذ ١٢ قرنا ، لم يكن مفهوم الفن أو دور الفنان قد اتسع وصار الى ما صار اليه اليوم من رقى وتعقيد .

كانت الاشكال السائدة فى التعبير الفنى منذ ١٤ قرنا (أيام البعثة النبوية) هى رواية الاساطير وقول الشعر ..

وكان الكلام ينقسم فى لغة العرب الى قسمين .. نثر وشعر .

وفى بداية الدعوة الاسلامية ، اتهم الجاهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم انه يروى الاساطير « **وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا** » سورة الفرقان .

واتهموه بانه يقول الشعر « **أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون** » سورة الطور .

واتهموه — صلى الله عليه وسلم — بأن الشياطين تنزلت عليه بهذا الكلام المحير الذى يسميه القرآن، فنفى عليه بهذا الكلام المحير الذى يسميه القرآن ، فنفى الحق ذلك « **وما تنزلت به الشياطين** » . سورة الشعراء .

وهذه التهم الثلاث تريد أن تضع الرسول فى دائرة الفن .. وتخرجه من نطاق الرسالة .. وقد دحض القرآن الكريم هذه التهم جميعا وتحدث عن الفرق بين الرسالة الالهية .. والفن .

ورغم أن الشاعر كان يحتل فى قومه مكانة ممتازة قبل بعثة الرسول ، ورغم أن قصائد الشعراء كانت تعلق على الكعبة ، « ومن هنا جاءت تسمية القصائد » « بالمعلقات » ورغم أن الشاعر بمثابة الذاكرة لقومه ، رغم هذا كله نفى القرآن عن الرسول قول الشعر ..

قال تعالى فى سورة يس « **وما علمناه الشعر وما ينبغى له** » .

وكلمة « وما ينبغى له » تعنى أن وصف الرسول بالشعر انتقاص من كماله صلى الله عليه وسلم .. لأن المسافة بين الشاعر والنبى هى مسافة بين عالمين يختلفان كل الاختلاف ، من الشرف أن يكون المرء فنانا أو شاعرا ، ولكن هذا الشرف اذا وجه الى الرسول كان تهمة ونقيصة ينزهه الحق منها .

وهكذا رد القرآن الكريم على كل ما وجه الى الرسول من اتهامات تتصل بالفن .

فيما يتعلق بانه يروى الاساطير أو يكتتبها قال تعالى « **قل انزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض** » سورة الفرقان .

وفيما يتصل بقول الشعر قال تعالى « **انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر** » سورة الحاقة .

وفيما يتصل بالهام الشياطين واتصالها قال تعالى « **وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون** » . سوره الشعراء .

. . . .

لا نعرف كم مر من الوقت حتى فهم العرب ان الكلام لم يعد ينقسم الى نثر وشعر .. انما صار ينقسم الآن الى ثلاثة اقسام .

نثر وشعر وقرآن ..

والنثر والشعر اسلوبان بشريان للتعبير ، أما القرآن فكلام الله تعالى ، وهذا الاعجاز الذى ينطوى عليه القرآن فى معانيه وصوره وموسيقاه الداخلية ، شيء يختلف تماما من سحر الفن ..

لأن الفن ابداع وتخيل ، واختراع ما ليس له وجود .. والشاعر يقول ما لا يفعل .. اما القرآن فحق كله ، وليس فيه اختراع ولا تخيل ، والرسول لا يقول الا ما يفعل .

هذا الفارق الجوهرى من الفن والدعوة ، أو بين الشعر والرسالة ، هو الذى دفع القرآن ــ فى أكثر من سورة ــ الى تفهيم الناس حقيقة الامر ، وقد سمى الله تعالى احدى سور القرآن باسم سورة الشعراء .. والسورة من سور القرآن القصيرة ، ورغم ذلك فعدد آياتها ٢٢٧ ، والآيات تتركب من جمل قصيرة ، ورغم قصر الجمل فقد جاء تركيبها الالهى معجزا متحديا ، وكأن الحق يقول للبشر جميعا ان القرآن ليس شعرا ، وليس نثرا ، انما هو كلام الله تعالى ، وكما أن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء ، فكذلك كلامه سبحانه ليس كمثله شيء .

. . . .

فى نهاية سورة الشعراء ، ينفى القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم أى شبهة فى اتصاله بالشعر أو شياطين الشعر ، وينبىء الله تعالى عباده عمن تتصل به الشياطين أو تتنزل عليه .

« هل انبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك اثيم . يلقون السمع واكثرهم كاذبون » .

بهذه الآيات يفهم الله تعالى عبيده ان الشياطين لا تنزل الا على قلوب الافك الاثمة . وان الشياطين يكذبون فيما يقولونه لاتباعهم من البشر . وان اتباعهم من البشر يكذبون فيما يقولونه للناس . فالكذب متبادل والاثم متبادل .. ويمضي السياق القرآنى فاذا نحن نتقبل انتقاله مفاجئة الى

الحديث عن الشعراء .. والنقلة ليست مفاجئه كما نظن . فقد كان شعراء العرب يزعمون ان لكل شاعر شيطانه الذى يلهمه باعظم أفكاره الفنية جنونا .. واراد الله تبارك وتعالى أن ينفي عن رسوله الكريم هذه التهم السخيفة التى تجعله مرة خاضعا لشياطين الشعر ومرة لرواة الاساطير .

بعد ذلك يوقفنا القرآن الكريم أمام حقيقة الفن بحديثه عن الشعراء . ويرسم فى ثلاث آيات قصيرة صورة للملامح النفسية للشعراء والفنانين عموما .. ويحدد الفروق الدقيقة بين الشعر والرسالة .. ويحدد الفروق بين طبيعة الفن وحقيقة الدعوة الى الله ..

يقول تعالى : « **والشعراء يتبعهم الغاوون** » .

هناك من يتبع الشعراء .. هناك سر خاص أو سحر خاص فى كلام الشعراء يجعل الناس يتبعونهم .. ان الشعر فن ، واى فن لا بد له من جمهور ، وللشعراء جمهورهم .. والذين يتبعون الشعراء عادة هم الغاوون .. فمن هم الغاوون .

اطلق اللفظ قبل ذلك على آدم حين عصى ربه . قال تعالى « **وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** » . سورة طه .

لم تكن غواية آدم خطيئة لا تغتفر ، أنما كانت انقيادا من آدم واستماعا لاحلام الشيطان ووعوده ونسيانا لأوامر الله الا يقرب هذه الشجرة ، وحين وسوس اليه الشيطان « **هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** » سورة طه ..

هذه الوسوسة كانت عملا فنيا ، بمعنى أن أبليس رسم صورة متخيلة من عنده ، اخترع شيئا لا وجود له فى الحقيقة واقنع به آدم ، وكان ابليس يكذب وهو يؤلف هذه القصة ، ولكن تصويره كان مقنعا الى الدرجة التى جعلت آدم عليه السلام ينقاد لهذه الصورة ويصدقها ..

كان ابليس اول فنان يصادفه آدم .. وبسبب قصته عن شجرة الخلد كانت غواية آدم .

من هذا المنطلق نفهم كيف يتبع الغاوون شعراءهم .

ان الشاعر يرسم صورا متخيلة ليست هي الواقع ، صورا لها مذاق الحلم ، ويتبع الناس هذه الصور غير الحقيقية التي يجدون لها طعما اجمل من طعم الحقيقة .

ويمضي سياق الآيات في سوره الشعراء فيحدثنا الله تبارك وتعالى عن صفة اخرى من صفات الشعراء والفنانين .

« **الم تر أنهم في كل واد يهيمون** » .

هذا الهيام في الأودية صفة اساسية من صفات الفنان .. وهو تصوير فني معجز لحقيقة الفنانين والشعراء ..

ينتقل الشاعر من واد الى آخر ، هل يعني ذلك انه ينتقل من مكان جغرافي الى مكان جغرافي آخر .. هذا متضمن في المعنى .. والى جوار هذا المعنى تتضمن الصورة انتقالا من تجربة الى تجربة ، ومن مستوى الى آخر ، ومن معاناة الى معاناة أخرى ، ليست الأودية اذا مقصورة على الأماكن الجغرافية ، انما يمتد المعنى ليشمل مستويات من التصوير الفني ، ويشمل مستويات من الابداع الفكري ، وبهذه الآية يحدد القرآن صفة الفنانين بالقلق أحد الملامح النفسية البارزة للفنان ..

ان التنقل والتغير والملل السريع والقلق من صفات الشعراء والفنانين، بينما الثبات والاطمئنان والسكينة من صفات الأنبياء والداعين الى الله ..

ويمضي السياق القرآني فيورد اهم صفه من صفات الفنانين أو الشعراء « **وانهم يقولون ما لا يفعلون** » .

وبهذه الآية المعجزة ، ينسف الحق عز وجل ادعاءات الجاهلين بان الرسول شاعر ، ويضع معيارا للتفرقة بين الرسالة والشعر ، كان العرب يقولون « اعذب الشعر اكذبه » ، اشارة الى ان الفن ليس نقلا تصويريا لحقيقة الواقع ، فهناك لون من ألوان الكذب الفني في الفن ، اما الكذب فأمر مستبعد تماما من الرسالة ، واذا كان التخيل والاختراع يعتبران موهبة عند الفنان ، فانهما نقيصة عند الداعية الى الله ، نقيصة يبرزه

الحق منها ..

واذا كان الشاعر يقول ما لا يفعل ، فان قول الرسول هو فعله .. واى رسول هو الفعل المجسد لكلمات الله ، ويدعو الرسول الى المثل العليا بشخصه بل ان شخصه يكون هو المثل الاعلى لمعاصريه ومن يأتى بعدهم ، وافعال الرسول مطابقة لاقواله تماما ..

اما الفنان او الشاعر .. فمن ذا الذى يستطيع الزعم بأن قوله هو فعله ؟

يدعو الفنان أو الشاعر عادة للجمال والخير والحب والفضيلة ، ولكنه لا يستطيع أن يكون بشخصه وأفعاله وذاته نفس ما يدعو اليه ..

قد يكون هناك انفصال بين فن الفنان واسلوبه فى الحياة .

قد يكون هناك فرق بين القول والفعل عند الفنان او الشاعر .

ليس القول عند الفنان هو الفعل كما هو الامر بالنسبة للدعاة الى الله نتأمل هذه الاشارة الالهية اللطيفة التى ترسم صورة لاحلام الفنان العالية ، وقصور شخصيته عن بلوغ ما يدعو الناس اليه .. « **وانهم يقولون ما لا يفعلون** » .

هل يعنى هذا أن نخرج الشعراء ـ كرمز للفنانين ـ من خيمة الاسلام .. هل يعنى هذا أن الاسلام يقف ضد الفنون .

يقول الله تعالى فى نهاية الآيات فى سورة الشعراء « **الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا** » .

هناك استثناء فى لفظ « الا » ..

واذن تتسع خيمة الاسلام للشعراء المؤمنين الصالحين الذاكرين .. وتتسع للفنانين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا .. وقديما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أصدق شعر قالته العرب قول لبيد

« الا كل شيء ما خلا الله باطل » .

. . . .

ايكون الصوفية هم الفنانين المؤمنين فى الاسلام ؟

لقد فهمنا مكانة النبى ووضع الشعراء ..

وعرفنا الفرق بين ثبات الداعية الى الله وقلق الفنان وتحولاته ..

وعرفنا صدق الداعية الى الله وشطحات الفنان واضافاته الوجدانية

ونريد الآن ان نسال ..

لماذا نرى معظم تراث الصوفية ادبا من ارقى الوان الادب واعقدها ؟

لماذا كان معظم الصوفية شعراء ، وكتابا . وحكماء .. ؟

لماذا نحس ونحن نقرا للصوفية انهم قوم يعانون معاناة بالغة تشبه معاناة الفنانين ؟

لماذا شطحت بعض الصوفية شطحات تشبه شطحات الفنانين ؟

هل ينطوى الصوفى على شيء من الفن .. ؟

وهل التصوف فى حد ذاته فن ؟

لن نجيب على هذه الاسئلة الآن ، انما سنترك للقارىء ان يجيب عليها بنفسه خلال ابحاره معنا ..

فقط .. نريد أن ننعش ذاكرة القارىء بتصورنا عن وجوه الشبه ووجوه الاختلاف بين الصوفى والفنان ..

اول شيء يتفق فيه الصوفية مع الفنانين ان كل واحد فيهم يملك رؤياه الخاصة .. ويحس بالاغتراب عن مجتمعه .. والاحساس بالغربة أصل كبير من أصول الفن ، وأصل كبير من اصول التصوف ، وقد كانت غربة « على زين العابدين » رضى الله تعالى عنه نبعا شرب منه كثير من الصوفية فيما بعد ..

وليست مصادفة ان التصوف نشأ بعد القرن الثانى للهجرة ، ولقد كان مرور الوقت ووقوع الفتن ارضا ولد فيها الاحساس بالغربة ، وبدات علامات الاستفهام تولد على سطح الحياة .. ما هذا الذى يحدث ؟

ما هذه الدماء التى تراق .. ؟

لماذا يموت من نحب أو يقتلون ؟ لماذا تقتل البراءة والتقوى بغير ذنب سوى البراءة والتقوى ؟

وينغرس فى نفس الانسان احساسه بالغربة .. بالابتعاد .. ويخاصم الانسان الواقع الكائن .. ويبتعد الصوفى برؤياه عن الواقع المضطرب .. وكذلك يفعل الفنان ..

ان الفنان انسان يخاصم الحياة ، ويريد تجاوز الواقع الكائن ، ولا يبدع الفنان اذا كان راضيا **كل الرضا عن الحياة ، ليس هناك فن بشرى بمعناه الأرضى فى الجنة ، لان الجنة كمال مطلق والفن لا ..**

لا يمارس العمل فى كمال مطلق ، وكذلك التصوف . فى عصر الرسول وعصور الخلفاء الراشدين لم ينشأ التصوف لوجود الحد الأعلى من الكمال .. وبعد ذلك نشأ التصوف كمحاولة لتكملة هذا النقص الذى وقع لصورة الكمال .

وهدف الفنان النهائى هو تجاوز الواقع واستكمال النقص فى الحياة واداته هى التعبير الفنى المعقد المركب ..

أما هدف الصوفى فهو الوصول بتجاربه الروحية الى الله ، وأحيانا يعبر الصوفى عن نفسه بالشعر او الحكايات الرمزية أو النثر الغامض والرموز ..

ومن الخطأ البالغ أن نتناول تعبير الصوفية الأدبى سواء كان شعرا أو نثرا ، لنناقشه بمنطق الدين ..

هنا يمكن أن نخطىء كما أخطأ القدماء ..

ادعى الى الدقة كثيرا أن نناقش انتاجهم الفنى بمنطق الفن ..
اذا كانوا يتحدثون فى الاحكام الشرعية .. فهذا دين ..
واذا كانوا يجتهدون فى الفقه .. فهذا تفسيرهم للفقه ..
واذا كانوا يتحدثون بالشعر عن حب ليلى وعزة ، فهذا فن عظيم نناقشه بمنطق الفن .. ونرى هل هو فن عظيم حقا أم ان هذه دعوى ؟

ولقد كان خطأ المستشرقين انهم ناقشوا التصوف كدين ، وحسبوه على الدين .

ولما كان التصوف « حالة » ، وكان فى الصوفية آلاف الحالات ، فمعنى هذا أن الدين سيخرج من ثبات الحقيقة الى أودية الحالات الفنية المتغيرة وهذا ما لا يرضاه أحد ، أو يقبل به منصف .

وهكذا يظل الصوفى تحت خيمة الاسلام ، ونعتبره داخلا فى مجال الاسلام طالما كان داخلا فى اطار الكتاب والسنة ، فان خرج الى ميدان الفن الفسيح ناقشناه بمنطق آخر ..

نضرب مثالا لتوضيح فكرتنا .

اذا قال العاشق المتيم قيس بن الملوح لنا « من فرط ما أحببت ليلى صرت انا ليلى .. احملها فى قلبى وروحى .. ان ليلى هى روح روحى » .

لو قال قيس بن الملوح هذا لنا فماذا نقول ردا على جملته ..

هل نتهم انفسنا بعدم الفهم أم نتهمه بالجنون ؟ اختار معاصروه اسهل الطرق واتهموه بالجنون وذاع اسم شهرته فلم يعد يعرف الا به .. ذلك أن دعوى العشق لا يجوز عليها التصديق والقبول ، ولا يجوز عليها الرفض والاستبعاد .. طالما انني لست انا العاشق ..

لو كنا عاشقين فقد نفهم قيسا .. ولو لم نكن عاشقين فسوف نتهمه بالجنون .. (الا يقولون من ذاق عرف ؟) .

بماذا نعلق على أبيات الشاعر التى يقول فيها :

ينادى المنادى باسمها فاجيبه وادعى فليلى عن نداى تجيب
وما ذاك الا اننا روح واحد تداولنا جسمان وهو عجيب
كشخص له اسمان والذات واحد بأى تنادى الذات منه تصيب

ان الشكل الذى قدمت لنا به الفكرة هو الشعر .. والشعر فن ..

أليس هذا فنا رفيعا ..

والمضمون الذى يريد الشاعر توصيله وهم يتصور فيه اتحاده بليلى ، واتحاد البشر مفهوم ومعروف ، وهو مستحيل أن يقع بهذه الصورة التى يتحدث عنها الشاعر الا للحظات ..

وبالتالى نسقط دعوى الاتحاد مع الخالق ، ويصير صرف ليلى الى الحقيقة الالهية فكرة مستبعدة ومرفوضة ..

غاية ما يمكن أن نفهمه من الشعر ان الشـــاعر يحب الله حبا لا يرى فيه نفسه ..

وقد عبر عن هذه الصورة بهذه الأبيات الشعرية .. وهي فن يمكن نقده وتحليله ، وليست دينا يمكن اضافته الى الاسلام ، ومحاسبة الاسلام عليه كما يفعل بعض العلماء المغرضين والمستشرقين .

لا ننكر ان فى التصوف جزءا من الفن ..

ولا ننكر ان فى الفن العظيم جزءا من التصوف ..

والفن موهبة يمنحها الله لبعض عباده ، وشأنها شأن بقية المواهب امتحان يرى الله تعالى فيه أين يضع الانسان موهبته .

والصوفى كالفنان فى جزء من تركيبه النفسى .. فهو يملك قدرا من الحساسية البالغة والحدس العميق ، ويملك رؤياه الخاصة به ، ويملك قدرة على التعبير لا يملكها العابد فحسب .

ومثل الفنان .. يحلم الصوفى بتجاوز الواقع الظاهر لما هو أعمق واخفى ، ويحب أن يضيف الى الكون جمالا لم يكن فيه قبل ان يولد ، وقد يصطدم الصوفى كما يصطدم الفنان بمجتمعه ، وقد ينتصر المجتمع على الصوفى أو الفنان فينفيهما فى الأرض أو تقيلهما .

ويتشابه الفنان والصوفى فى اعتمادهما على التجربة وصولا بفنهما الى الذروة ، واذا كانت تجربة الفنان تستوعب الجسم والروح ، فان تجربة الصوفى تعتمد على الروح أكثر من اعتمادها على الجسد ، يخطىء الفنان ليعبر عن الخطيئة . اما الصـــوفى فهو يســـأل فحسب عن الخطيئة لكيلا يقع فيها .

وقد حدد لنا حسن البصرى هذا المعنى العميق حين سئل :

يا أبا سـعيد .. انك تتكلم فى هذا العلم (الزهد) بكلام لم تسمعه من

احد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أين اخذته ..

قال : من حذيفة بن اليمان حين قال : كان الناس يسألون النبى صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه ، وعلمت أن الخير لا يسبقنى ، وعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير.

. . . .

أيضا يتشابه الصوفى والفنان فى ان كليهما يقتات على الحب ..

وهنا يختلف الصوفى عن الفنان فى موضوع حبهما ، وان اتفقا فى كثير من التعبيرات الادبية والفنية ..

فالفنان يسكر من رؤية الحبيبة ماديا ، وهو يشرب الخمر فى صحتها وينتشى بما يحس ويقول انه هى وانها هو ، وكذلك يفعل الصوفية ؛ يستخدمون نفس المصطلحات كالكاس والشراب والوجد والسكر والصحو ..

الفرق بين الفنان والصوفى ان الفنان يحب حبا بشريا ، ويتعلق قلبه بالبشر ، ويريد الفنان اذا عشق أن يرى صورته فى عين من يحب ، والفنان يحب نفسه ويحب قدرته على الحب ويحب الحب قبل أن يحب الحبيبة ، واخطر ما يريده الفنان أن يكون محبوبا ..

هذا أقل آماله .. واعظم آماله ان يكون معبودا .

اما الصوفى فله وجهة نظر اخفى وارقى من وجهة نظر الفنان ..

يقول جلال الدين الرومى « ليس لكل احد ان يكون محبوبا ، فانه يحتاج الى صفات وفضائل لا يرزقها كل انسان .. ولكن لكل انسان أن يأخذ نصيبه فى الحب وينعم به .. فاذا فاتك يا سيدى أن تكون محبوبا ، فلا يفتك يا عزيزى أن تكون محبا .. وان لم يكن من حظك أن تكون يوسف .. فمن يمنعك أن تكون يعقوب .. ولو عرف المحبون ما ينعم به العشاق المتيمون ، لتمنوا مكانهم ، وخرجوا من صف المحبوبين السعداء الى صف المحبين البؤساء » .

الست ترى أن الصوفى اشد تواضعا من الفنان ..

الست ترى أن الصوفى يحب أن يكون محبا .. أما الفنان فيحب أن يكون محبوبا ..

وعلى حين يؤكد الفنان ذاته فى الحب عن طريق تضييع هذه الذات . يضيع الصوفى ذاته فى الحب .. وبضياع هذه الذات لا تبقى الا ذات المحبوب وحده ..

ذات الخالق وحده ..

ولأن الفن يختار رجاله عادة من ذوى المشاعر العنيفة والحساسية العميقة ، نرى الفن يمتزج عادة بلون من الوان المغالاة والتزيد والجنون ، واحيانا نرى فى التصوف مغالاة وتزيدا ، واذا كان قيس بن الملوح مجنونا فى نظر المجتمع لأنه أحب ليلى كل هذا الحب ، فان المجنون فى نظر نفسه كان هو العاقل الوحيد وكل الناس مجانين ، أما اذا نظر الصوفى لقيس ابن الملوح فسيراه مجنونا لانه ذهب الى صورة ليلى ولم يذهب الى المصور البارىء ..

ذهب الى ليلى فعذبته ليلى حتى فقد عقله ، ولو ذهب الى الله وفقد عقله لكان له شرف البهت والتحير والجنون فيمن يستحق باعجازه البهت والتحير ..

. . . .

واذا كان التصوف بحارا غريقة وجزرا وعرة .. فان أفضل تمييز للتصوف هو تقسيمه الى قسمين :

التصوف الايجابى والتصوف السلبى .. او التصوف الاسلامى والتصوف الفنى .

ومعيار التفرقة هنا هو الكتاب والسنة ..

ما كان محكوما باطار الكتاب والسنة ، كان تصوفا اسلاميا ، وما خرج عنهما كان فنا يخضع لمقاييس الفن وقيم النقد ، ولم يعد يلزم الاسلام فى شيء .. لان الاسلام هو الكتاب الذى أنزل علينا .. هو القرآن وما تواتر من السنة .. وما عدا ذلك من زيادة .. أفكار ليست هى الاسلام ولا تحتسب عليه ..

وسوف نرى ان فى التصوف رجالا كانوا هم التصوف الايجابى وحده ، وسنرى رجالا يمتزج فيهم التصوف الايجابى بالتصوف السلبى .. وسنرى الصوفية السلبيين .

سنرى أن ذهن الانسان تمتزج فيه آلاف الأفكار ، ورغم هذا كله ، فان هناك بوصلة نستطيع اذا نظرنا فيها أن نعرف هل نبحر فى الاتجاه السليم نحو الحقيقة ..

أم نمضى نحو الغرق فى عواصف البحار ..

نحسب أن الوقت قد حان للحديث عن مصادر التصوف وتفسراته ورجاله ..

كان الزواج القاسى بين الزهد والتأمل وظروف المجتمع الاسلامى الداخلية والخارجية هو المسئول عن ميلاد التصوف بعد ٢٠٠ سنة من هجرة الرسول .

ونحن نرفض تصديق دعوى المستشرقين التى ترى أن التصوف نبع من مصدر واحد ، ونرى أنه نبع من أكثر من مصدر ..

الأول : بعض آيات فى الكتاب الكريم ..

الثانى : ما عرف عن الرسول من زهده وتأمله .

الثالث : التأثيرات الداخلية التى وقعت فى المجتمع الاسلامى فى المائتى سنة الاولى من الهجرة (كالفتنة وعلم الكلام والاتجاه العقلى الذى استتبع رد فعل وجدانى) .

الرابع : التأثيرات الخارجية التى وفدت على العقل الاسلامى نتيجة احتكاكه بالفلسفة اليونانية وتجارب الامم الروحية والعقلية التى خضعت للاسلام .

وقد قيلت نظريات كثيرة فى أصل التصوف ..

قيل ان التصوف تعبير عن الناحية الباطنية فى الاسلام ، وهذه هى دعوى الصوفية أنفسهم .. اذ يعتبرون انفسهم ورثة الرسول فى العلم ، ولما كان الأنبياء لا يورثون مالا ، فانهم يورثون العلم ..

وسنرى فى هـذا المجال ان بعض الصوفية حملوا آيات القرآن ما لا تحتمل ، وفرضوا عليها أهواءهم فرضا ، واستحلوا لانفسهم أن يفسروا بعض الكلمات القرآنية تفسيرا يستحيل أن تحتمله .. مثل تفسير الصوفية من الشيعة لقوله تعالى « **مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فباى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فباى آلاء ربكما تكذبان** » قالوا ان البحرين هما على وفاطمة ، أما اللؤلؤ والمرجان فهما الحسن والحسين . وهذا تفسير يعتسف المعنى ويفرضه على النص القرآنى ..

وقيل ان التصوف رد فعل للعقل الآرى ضد دين سامى فرض عليه فرضا . وتهافت الدعوى واضح ، وقيل ان التجارب الروحية للهنود اثرت على المسلمين ، وقيل ان التصوف الاسلامى نتاج فارسى فى نشأته وتطوره ، لان عددا كبيرا من الصوفية من اصل فارسى .. وهذا كله كلام يلقى على عواهنه ، وسواء قيل ان اصل التصوف هو الهند أو فارس ، فان الثابت ان أصله أعقد من أن يكون ناشئا من سبب واحد ..

وسنرى كلما ابحرنا فى بحار القوم ان مصادر الموج الهائج أعقد من أن تنسب الى سبب واحد او سحابة واحدة او تأثير واحد .

. . . .

فى البدء ..

كان بحر الخوف من الله تعالى يمتد فى روح المسلمين ..

وكان الحياء الخائف من الله تعالى هو أسبق العناصر تأثيرا فى المسلمين .. يقول الله تعالى فى سورة فاطر « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » .. وبهذا التخصيص يجعل الله تعالى خشيته برهانا على العلم ودليلا عليه وتسير آيات القرآن فى هذا الاتجاه .

يقول تعالى فى سورة البقرة « **يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** » .

ويقول تعالى فى سورة النساء « **ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله** » .

ويتحدث الحق تبارك وتعالى عن مناسك العبادة وشعائر الحج وذبح الاضحية فيلفت الانتباه الى حقيقة جوهرية فى سوره الحج « **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم** » .

تتأمل معانى الآيات :

فى سورة البقرة يحدثنا الله عـن هدف الخليفة الانســانية ، فيقول سبحانه أن الهدف هو التقوى .

وفى سورة النساء يشير القرآن الكريم الى أن وصية التقوى الموجهة الى المسلمين هى نفسها وصية التقوى التى وجهت قبل ذلك الى الذين أوتوا الكتاب .. وهذا معناه أن الوصية قديمة يرجع تاريخها لنشأة النوع الانسانى .

وفى سورة الحج يقول الحــق للحجيج ان دماء الأضــحية ولحومها لن تذهب الى الله ، انما سيذهب الرمز المختبيء فى شعائر العبادة .. وهو التقوى ..

وبهذه الآيات كلها ينكشف لب الاسلام عن جوهر التقوى . والتقوى تعنى الخوف من الله تعالى والحياء منه ومراقبته فى كل حال .

وبسبب أهمية التقوى البالغة .. يجعلها الله تعالى هى معيار الفضل الوحيد .. وهى معيار الكرم الوحيد ..

قال تعالى فى سورة الحجرات « **ان اكرمكم عند الله اتقاكم** » ..

لم يقل الله سبحانه ان أكرمكم عند الله اغناكم ، ولم يقل أعلمكم . ولم يقل أجملكم ولا افضلكم حسبا ونسبا ، انما قال شيئا يتجاوز هـذا كله . أن تصورات البشر وموازينهم تجعل الاولوية للثراء والعلم والجمال والحسب والنسب والسلطة والرئاسة ..

ولم يكن الحق يتحدث فى سوره الحجرات عن موازين البشر .. قال تعالى : « **ان اكرمكم عند الله** » ..

ثمة مستوى آخر يختلف تماما عن موازين البشر وتصوراتهم .. حين

امام مستوى الالوهية الجليل ..

يقيس الله عز وجل كرم الناس بتقواهم لله ..

التقوى هي المعيار عند الله .. وهي وحدها التي توضع في الميزان ، وهي وحدها التي تهم .

هذا التتويج للتقوى اثر في قلوب المسلمين الأوائل ، فقد كانوا يتلقون من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكان الرسول اتقى الناس لله ..

كان إشد الناس خوفا من الله ، واشد الناس حياء من الله ، واشد الناس رهبة من جلال الله ، وكان حبه لله عز وجل لا يتجاوز اطار العبودية وتوقير الله .. ورغم أن أعظم ذنوبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت حسنات للمقربين والعابدين والاتقياء .. رغم مطالبة الحق له على الكمال لانه يريد منه ذروة الكمال لا الكمال وحده .. رغم انه كان صلى الله عليه وسلم بلا ذنوب .. رغم أنه كان رحمة للعالمين بنص كتاب الله .. رغم أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، رغم هذا كله كان يقوم الليل ويصوم النهار فلما سئل لماذا وقد غفر الله لك ؟

اجاب : افلا أكون عبدا شكورا

ان اجابته صلى الله عليه وسلم تتضمن الاحساس بالعبودية الشاكرة ..

والاحساس الدائم بالعبودية هو جوهر التقوى ..

ولقد عرف الاسلام نماذج من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين كانوا امثلة عليا في خشية الله وتقواه ..

. . . .

بحر ابي بكر الصديق ..

مثل ريح تسوق السحاب والمطر كان كريما تقيا .. اكرم الرسول بتصديقه وسمي الصديق .. واكرم الرسول بماله وكان قبل الاسلام اعظم اغنياء مكة ، فصار بعد الاسلام رجلا فقيرا ذهبت أمواله في الدعوة الى الله .. واكرم الرسول بابنته عائشة ، واكرمه بمصاحبته في الهجرة ،

وكان قمة فى العبادة ورقة المشاعر وسمو النفس ، ورغم ذلك فهو القائل انه لايامن مكر الله ولو وضع احدى قدميه فى الجنة ..

هذا صاحب رسول الله ..

هذا مقدار تقواه لله ..

. . . .

بحر عمر بن الخطاب ..

مثل سيف لا يقف امامه شيء كان كريما تقيا .. فى ظروف الاسلام الاولى ، أيام الحصار والجوع والبؤس والتعذيب والاضطهاد .. سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ان يعز الاسلام بأحد العمرين ..

واستجاب الله تعالى ..

كان عمر بن الخطاب هو الرجل الذى اعز الاسلام بشجاعته فى الحق .. وكان عمر بن الخطاب هو الحاكم الذى يتقلب فى فراشه خوفا من ان تنكفيء عنزة فى احدى طرق العراق فيسأله الله لماذا لم يمهد لها الطريق وهو حاكم على المسلمين ومسئول عن طرقهم وكبوات حيواناتهم ..

. . . .

بحر على بن ابى طالب ..

وسيدنا على هو باب مدينة العلم .. وهو أول صبى يؤمن بالاسلام ، وهو الذى تربى فى بيت النبوة .. وشرب آدابها وسقى من تقواها .

. . . .

بحر عثمان بن عفان ..

قتل الرجل الكريم وهو يقرأ كتاب سيده ومولاه .. قتل وهو يقرأ فى المصحف ، وكان يقول :

« اذا جاء العبد كتاب من سيده وجب عليه ان ينظر فيه كل يوم » .

نريد أن نلاحظ استخدامه لتعبير العبد ..

لقد استخدم الرسول نفس التعبير قبل ذلك حين سئل لماذا يجهد

نفسه وقد غفر الله له ..

ان الاحساس بالعبودية هو جوهر التقوى ..

والخوف من الله تعالى والذلة بين يديه والافتقار اليه هو جوهر التقوى ..

وسوف نلمح فى جميع الصحابة والتابعين هذا الاحساس البالغ بتقوى الله وخشيته ..

. . . .

بحر سيدنا الحسين بن على ..

صنع موجة من خشية الله ..

وتوجته الشهادة ..

ويسيل دمه فى الله .. رمزا للبراءة التى يقتلها الدهاء والظلم ..

وينتقل الموج الخائف الى بحر ابنه ..

. . . .

ما اشد هدوء هذا البحر ..

وما اعظم صفاء امواجه ..

هذا بحر الكريم ابن الكريم ابن الكريم ..

بحر على بن الحسين بن على بن ابى طالب ..

المياه هادئة ساكنة ..

القاع عميق وان ارتعشت رماله بالخوف من الله ..

الأمواج جاءت من دموع الخشية من الله والهيبة من جلاله ..

لم نزل فى منطقة الزهد الخائف ..

لم ندخل بعد منطقة التصوف المعقد ..

هذا البحر هو المدرسة الأولى من مدارس الزهد الذى تطور الى التصوف .. لقد كان التشيع المعتدل واحدا من أهم العوامل التى أعانت على تطور الزهد الى التصوف كما لاحظ الدكتور عبد القادر محمود .

وكانت المأساة التى وقعت لاهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم هى الجسر الذى وصل بين أهل السنة والشيعة .. فاذا كثير من السنيين ينحازون بمشاعرهم الى آل البيت .. واذا آل البيت انفسهم يحسون الاغتراب ، واذا المنحازون اليهم يحسون بنفس المشاعر ، ومن الغربة يولد الحزن .. والحزن ينمو فى بدايته تحت شمس اليأس فى الدنيا ، تسقيه دموع الامطار المغتربة .

يوما بعد يوم تورق اشجار الحزن فاذا نحن أمام حديقة باكملها من الحزن ..

. . . .

على زين العابدين يسير فى السنة التسعين الهجرية .. استعد تماما للموت بعد سنوات لا يعلمها وان كان مكتوبا فى علم الغيب أنه سيموت فى السنة الخامسة والتسعين للهجرة ..

يرتدى الحرير ويخب فى عباءة غالية .. على وجهه مسحة من نبل حزين .

هو زاهد يلبس الحرير .. ليس الزهد عنده هو فراغ اليد من الدنيا ؛ وانما الزهد هو فراغ القلب من الدنيا .. وقد فرغ قلبه من الدنيا واغترب فيها ..

ان تكون الدنيا فى يدك وخارج قلبك ..

ان تكون قادرا عليها وسيدا فيها ومزدريا لها ومحتقرا لها فى نفس الوقت ..

هذا هو الزهد ..

سئل منذ ليلتين كيف حالك فقال : فقد الاحبة غربة ..

شرب اغترابه من حزنه على أبيه سيد الشهداء الامام الحسين .. ورغم أن اسمه الاصلى هو « على بن الحسين بن على » .. الا ان شهرته بزين العابدين التصقت باسمه فلم يعد يعرف الا بها .. هو على زين العابدين ..

هو على التقى الذى كان يقوم طرفا من الليل للتهجد والعبادة ، فاذا سار اثناء النهار سار بوجه شاحب من اثر سهر الليل ، وافشت عيناه سر بكائه الطويل طوال ليلة الأمس خوفا من الله واملا فى رضاه ..

عبد عابد من عباد الله ..

وكلماته فى ابتهالاته تشى بحكمته وادبه النبوى فهو يستمد من مشكاة النبوة مباشرة ..

تورد الصحيفة السجادية قول على زين العابدين فى ابتهال من ابتهالاته « **اللهم لك قلبي ولساني . وبك نجاتي واماني . انت العالم بسري واعلاني** » .

يسلم الرجل قلبه ولسانه لله ..

واللسان يترجم عما يريد الانسان قوله ، فهو هنا رمز للظاهر الذى يحب الانسان من غيره أن يعرفه عنه ..

اما القلب فرمز لأسرار الانسان ودخيلته .. هو رمز للمخبوء فى باطنه ، وحين يسلم على زين العابدين قلبه ولسانه لله ، يعنى أنه يسلم سره وعلانيته ، فيجعل ما على لسانه وما فى قلبه ملكا لله عز وجل .. ولانه يفعل ذلك يدرك أن نجاته وإمانه يستمدان من مصدر واحد هو الله ، فلا نجاة ولا امان فى البعد من الله .

يقول على زين العابدين فى ابتهالاته : « **اللهم امت قلبي عن البغضاء ، واصمت لساني عن الفحشاء ، واخلص سريرتي وعلانيتي عن علائق الاهواء . واكفني بامانك عواقب الضراء ، واجعل سري معقودا على مراقبتك ، واعلاني موافقا لطاعتك** » .

يسأل العابد الله تبارك وتعالى أن يجعل سره معقودا على مراقبة الله واعلانه موافقا لطاعة الله .. وهذه الفكرة الاسلامية الخام ، سوف نعثر عليها فيما بعد مفلسفة عند حجة الاسلام الامام الغزالي فى استواء السر والعلن .

نريد أن نلاحظ ملاحظة هامة ..

نحن لم نزل نبحر فى بحار الحزن المغترب الخائف ..

وقد نما مقام الغربة التى تستهدف الآخرة عند سيدنا على زين العابدين ، وتسرب منه الى الحسن البصرى بعد ذلك .. يقول ابو طالب المكى فى قوت القلوب : ((**كان الحسن البصرى اذا اقبل فكأنما اقبل من دفن حميمه ، واذا جلس فكأنه اسير قد امر بضرب عنقه ، وكان اذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق الا له ..**))

كان الخوف حالا من حالات العلم ..

كان الخوف من الله مقاما يقيم فيه العارف بالله ..

قال تعالى : ((**ولمن خاف مقام ربه جنتان**)) .

والحسن البصرى هو الذى ربط الخوف بكونه حالا فى مقام العلم تمكينا للوصول الى اليقين ((**فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين**)) ..

والطريق الى اليقين يمر بالخوف من الله تعالى ..

ويبدأ الطريق بالتوبة فالصبر .. والشكر .. والخوف .. والرجاء .. والتوكل .. والمحبة .

وقد سئل جعفر الصادق ما بالنا ندعو الله فلا يستجاب لنا ..

فقال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه ..

نفس السؤال وجه الى أحد تلاميذه بعد ذلك فأجاب : لأنكم تعرفون الله ولا تطيعونه ..

نفس السؤال تكرر بعد ذلك على تلميذ لتلميذه .

كان السؤال قد تحور هذه المرة ..

قيل له أننا ندعو فلا نجاب .. والله يقول ادعونى استجب لكم .

فقال : ماتت قلوبكم فى عشرة أشياء :

١ — عرفتم الله ولم تؤدوا حقه .

٢ ــ وقرأتم كتابه ولم تعملوا به .
٣ ــ وزعمتم محبة رسوله وتركتم سنته .
٤ ــ وادعيتم عداوة الشيطان ورافقتموه .
٥ ــ وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ..
٦ ــ وقلتم نخاف النار ووهبتم انفسكم لها .
٧ ــ وقلتم الموت حق ولم تستعدوا له .
٨ ــ واشتغلتم بعيوب اخوانكم ونبذتم عيوبكم .
٩ ــ واكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها .
١٠ ــ ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا .

فكيف يستجاب لكم ؟ ..

* استغرق الخوف من الله وقتا حتى تحول من الزهد الى التصوف وخلال هذا الوقت قدم الاسلام نماذج مثل عتبة الغلام لم يكن غلاما حين اطلق عليه اللقب ، ولا كان غلاما حين مات ، لقد تجاوز الثالثة والثلاثين مثل عيسى حين لقى ربه ..

انما سموه عتبة الغلام لانه كان نحيلا متوسط القامة ، وكان فى العبادة غلام رهان ..

وقد استشهد عتبة وهو يغزو فى سبيل الله فى شمال الشام .. وجلس اصدقاؤه يذكرونه ويتحدثون عنه ، لعل الحديث يحييهم ساعة فى ملكوت السماوات فيستحثوا خطوهم الى الله ..

قالت جارته ام عطاء : رحم الله عتبة .. كان جارا لنا وكان هينــا كالنسمة .

وقال احمد بن زهير : كنا نطلب المنزلة فى نفوس الناس الا عتبة ، فقد كان يرى ابتغاء المنزلة عند الناس هو السقوط من عين الله .. وكان يفرح لما يرى من هوانه على الذين لا يعرفونه .. وكان الناس لا يلتفتون اليه لصغر حجمه .. ركبنا سفينة مع عتبة ، واضطربت السفينة من الرياح وجعلت تميل وتستوى ، فاراد الملاح ان يعدل جلوسنا فلم يجد فى عينه اهون من عتبة ، فدفعه فى جنبه وقال : اسنو يا هذا بازاء من بجوارك ..

واشرق وجه عتبة بالسرور .. وغمغم يقول لنفسه : **الحمد لله ان لم ير فيهم احقر فى عينيه منى .**

وقرات ام عطاء قوله تعالى « **وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** » .

وحكت ام عطاء عن عتبة الغلام ..

كان يأخذ دقيقه فيبله فى الماء فيعجنه ويضعه فى الشمس حتى يجف .. فاذا جاء الليل اخذه واكل منه لقما ثم يشرب قليلا من الماء ..

وقلت له : يا عتبة ، لو اعطيتنى دقيقك فخبزته لك .. قال : يا ام عطاء . الامر اعجل من ذلك .. كسرة وملح تسد عنى كلب الجوع .

. . . .

كان عتبة الغلام متعجلا .. فعلى اى شىء ؟

ان دعاءه يستطيع ان يفشى لنا سره .

كان اعظم دعاء له « **اللهم احشر عتبة بين حواصل الطير وبطون السباع ..** »

وقد استجاب الله دعاءه ..

والدعاء فى الاسلام مخ العبادة ، هو عقلها وأداتها .. والأصل ان المسلم لا يحمل هم الاجابة . انما يحمل هم الدعاء .. يكفى ان يكون مؤمنا ويدعو حتى يستجيب الله لدعائه ..

ليست هناك مشكلة فى الاجابة ..

المشكلة كلها فى الدعاء .

« **اذا الهمت الدعاء جاءت الاجابة معه** » .

وهكذا دعا عتبة الغلام ..

لم يكن يدعو أن يجعله الله سيدا فى قومه ، او ثريا ، او ذكيا ، او ملكا ، او رئيسا يحكم . لم يكن يدعو الله ان يحفظ صحته وحياته او

يبارك فى امواله واولاده .. لم يكن يسأل الله لنفسه اى شىء .

خرج من ملك نفسه الضيق الى ملك الله الواسع .

لم يعد سجين مطالب البشر ، وهى مطالب مشروعة يستن الدعاء بها ..

لم يعد عتبة الغلام يريد لنفسه شيئا لقد احب الله لا الحياة .. واحب الاسلام لا سلامته هو .

واحب ان ينشر الدعوة ولو مزق جسده فى سبيل الله ..
واحب ان تأكل جسده الممزق هذه الطيور الجارحة وهذه السباع الجائعة .

ان عتبة الغلام لم يزل مستمرا فى العطاء ..

لا يقتصر عطاؤه على الجيش او الحياة الاسلامية او مركز الاسلام الممتاز او هيبته .

انما يمتد عطاؤه الى الطيور والوحوش .

يريد ان تمتلىء حواصل الطيور باجزاء من جسده .

ويريد ان تمتلىء بطون السباع باجزاء من جسده .

انه يقدم بعد موته دليلا على كرمه .. فيجعل من جسده مائدة للطيور والحيوان .

حتى لو كانت الطيور جارحة .. وكان الحيوان وحشا .

اليس هؤلاء بعض الخلائق ..

فليعط الخلائق اذن حتى بعد موته .

ويسير عتبة الغلام قاصدا الشام ..

« يعرف أن حياته على الارض مثل طائر عذب النغم وقف ساعه على غصن .. فغنى ثم طار » .

كان عتبة الغلام يريد ان يغنى بصوت له صليل سيوف تدافع من الاسلام والانسان ..

وظل مسافرا حتى وصل الى شمال الشام . .

المكان : اسمه المصيصه ..

الزمان : بعد صلاة الظهر ..

فوجيء قادة الجيش بهذا الزاهد العابد النحيل الضعيف داخلا عليهم سألوه ! **ما جاء بك ؟ .**

قال عتبة الغلام : جئت اغزو .. رايت فى المنام انى آتيت اغزو فاستشهد .

قال مخلد بن الحسين : ما عن هذا اسأل ولكنا نصاول بنى الاصفر . وهم قوم اشداء ، لا ينفع فى نزالهم شبح انضته العبادة والسهر مثلك .. ولا احسب ان عودك هذا الخفيف يستقر على صهوة جواد اذا كر به وفر ..

استمع عتبة الغلام لهذه الكلمات بما تضمه من سخريه خفيفة .. ونظر الى القائد العسكرى نظرة اصابت قلبه كأنها سهم .. وتلون وجهه وقال :

يا ابن الحسين . ليس العجب ان ينفر الهزيل الشاحب لقتال اعداء الله ، وانما العجب ان ينفر اليهم مشوش الايمان زائغ القلب والعقل ، وان النصر لايبطيء عن جيش من جيوش الله الا ان يكون فيه من غره شيطانه عن ربه ، يا ابن الحسين . لو آننا نقاتل القوم بمثل ايمانهم لكان من احمق الحمق ان نلقاهم وعددنا قليل ، وسلاحنا كليل ..

ولكن شتان بين ايمان وايمان ..

ويارب نفس رمقت جلال الله فذهب عنها غرورها ، فلم تشهد الا فقرها اليه وعجزها بين يديه ، فامدها بسر من بأسه ، وايدها بكوكبة من جنده . فاذا هى فى الميدان يصول فيها سر الله ويجول ، فوالله لأن يتبث الكافر لجبل ينقض عليه اهون من أن يثبت لضربة من ضرباتها ..

يا ابن الحسين .. انك لن تنصر الله فى معركة حتى تنصره فى نفسك

بتغليب أمره على هواك ، فان كنت فارس هذه المعركة فانت فارس الاخرى باذن الله .. فانظر ماذا يغني لحمك وشحمك اذا انت خذلته في الأرض وجئت تطلب نصره في الثانية .. وهو الذي جعل هذه بتلك جزاء وفاقا ووعدا حقا في قوله سبحانه « **ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم** » انتهى عتبة الغلام من كلامه لقائد الجيش .

قال مخلد بن الحسين : فوالله لقد انكسرت لما قال .. وكأنما اهدى الي نفسي فقلت له : يرحمك الله يا اخي .. انما كنت أمزح . وحين رأى عتبة في اجابة مخلد انه يتضعضع له حياء مما اتى .. انثنى يجبر ما انكسر من نفسه فقال عتبة : ان بسطة الجسم من أجل مواهب الله ، وانهـا لمن ملقيات الرعب في قلوب اعدائه ، والمؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، وما شاب عني والله ضعف جسمي وان ليس فيه ما يرهب عدو الله ، ولقد اهمني ذلك ، (اقلقني) وحدثت به نفسي فقلت حين نزلت حلب : اذا قصر جسـمي ان يرهب عـدو الله فلألقينهم بجواد يكون ارهب لهم من سرية ..

وقلت لبعض اخوانى اشـتروا لى فرسـا يغيظ المشركين اذ رأوه فاشتروا لي ذلك الجواد ..

اشار عتبة بيده نحو جواد عربي أصيل جواد حرب لا يفزعه صليل السـيوف وانما يرفع صـاحبه ليكون اقدر على ان يهوى بسـيفه على خصمه ..

. . . .

وانضم عتبة للجيش المحارب .

كانت هناك فترة ترقب وتأهب ..

كانت ساعة الهجوم لم تحدد بعد .

واكتشف الحرس الليلى للمسلمين ان عتبة الغلام يغنيهم عن السهر ..

كان هو الساهر يوميا حتى اذان الفجر .. كان الحرس في خيمته ينام اعتمادا عليه . كان يكفيهم مئونة السهر .

هو الساهر دائما ، اما قارئا للقرآن أو مصليا أو ذاكرا .. كان الجيش يضم يحيى الواسطى ايضا وهو من الزاهدين ورأى مخلد بن الحسين فى منامه ذات ليلة حلما .

رأى ان ملكا نزل من السماء ومعه ثلاثة اكفان من أكفان الجنة ، فالبس عتبة الغلام كفنا ، والبس يحيى كفنا ، والبس رجلا ثالثا كفنا ، فلما جاء الصباح واستيقظ فكر ان يحدثهم عن حلمه ، ولكن عتبة الغلام قال له :

يا أبا محمد .. انتظر . لا تحدث برؤياك الآن .

ودهش مخلد ، ولكنه سكت ..

كان القوم مرابطين ، ولم يكن هنـاك غزو تلتحم فيه الجيوش .. واستمر الحال على ذلك شهرا ..

وجاءت ليلة ، واحس مخلد ان احدا يحركه فى سريره . فتح عينيه واستيقظ فوجد عتبة الغلام ..

سأل : ما حاجتك ؟

قال عتبة : اجلس فقص على الرؤيا ، فما احسب الا ان قد دنا الموعد .. وحدثه مخلد برؤياه ، وانصرف عتبة .. لم يكد ينصرف حتى نودى بالجهاد . وفزع مخلد الى جواده فأسرجه ، فلما بلغ باب القلعة كان عتبة قد سبقه اليه ..

وفتح القائد الباب وبدا الهجوم الليلى يحكى مخلد القصة « بلغنا مكانا به بعض آثار العدو .. قلت : من يجيئنا بخبر هؤلاء .

وثب عتبة .. وقال : انا .

واختفى عتبة فى جوف الليل ..

« اذا الهمت الدعاء الهمت الاجابة معه » .

« انا احمل هم الدعاء لا هم الاجابة » .

« اللهم احشر عتبة فى حواصل الطير وبطون السباع » .

« اللهم ارزق عتبة اليوم شهادة فى سبيلك تقر بها اعين المسلمين »

لا أحد يعرف أى شىء كان يفكر فيه عتبة ..

كل ما راوه حصانه وهو يغوص فى قلب الليل الأسود ..

وسيفه وهو يرتفع كالقضاء والقدر ..

اسفرت المعركة عن قتل عتبة الغلام .. بعد ان روت الاساطير طرفا من شجاعته فى المعركة وعدد قتلاه من المشركين .. انطلق يصول فيهم ويجول بسر الله .. وايده الله بكوكبة من عنده ، فبدأ حصانه الأشهب مثل برق ينسف اشجار الغابة ويشقها ويشعل فيها حمرة النار والدم ، ثم استجاب الله دعاءه ..

كان قد الهم الدعاء فوردت الاستجابة .

وهكذا هز احد الاعداء حربتـه ، حتى اذا رضى مـكانها فى يده ، ارسلها الى ظهر البطل فمرقت فى جوفه حتى أحس سنانها بين ثدييه ..

وصرخ يكبر الله هاتفا : فزت ورب الكعبة ..

وفازت الطير والسباع بعشائها ..

وبات كل الخلائق راضيا عن نفسه ..

سنجد صورة عتبة مكررة فى عمرو بن عتبة .. وهو ليس ابنا لعتبة كما يبدو من تشابه الأسماء . انما هو ابن أمير ماسبذان وهو ابن أمير حاكم ، وابوه يريد ان يكون الأبن حاكما من بعده ، والأب لا يستطيع العثور على ابنه .. فهو اما ساهر يتعبد ، واما مسافر يغزو فى سـبيل الله ..

او هو على حد تعبير الاب **« كثير التجوال والترحال والسفر ، اذا اقام بيننا اقام كانه غريب ، لا ياكل مما ناكل ، ولا ينام كما ننام ، ولا ياخذ فيما ناخذ،ونفسي تكاد تذهب من الرقة كلما رايته فى نحوله وعذابه .. »**

ويسوق الاب على ابنه بعض الزاهدين والصالحين والعلماء ليحذلوه ان يرفق بنفسه ، ويرد الابن على أبيه كانما يضرع اليه .

ـ يا أبت .. انما انا عبد اعمل فى فكاك رقبتى فدعنى أعمل فى فكاكها .
ويتركه الاب لشانه ..

وكان شانه يسيرا على نفسه .

كان لعمرو بن عتبة رغيفان كل يوم ، يتسحر بأحدهما ويفطر بالآخر واغناه عما للناس من اسرة وفرش وارائك ووسائد اغناه عن هذا كله حصير عتيق يريح عليه جسمه ساعة من الليل او بعض ساعة .

وكانت له عبارة يقولها عن صديقه معضد العجلى « **لولا ظلما الهواجر، وطول ليل الشتاء : ولذة التهجد بكتاب الله عز وجل ما باليت ان اكون عشبا** » .

وقال اصحابه « كنا اذا خرجنا للعدو لا نتحارس بالليل لكثرة صلاة عمرو وقيامه » .

وحدث عمرو عن نفسه فقال : «سالت الله ثلاثا فاعطانى اثنتين .. وانا انتظر الثالثة . سالته ان يزهدنى فى الدنيا ، فما ابالى الآن ما اقبل منها وما ادبر ، وسالته ان يقوينى على الصلاة فرزقنى منها وسالته الشهادة فانا ارجوها » .

خرج يوما على بعض رفاقه فى جبة جميلة وعباءة حسنة ، واشار بأصبعه لموضع فى الجبة وقال « **ما احسن ان ينحدر دمى على هذه الجبة ويجرى عليها هنا وهاهنا .** »

والمعروف فى العقيدة الاسلامية .. ان قلب المؤمن حين يدعو ، انما يدعو بصدى ما يحسه من قرب مقادير الله .. وسرائر المؤمنين فى الأرض هى المرآة التى يتراءى فيها ما يشاء الله ان يظهره من مقاديره الموشكة .. وحين يدعو المؤمن بأمله الحقيقى ، يكون القدر على قيد خطوتين منه وقد حضر بما يريده ..

خرج عمرو مع صحابته ، فاستقبلهم واد ضاحك مبتهج طلق الهواء لين النسمات وتحرك فى نفسه وجد هائم .. وقال « **ما احسن هذا**

الوادى .. ما احسن الآن لو ان مناديا نادى .. يا خيل الله اركبى » .

وما اسرع ان نادى المنادى : ياخيل الله اركبى ..

يعنى يا خيلا ستجاهد فى سبيل الله فليركب فرسانك ..

وعلم أبوه بركوبه فى سبيل الله .. وارسل وراءه من يستدميه ولم يصل اليه رسول أبيه الا بعد أن اصيب ..

كانت اصابة من الصعب ان تقتل .. اصابه جرح صغير فجعل يخاطبه :

« ـ والله انك لصغير .. وان يشا الله تعالى يبارك فى الصغير » .

. . . .

وجاء المساء يجرر اقدامه المحطمة ..

وبارك الله فى الجرح الصغير ..

مات عمرو بن عتبة .

تحدر الدم على عباءته فى نفس الموضع الذى تمناه .. رزقه الله الشهادة التى كان ينتظرها .

. . . .

كان بحر الخوف يلد شجاعة هائلة .

أليس هذا قانونا من قوانين الايمان . أليس للايمان قوانين تتحرك وتعمل عملها فى النفوس ..

ان الخوف العظيم من الله ، يخيف الخوف ذاته من المؤمنين بعد ذلك .. لا يعود المؤمن يخشى بعد الله احدا ..

ان توحيد الخوف يعنى ان تقصر خوفك على شيء واحد ..

هو « ان تغضب الله تعالى » .

ومن هذا التوحيد تولد الشجاعة .. شجاعة الشهداء .

وقد كان معظم العارفين بالله شهداء .

ولم يكن التصوف بمعناه المعقد قد بدأ فى الظهور ..

وقد استغرق ميلاده اكثر من مائتى سنة بعد هجرة الرسول .. يرى ابن خلدون فى مقدمته ان الاسم لم يكن معروفا فى الاسلام قبل القرن الثانى ، ويقول ابن تيمية فى رسالته « الصوفية والفقراء » .

« اما لفظ الصوفية ، فانه لم يكن مشهورا فى القرون الثلاثة ، وانما اشتهر التكلم به بعد ذلك . وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الائمة والشيوخ كالامام احمد بن حنبل وابي سليمان الداراني وغيرهما . وقد روى عن سفيان الثورى انه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصرى » .

. . . .

كانت احوال المجتمع الاسلامي مهياة تماما لنشوء التصوف حين نشأ ولهذا نشأ ..

تتباين آراء العلماء فى نشأة الزهد والتصوف ، يرى الدكتور المرحوم ابو العلا عفيفي ان العوامل التى ساعدت على نشأة الزهد فى الاسلام كانت اربعة ..

العامل الأول : هو تعاليم الاسلام نفسه ، فقد حث القرآن على الورع وهجر الدنيا وزخرفها ، ودعا الى العبادة والتبتل وقيام الليل والتهجد .

قال تعالى : « **واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا** » المزمل آية ٧

والعامل الثاني : فى نشأة الزهد فى الاسلام هو ثورة المسلمين الروحية ضد نظام اجتماعي وسياسي قائم ، ذلك ان المسلمين عندما اتسعت فتوحاتهم وكثرت غنائمهم اقبل الكثيرون منهم على الدنيا وجنحوا اليها ، وشجعهم على ذلك الثراء المفاجيء الذى أصابوه ، وكانت نتيجة ذلك ان قامت فى نفوس اتقيائهم ثورة داخلية محورها الصراع بين نفوس لا تزال على ايمانها القوى ، والدنيا المقبلة بمغرياتها ..

اما **العامل الثالث :** فقد كان الرهبنة المسيحية ، فكثيرا ما نقرأ عن زيارات العابدين من المسلمين للرهبان فى صوامعهم واخذهم عنهم بعض

تعاليمهم من ذلك ما روى عن ابراهيم بن أدهم انه قال « **تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان** » ..

اما **العامل الرابع** : فكان الثورة ضد الفقه وعلم الكلام .. فان أتقياء المسلمين لم يجدوا في فهم الفقهاء والمتكلمين للاسلام ما يشبع عاطفتهم الدينية فلجأوا الى التصوف لاشباع هذه العاطفة .

هذه هي العوامل الأربعة المسئولة في رأى الدكتور ابو العلا عفيفي عن نشوء الزهد في الاسلام ، ويفرق الباحث بين الزهد والتصوف رغم اتصالهما اتصالا وثيقا ، فيرى أن مصادر التصوف الاسلامي خمسة :

١ ـ القرآن والحديث ..

٢ ـ علم الكلام ..

٣ ـ الافلاطونية الحديثة ..

٤ ـ التصوف الهندى ..

٥ ـ المسيحية ..

وسوف نلاحظ من هذا النظر ان الدكتور عفيفي لم يذكر الشيعة كمصدر من مصادر التصوف .. ولا اشار اليهم كمصدر من مصادر الزهد ..

ولو رجعنا الى الدراسات التى قام بها المستشرق نيكولسون ، وهى دراسات ترجمها الدكتور عفيفي نفسه ، فسوف نجد المستشرق يتحدث عن أصل التصوف ونشأته الأولى وتطوره فيقول تحت عنوان الشريعة والطريقة والحقيقة :

« في القرآن عدد غير قليل من الآيات التى تدل على ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان على حظ من التصوف ، ولكن القرآن في جملته شانه في ذلك شان اسفار موسى الخمسة ـ لا يصلح ان يتخذ اساسا لأى مذهب صوفي ، ومع ذلك استطاع الصوفية ، متبعين في ذلك الشيعة ، ان يبرهنوا بطريقة تاويل نصوص الكتاب والسنة تاويلات يلائم اغراضهم ، على ان كل آية ، بل كل كلمة في القرآن تخفى وراءها معنى باطنا لا يكشفه

الله الا للخاصة من عباده الذين تشرق هذه المعانى فى قلوبهم فى أوقات وجدهم ، ومن هنا نستطيع ان نتصور كيف سهل على الصوفية بعد ان سلموا بهذا المبدا ، ان يجدوا دليلا من القرآن لكل قول من اقوالهم ونظرية من نظرياتهم ايا كانت ، وان يقولوا ان التصوف ليس فى الحقيقة الا العلم الباطن الذى ورثه على بن ابى طالب عن النبى ، ويلزم من هذا المبدا ايضا ، مبدا التاويل ، ان تاويل الصوفية لتعاليم الاسلام قد ياتى على انحاء واشكال لا حصر لها ولا لعددها .. وربما ادى الى تناقض فى العبادات والمسائل العملية ، وكل ذلك مفروض صدقه فى النوع لا فى الدرجة ، لان معانى القرآن لا حصر لها ، وهي تنكشف لكل صوفى بحسب ما منحه الله من الاستعداد الروحي » ..

هذا نص كلمات رينولد نيكولسون فى كتابه « التصوف الاسلامي وتاريخه » ولقد كان مدهشا اشارته الى التصوف كعلم باطن ورثه على بن أبى طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

كان مدهشا أيضا أن يمر الدكتور أبو العلا عفيفي على هذه العبارة مرور الكرام فلا يتحدث عن على بن أبى طالب أو الشيعة فى حديثه عن مصادر التصوف ..

على أن ما لم يحققه الاستاذ قد حققه واحد من تلاميذه فيما بعد ، هو الدكتور كامل مصطفى الشيبى ، فقد تقدم برسالته لنيل درجة الماجستير فى الاداب تحت اشراف الدكتور أبو العلا عفيفي ، وكان موضوع الرسالة هو « الصلة بين التصوف والتشيع » ونالت الرسالة الدرجة العلمية ، وطبعت فى كتاب لم نظر الباحث فيما كتب وعاد يسد الثغرات ؛ ثم عاد يعيد النظر بالزيادة والنقص فاخرج لنا كتابه الذى استغرق ١٤ عاما حتى ظهر بشكله النهائى ..

والكتاب بالغ الاهمية رغم أن الدكتور كامل الشيبى لا يعتبره مرضيا لغروره ، وترجع اهمية الكتاب لكونه يدرس موضوعا صعبا ، وينتهى فيه الباحث لآراء هدفها هو الامانة العلمية والرغبة المخلصة فى اكتشاف الحقيقة .

ولعل الجديد فى الكتاب ، الى جوار ما فيه من جهد علمي مخلص ،

انه استعان بعدد من مراجع الشيعة أنفسهم ، فلم يكن ممكنا له وهو يدرس هذا الموضوع ان يتجاهل مؤلفات الشيعة ..

وفى بداية الكتاب يعترف المؤلف بصعوبة البحث ، فيقول ان موضوع الكتاب يدور حول الصلة بين التصوف والتشيع ، وليس من السهل تبين هذه الصلة بين العالمين ، لأن امورا قد جدت على كل منهما منذ بدأ فى الاسلام حتى صار كل منهما مستقلا مستغنيا من الآخر ..

ومن الغريب أنه قد ظهر فى الحياة الاسلامية ثلاثة اتجاهات ما تزال ثابتة ظاهرة للعيان ، فقد نجد ناحية من العالم الاسلامي تسودها مذاهب أهل السنة ، ونجد مكانا آخر تسوده مذاهب الشيعة ، ونلمح مناطق ثالثة يغلب عليها التصوف مختلطا باحدى هاتين المجموعتين من المذاهب ، ومن الملاحظ (لم يزل النص للدكتور كامل الشيبى) أن المسلم يستطيع الاستغناء عن مذاهب أهل السنة اذا كان شيعيا ، وعن مذاهب الشيعة اذا كان سنيا .. ويستطيع كل من السني والشيعى ، أن يحيا حياة اسلامية دون أن يتصل ذهنه بالتصوف ونظرياته وعملياته ، غير أن المتصوف لا يستطيع الاستغناء عن أحد هذين الاتجاهين الاسلاميين .. فلا بد أن تتصل الطرق الصوفية باتجاه من هذين الاتجاهين ، فمن المعروف أن النقشبندية مثلا من الطرق الصوفية السنية ، والبكتاشية من الطرق الشيعية ، فتدخل الأولى فى فرق أهل السنة ، والثانية فى فرق الشيعة .

وقد بين كثير من الباحثين القدماء اتصال المتصوفة باتجاه أهل السنة والجماعة ، وهو الاتجاه الوحيد الذى نعترف له بالصحة فى الاسلام ، وقال القشيرى فى رسالته التي وجهها للمتصوفة سنة ٤٣٠ هجرية .

« اعلموا ـ رحمكم الله ـ ان شيوخ هذه الطائفة ـ يقصد الصوفية ـ قد بنوا قواعد امرهم على اصول صحيحة فى التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف واهل السنة من توحيد » .

وكان الجنيد يقول .. **« مذهبنا مقيد باصول الكتاب والسنة »** ..

ورغم ان معظم العلماء يرون ان التصوف كان ثمرة اسلاميه لها اللون السنى دون الشيعى . الا ان احدا لم يلتفت الى علاقه التصوف فى بدئه بالتشيع .. وهذا ما دفع الدكتور كامل مصطفى الى دراسة هذا الموضوع فى كتابه ..

وسوف نعرض لوجهة نظره ثم نقول رأينا فيها بعد ذلك ..

الشيعة فى راى ابى الحسن الاشعرى هم الذين شايعوا عليا رضى الله تعالى عنه ، وقدموه على سائر الصحابة .

وقد ذكر ابن حزم ذلك فى وضوح وراى ان « **من وافق الشيعة فى ان عليا رضى الله عنه ـ افضل الناس بعد رسول الله فهو شيعى وان خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون ، فان خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا** » ..

وابن حزم متعصب على الشيعة ـ كما هو معروف ـ ولكنه هنا يحدد ويجمع ويمنع ، فرأيه هنا شهادة باحث .

. . . .

هذا راى الشيعة كما يورده الدكتور الشيبى ، وهو راى يملأ المسلم بالحزن ، لان المفاضلة بين الصحابة والغلو فى احدهم امر جر على المسلمين عديدا من الفتن والمحن ، وكان سببا فى انقسام المسلمين ، ودينهم دين توحيد لله وتجميع لعباده ..

ليس هناك مسلم سنى ينكر فضل على بن ابى طالب .. ومن ينكر فضل احد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اثم اثما عظيما . لكن عدم انكار الفضل لا يعنى الغلو ، ولا يعنى اسباغ صفات القداسة على احد من المسلمين ، ان عظمة الدين الاسلامى تتمثل فى انه دين توحيد يعرف حق الله عز وجل على عباده ، ولا يجعل لرسوله صلى الله عليه وسلم رغم انه رحمة للعالمين بنص الآيات .. لا يجعل له اى نوع من انواع القداسة ، انما هو رغم فضله البشرى انسان يمشى فى الأسواق وياكل الطعام ويجوع ويعطش ويمرض ويصح ويحيا ويموت .. شأنه شان البشر فى اى مكان وزمان ..

ان نصاعة التوحيد الاسلامي وبشرية الرسول صلى الله عليه وسلم آيتان من آيات الدين الاسلامي الحنيف ..
وهما آيتان يصمت بعدهما كل حديث او اجتهاد .

. . . .

مهما يكن من أمر ..

لم يكن الواقع في ظروف الفتنة الأولى مناخا هادئا للتفكير ، وكانت الاحداث والدماء تسدل ستارة على الهدوء العقلي والوجداني اللازم لادراك الامور .. ومن هنا تحول على بن ابي طالب كرم الله وجهه فصار دون أن يعرف أو يقصد أو يريد ــ فتنة كبيرة افتتن به الشيعة ، وغالوا فيه غلوا كبيرا ..

ويلفت الدكتور كامل مصطفى الشيبي الاذهان الى حقيقة قد تكون خافية وهو يبدأ بحثه في الكتاب عن الامام علي .

ذلك أن الامام عليا شخص له جانبان . جانب تاريخي يعرفه الناس وتتعرض له الكتب العامة .. وجانب روحي دخلت فيه اضافات قد تكون اسطورية ، ويبدو هذا الجانب عند الشيعة أولا ثم عند المتصوفة بعد ذلك ..

ويسمى الدكتور الجانب الأول بالجانب العام . والثاني بالجانب الخاص .

أما الجانب العام فمعروف خلاصته أن الامام على بن أبي طالب ولد بعد النبي بثلاثين سنة .. واسلم وعمره عشر سنين في اليوم الثاني لبعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعد خديجة رضي الله تعالى عنها مباشرة ، وانه لم يعبد الأصنام قط لصغره وانه كان اقرب الناس الى الرسول صلى الله عليه وسلم .. وكان ربيبه وكان خليفتــه على ودائعــه وكان صاحب لوائه وكان خليفته في اهله ، وكانت منزلته منه بمنزلة هارون من موسى بنص الحديث عن النبي نفسه ..

ومن المعروف أن النبي آخى بينه وبين علي .. وقال فيه من كنت مولاه فعلي مولاه .. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وقد رأى الشيعه فى هذا الحديث ترشيحا له لتولى الأمر بعد النبى صلى الله عليه وسلم .. ولكن بقيسة المسلمين لم يوافقوهم على ذلك مستندين الى حديث آخر ألقاه النبى فى آخر لحظة من حياته ..

من المعروف أو المشهور ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى على « **انا مدينة العلم وعلى بابها** » ..

ايضا يروى عن على انه كان مغاليا فى الزهد والعدل ، الى حد انه قسم رغيفا سبعة اسهم ، وروى أبو طالب المكى انه كان ازهد الصحابة .. وانه لم يترك صفراء ولا بيضاء الا سبعمائة درهم بقيت من عطائه اراد أن يشترى بها شيئا لاهله .

هذه هى الجوانب العامه المعروفه عن على بن ابى طالب ..

اما الجانب الخاص الذى عنى به الدكتور بالمثل العليا والأوصاف والجوانب الروحية التى اضافها اليه الشيعة اولا ، ثم المتصوفة بعد ذلك حين جعلوا عليا مرجعهم وراسهم فى التصوف والزهد ..

ويرى الشيعة فى على ما يراه المسلمون فيه ، ولكنهم يضيفون اليه اشياء تميزه عن زملائه من الصحابه ..

يرى الشيعة انه لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة احد ، ولا يسوى بهم أحد ..

وفى التفسير المنسوب الى الامام الحادى عشر للشيعه يقول « **ان الله لما خلق آدم وسواه وعلمه اسماء كل شىء وعرض على الملائكة جعل محمدا وعليا وفاطمة والحسن والحسين اشباحا خمسة فى ظهر آدم وكانت انوارهم تضىء فى الافاق . الى آخره** » .

وينسب الشيعة الى على بن ابى طالب قولهم « انا آدم وانا نوح وانا موسى وانا عيسى انتقل فى الصور كيف اشاء من رآنى فقد رآهم » .

وتلك صوره تذكرنا بمقالة الحلاج المشهورة ..

فـــاذا ابصرتنى ابصرته　　　واذا ابصرته ابصرتنـــا

ويلاحظ الباحث كيف تلقف المتصوفة أمثال هذه النصوص واخذوا

افكار الغلاة وجعلوها مستند طريقتهم ومثالا للنسج على منواله ..

وقد وردت عن على بن أبى طالب ألوان من الحوار نسبها اليه كميل ابن زياد الزاهد الشيعى المشهور (المقتول سنة ٨٣) ..

قال على : الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير اشارة .

قال كميل زدنى بيانا ..

قال على : محو الموهوم وصحو المعلوم .

قال كميل زدنى بيانا ..

قال على : هتك الستر لغلبة السر .

قال كميل زدنى بيانا ..

قال على :نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره.

قال كميل زدنى بيانا ..

قال على : اطفئوا السراج فقد طلع الصبح ..

ويلاحظ الباحث امتلاء هذا الحديث بمصطلحات صوفية تجعل اختراع الحديث أمرا مؤكدا .

. . . .

أيضا نسب الى على بن أبى طالب قول يوضح منهجه فى المعرفة .

قال : « **العقل لمراسم العبودية لا لادراك سر الربوبية ..** »

وهذا الحديث يعنى ان عليا يرى ان الذوق هو المنهج الذى يصل به الانسان الى الحقيقة الالهية ، اما العقل فهو الذى يستعمل فى ادراك الحلال والحرام وفهم العبادات وما جرى مجراها ..

أيضا روى عن على بن أبى طالب انه قال « **سلونى قبل ان تفقدونى فانا بطريق السماء اعلم منى بطرق الأرض** » .

أيضا روى عنه انه قال « **ان امرنا صعب مستصعب لا يحمله الا عبد امتحن الله قلبه للايمان ، ولا يعى حديثنا الا صدور امينة واحلام رزينة** ».

. . . .

لو نحينا جانبا ما نسب الى على بن ابى طالب .. ونظرنا الى شخصيته فسوف نرى أنه عاصر الفتره التى تحول فيها الاسلام من فكرة مثالية الى صراع عمل سياسى . وقد وجد على بن أبى طالب نفسه مطالبا بأن يسدد الخطا وأن يدل على الحق ويخوف من المزالق . وأن يقف وقفته الصلبة مدافعا عن الاسلام ..

ودفع دمه ثمنا لاسلامه وتقواه ..

وصار دمه بحرا تشرب منه أنهار الصوفية ..

يلاحظ كتاب « الصلة بين التصوف والتشيع » أن كلام على بن أبى طالب يتداخل مع كلام أسلاف المتصوفه من الزهاد . وانه يتداخل مع كلام الصوفية أنفسهم ..

* وأول نص يورده فى هذا المقام ما قاله عامر بن عبد قيس الزاهد البصرى (المتوفى فى خلافة معاوية) فقد قال هذا الزاهد : **لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا .**

وتلك عبارة وردت مسندة الى على بن أبى طالب .. وهى مأخوذة من الآية التى تقول « **لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد** » .

* سمع سعيد بن جبير الزاهد المحدث ، قتل بأمر الحجاج سنة ٩٤ هجرية ، يقول لجماعة فى أعلى المسجد ليلا : **سلونى قبل ان لا ترونى ..**

وفى ذلك تكرار لعبارة على المشهورة « **سلونى قبل ان تفقدونى** » .

أيضا نسب لسفيان الثورى مقالة تشبه هذه المقالة .. أيضا نسب نفس القول الى جعفر الصادق .

* اما الحسن البصرى فقد قال معاصروه فى كلامه أنه مأخوذ لفظا ومعنى أو معنى دون لفظ من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ..

* روى عن سفيان الثورى (المتوفى سنة ١٦١ هجرية) وهو شيخ الزهاد فى الكوفه انه قال : **الزهد فى الدنيا قصر الامل ، وليس بأكل**

الغليظ ولا يلبس العباء » ، وذلك متصـــل بقـول على بن أبى طالب ان اخوف ما اخاف اتباع الهوى وطول الامل .

* وروى عن عبد الواحد بن زيد قوله : مثل المؤمن كالولد فى الرحم لا يحب الخروج ، فاذا خرج لا يحب ان يرجع ، فكذلك المؤمن فى الدنيا .

وذلك تعبير ضعيف عن قول على بن ابى طالب « واعلموا انه ما من شيء الا ويكاد صاحبه أن يشبع منه ويمله الا الحياة » .

* وترد لرابعة العدوية (المتوفاة سنة ١٨٠ هجرية) عبارة قالتها « ما عبدته خوفا من ناره ولا طمعا فى جنتـــه فاكون كالأجير الســـوء .. عبدته حبا له وشوقا اليه » ..

وقد وردت هذه المعانى فى عبـــارة على بن أبى طالب (وهى عبارة تنسب الى حفيده ابن الحسين على زين العابدين) ..

قال على : ان قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وان قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد . وان قوما عبـــدوا الله شـــكرا فتلك عبادة الاحرار » ..

* كان مالك بن دينار الزاهد البصرى (المتوفى سنة ١٨١ هجرية) يقول فى كلامه كثيرا من المعانى التى استمدها من على بن ابى طالب .. فقد قال لوالى البصرة وهو يقف وسط جنوده وابهته حين ساله : الا تعرفنى ؟ ..

قال مالك من أعرف بك منى . أما أولك فنطفة مذرة ، وأما آخرك نجيفة قذرة . وهذا الكلام يتصـــل بما قاله على بن ابى طالب « ما لابن آدم والفخر واوله نطفة وآخره جيفة » .

وكان عتبة الغلام ينظر الى قول على المشهور للدنيا « قـــد هجرتك ثلاثا ولا رجعـــة لى فيك » حين قال فى خطابه لحـــورية تخيلها « طلقت الدنيا ثلاثا ولا رجعةلى فيها حتى القاه » ..

وقال شقيق البلخى (المتوفى سنة ١٩٤ هجرية) اذا كان العـــالم طامعا وللمال جامعا فبمن يقتـــدى الجاهـــل ؟ واذا كان الفقير المشـــهور

بالفقر راغبا فى الدنيا والتنعم بها فبمن يقتدى الراغب حتى يخرج من رغبته ؟ واذا كان الراعى هو الذئب فمن يرعى الغنم ؟ ..

وهذه العبارة الطويلة التى تضرب الامثال على أهمية الزهد وكونه قدوة ، هذه العبارة لخصت فى قول اسند الى على بن أبى طالب **« ان الله اخذ على ائمة الهدى ان يكونوا فى مثل ادنى الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره » ..**

. . . .

يلاحظ كتاب الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل مصطفى الشيبى ان التداخل لم يقتصر على ما اخذه الزهاد من اقوال على ـ وانما تعداه الى بناة التصوف ومؤسسيه ايضا ..

لقد شرب كثير من الصوفية من بحسر الامام على بن ابى طالب ، ووضعوا كثيرا من كلامه أو (بتحديد ادق) وضعوا كثيرا مما نسب اليه من كلام فى عبارات جديدة من تأليفهم ، وكان مستواهم فى البلاغة والفن اقل كثيرا من مستوى الامام على ، فقد كانت عباراتهم اطول واقل حساسية ، وكان على بن ابى طالب مشهورا بالصمت ، فاذا تكلم أوجز الحكمة فيما يقول .

حين تولى الاشتر النخعى مصر عهد اليه على بن أبى طالب عهده المشهور الذى قال فيه « اذا احدث لك ، ما انت فيه من سلطانك ابهة او مخيلة (**يعنى اذا اغتررت وملاك الغرور**) فانظر الى عظمه ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فان ذلك يطامن من طماحك (يقلل من غرورك ويكف عنك غربك (يحول بين الغرور وبينك) ويفىء اليك بما عزب عنك من عقلك (يرجع اليك بما ذهب من عقلك) .

نفس هذه الفكرة تداولها الصوفية .. فها هو ذو النون المصرى (المتوفى سنة ٢٤٥ هجرية) يقول **« من اراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تذوب وتصفو ، ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، لان النفوس كلها فقيرة عند هيبته »** .

ونريد ان نلفت انتباه القارىء الى أن فكرة على بن أبي طالب بالدعوة الى التواضع هي احدى الافكار الاساسية للصوفية ، ولقد تناول الصوفية فكرة ضالة الانسان امام الله وجعلوا منها جوهرا اساسيا من جواهر افكارهم ..

فالصوفي من لا يرى لنفسه مكانة ولا مقاما ولا وجودا أمام الله ، وشيوخ التصوف السني كالجنيد يريدون من الصوفي أن يذهب ويضيع ويتلاشي ويعود الى الصفاء الذى كان عليه قبل ان يخلقه خالقه ، حين كان ذرة في عالم الذر ..

والتصوف بمعنى تصفية القلب لله ينطوى على العبودية لله ، ومعنى العبودية أن يسجد العبد لله هذا السجود المزدوج ، مرة بجسده ومرة بجماع روحه .

بل ان تواضع الصوفية يجعل هدف تجاربهم الروحية هو الفناء في خالقهم . وهكذا أثر على في الصوفية ..

فهم أحيانا ينقلون عنه نص معانيه بعد وضعها في أساليب جديدة ، واحيانا ياخذون افكاره الاساسية ويبنون عليها ابنية جديدة .

قال ذو النون المصرى « **ان الله تعالى انطق اللسان وامتحنه بالكلام وجعل القلوب اوعية للعلم** » .

وقال على بن ابى طالب **القلوب اوعية فخيرها اوعاها ..**

هذه الفكرة التي تتضمن أن القلب وعاء . جعل منها الصوفية مدارا من مدارات أفكارهم .. وها هم يقولون « سبحان من جعل قلوب العارفين اوعية للذكر وجعل قلوب الزاهدين اوعية للتوكل ، وقلوب المتوكلين أوعية للرضا . وقلوب الفقراء اوعية للقناعة وقلوب أهل الدنيا أوعية للطمع » .

واذا كان على بن ابي طالب قد ألمح بهجرانه للدنيا ، فهاهم الصوفية يصرحون بانهم قد طلقوا الدنيا ثلاثا وهجروها هجرانا بلا عودة . ومثلما كان على بن ابي طالب يقسم الناس الى ثلاثة اصناف من حيث عملهم فيقول « **الناس ثلاثة فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق** » ..

فكذلك يفعل الصوفية ، وها هو ذو النون يقسم المعرفة الى ثلاثة اقسام « الأولى خط مشترك بين عامة المسلمين ، والثانية معرفة خاصة بالحكماء والعلماء ، والثالثة خاصة بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم » .

وقد بلغ ولع الصوفية بعلى بن ابى طالب مبلغا عظيما ، فنسبوا اليه اقوالا لم يقلها مثل « الصوفى من لبس الصوف على الصفا واطعم الهوى طعم الجفا ، وكانت الدنيا منه على القفا واستوى عنده الذهب والحجر ، والا فالكلب الكوفى خير من الف صوفى » .

ومن الواضح ان العبارة منحولة لأن لغة على بن ابى طالب لا تسمح له باستخدام هذا التعبير المتأخر « كانت الدنيا منه على القفا » .

ولم يتوقف ولع الصوفية به عند حد ..

اخذوا منه .. وزادوا فيما اخذوه منه .. ونسبوا اليه .. وقالوا فيه كلام حب عظيم ، ونسبوا علمه الى علم يشبه العلم اللدنى او علم الاسرار ..

يصفه أبو نعيم فى الحلية فيقول :

« سيد القوم . محبوب المعبود .

باب مدينة العلم والعلوم ، وراس المخاطبات ومستنبط الاشارات . نور المطيعين وراية المهتدين ، وولى المتقين وامام العادلين وزينة العارفين ، المنبىء عن حقائق التوحيد المشير الى لوامع علم التفريد .. الى آخره » .

وهذه الاشارة الى التوحيد والتفريد تعنى علم الصوفية المخصوص .

يقول أبو طالب المكى « وكان عند أهل العلم ان علمهم (يقصد الصوفية) مخصوص لا يصلح الا للخصوص » .

ويرى السراج فى شرحه لتقسيم على بن أبى طالب للعلوم بعد ان تبنى هو الآخر تقسيما ثلاثيا للعلوم ..

يرى السراج ان أول العلوم علم بين للخاصة والعامة وهو علم الحدود

والأمر والنهي وعلم خص به قوم من الصحابة دون غيرهم وهو العلم الذى كان يعلم به حذيفة بن اليمان .. وعلم خص به رسول الله لم يشاركه فيه احد . وقد وضع السراج عليا فى المنزلة التى كانت لحذيفة .. بل انه وضعه بعد الرسول مباشرة لأن الرسول علمه سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك احدا غيره ..

ويسند الصوفيه الى على بن أبى طالب قوله « ما من آية الا ولها اربعة معان ظاهر وباطن وحد ومطلع . فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد أحكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله تعالى من العبد بها » .

ويرى الامام الجنيد ان الامام عليا قد أعطى العلم اللدنى . ويروى عن الجنيد انه قال : « رضوان الله على أمير المؤمنين ، لولا انه اشتغل بالحروب لافادنا من علمنا هذا معان كثيرة » ثم يقارن الجنيد بين على والخضر ويجعلهما بمنزلة واحدة ويبين أن هذا العلم اللدنى حظى به الخضر بقول الله « وعلمناه من لدنا علما » .. ، وبهذه الرؤية كان الجنيد يعتقد ان علم على بن أبى طالب لم يأته تعلما ، وانما هو توفيق الهى حظى به .. ويأسف الجنيد لأن عليا اشتغل بالحروب ، ولولا هذا لاستفاد منه الصوفية وتعلموا الاسرار التى عرفها ..

وبنبهنا نيكلسون الى أن التصوف ليس فى الحقيقة الا العلم الباطن الذى ورثه علي بن أبي طالب عن النبى ..

ويرى ابن الفارض نفس الرأى ، فهو يقول فى تائيته الكبرى :

واوضح بالتاويل ما كان مشكلا   على بعلم ناله بالوصية

اما ابن عربى فهو يفسر النبأ العظيم فى قوله تعالى **« عم يتساءلون عن النبأ العظيم »** بان النبأ العظيم هو القيامة الكبرى ولذلك قيل فى أمير المؤمنين على هو النبأ العظيم والفلك نوح « اى الجمع والتفصيل ــ باعتبار الحقيقة والشريعة لكونه جامعا لهما » .

اما جلال الدين الرومى فيقول فى على بن ابى طالب

منذ كانت صورة تركيب العالم كان على ..

منذ نقشت الأرض وكان الزمان كان على ..

الفاتح الذى انتزع باب خيبر بحملة واحدة كان على ..

من كان هو الوجود ولولاه لسرى العدم فى الموجود اياه كان على ..

ان سر العالمين الظاهر والباطن الذى بدا فى شمس تبريز .. اياه كان على ..

وكلما تقدم الزمن ، كان على بن ابى طالب يتحول الى اسطورة عند الصوفية ..

لقد وصلوا الى القول بأن على بن ابى طالب لم يمت ، وانما رفع الى السماء كما رفع عيسى بن مريم وسينزل كما نزل عيسى .

وهذا نص يرويه الشعرانى عن ولى يحمل اسم على وفا ..

ووجدنا بعد القرن السادس والسابع صوفية يزيد من مقامهم أنهم علويون كعبد القادر الجيلي والسيد احمد الرفاعي والسيد أحمد البدوي وأبو الحسن الشاذلي وابراهيم الدسوقي وعبد الوهاب الشعراني واستاذ الشعراني الشيخ على الخواص وابن قضيب البان الموصلى وغيرهم كثير ..

ولقد كان قتل على بن ابى طالب سنة ٤٠ هجرية ، وكان استشهاده رائعا ، فصار موته كحياته مرتين ، موتا طبيعيا عاما وموتا اسطوريا خاصا ، مثلما كان علمه علما طبيعيا عاما وعلما سريا خاصا « وقيلت فى موته اساطير كثيرة » ..

قيل انه حمل فى تابوت على جمل فضل الجمل طريقه ..

ويذكر ابن حجر عن ابن عساكر انه قال : « لما قتل حملوه ليدفنوه مع رسول الله ، فبينما هم فى مسيرهم ليلا اذ ند (تاه) الجمل الذى هو عليه فلم يدر اين ذهب ولم يقدر عليه ، ولذلك يقول اهل العراق هو فى السحاب ، وقال غيرهم انه وقع فى بلاد طيء فاخذوه ودفنوه » وأنكر الكتاشبة هذا كله ، فهم شيعة وصوفية معا ، ولذلك قالوا انه بعث من جديد « وظهر ملثما على جمل وقاد جنازته بنفسه الى مدفنها » ..

وبهذه النهاية الفنية المسرحية ، بضع الصوفية على بن أبى طالب سندا لهم جميعا .

يرى الدكتور كامل الشيبى ان عليا دخل التصوف حتى صار اساسا من اسسه لا يماري فيه احد ، حتى ان ابن خلدون يعول فى معرض تناوله تأثير الشيعه على التصوف أن الصوفية يلبسون الخرقة ، لان عليا رضى الله عنه البس الخرقة للحسن البصرى واخذ عليه عهدا بالتزام الطريقة ..

. . . .

ما هى مسئولية على بن ابى طالب عن هذا كله ..

ما هى حقيقة نسبه للصوفية والتصوف ..

هل كان على بن ابى طالب عالما بالاسرار قد اوتى من العلم اللدنى كما اوتى العبد الذى يتحدث عنه الله تعالى فى قصة موسى والسفينة والغلام والجدار .. ؟

هذه كلها اسئلة هامة .

نعتقد — وهذا رأينا الخاص — ان على بن ابى طالب لم يكن مسئولا عن دخوله عالم الصوفية والتصوف ..

فلم يؤثر عنه بسند معقول ما يؤدى الى القول بأنه كان يرى فى نفسه امتيازا خاصا أو علما خاصا أوتيه من لدن الله ..

لم يكن لمدلول الصوفيه والتصوف معنى فى ذهنه « لان التعبيرين نشآ بعد استشهاده بفترة » ..

لم يكن على بن ابى طالب رضى الله عنه كثير الكلام « انما كان دائم الصمت فان نطق طاوعته الحكمة » ..

لم يكن يعتقد ان قرابته من النبى تجعل له وضعا خاصا فى الاسلام ، وانما كان يعرف ان الفضل فى الاسلام للتقوى **« ان اكرمكم عند الله اتقاكم»** وكان رجلا تقيا بحق ..

وحين تقدم على بن ابى طالب لحكم المسلمين لم يكن يتقدم لانه قريب الرسول أو من آل البيت ، وانما تقدم لانه رأى فى نفسه القدرة والفضل

لحكم المسلمين .. وكان قادرا وفاضلا ..

نريد ان نقول ان على بن أبى طالب ليس مسئولا عن الغالين فيه او المنتسبين اليه أو الآخذين منه .. تماما مثلما كان عيسى ابن مريم عليه السلام بريئا ممن نسبوه الى الله بالبنوة او الثالوث او اى اسلوب .

والاسلام دين واضح .. ومن يعرف الاسرار عمد الى الصمت ، وهذا شرط ورد فى القرآن الكريم عن العبد الصالح الذى يعتقد العلماء انه الخضر ..

من يعرف لزمه الصمت ..

ولقد كان على بن أبى طالب عارفا . ولهذا لم يتحدث عن علم الاسرار « انما ضرب للمسلمين بسلوكه نموذجا راقيا لما ينبغى أن تكون عليه حياة المسلم » ..

وهو نموذج سرعان ما تناسى الناس وضوحه ، وان أفاضوا فى الحديث عما صمت هو عنه أو دثره بالكتمان ..

ان طبيعة السر فى الاسلام أنه سر .. لا ينكشف الا لافراد .. وعليهم بالصمت ، وبذلك يبقى للسر معناه ..

نحن نسلم جدلا بأن على بن أبى طالب كان يعرف كثيرا من الاسرار ، ولكن كيف نناقش ما صمت هو عنه . اليس الافضل أن ننظر فى حياته لنرى كيف عاشها ..

كانت حياة على بن أبى طالب باختصار .. محاولة رائعة لصب الاسلام فى القالب الذى اراده له الله والرسول ..

لقد أعطى حياته للاسلام والمسلمين ، وتكبر على الدنيا بجاهها ومالها، ورفض أن ينزل عن مبادىء الاسلام وهو يدخل صراعه الذى دخله « وبسبب نقائه ومثاليته هزم فى الصراع .. وكانت هزيمته نصرا هائلا للاسلام ، فقد كان مع الحق وكان الناس يعرفون انه على الحق ، وكان استشهاده من اجل هذا الحق اعلاء سافرا لعلم الحق واعلامه ..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم احب الخلق عنده ، والدليل على ذلك ان عليا سمى ابناءه بعد الحسن والحسين باحب الاسماء اليه .. محمد .. ثم العباس ثم ابا بكر ثم عمر ..

وفى الوقت الذى كان الاسلام فيه ينتشر وكان الصراع على اشده حول الحكم ، كان على بن ابى طالب يقوم بالقاء محاضرات اسبوعية فى مسجد الكوفة لتوجيه الشباب الى حقيقة الاسلام ، وكان هذا يحدث مع ابن عمه عبد الله بن عباس .. وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية التى ترعرعت وازدهرت بعد ذلك فى بغداد عاصمة العباسيين ..

ولقد كان فى موت على بن ابى طالب شيئا يثير الانتباه .. ومن المدهش ان هذا الشىء لم يزل موجودا ..

كان على بن ابى طالب يعرف حين خرج انه خارج ليقتل ، كان يتوقع هذه النتيجة ، او كان يراها بقلبه ، ورغم ذلك ، وربما ذلك ، وربما بسبب ذلك خرج ..

لقد ادرك على بن ابى طالب ان الاسلام الذى يمثله معاوية هو القشرة الاسلامية مع لب الكسروية والقيصرية ، قشرة اسلامية وجوهر رئاسى لا يعبأ بشىء سوى الرئاسة ..

وحين وقف ضد هذا كان يدرك انه سيقتل .. وقد أدان على بدمه هذا النظام الى الأبد .. ونبه المسلمين فى ذات الوقت الى اهمية الجوهر .. وكان موته فى حد ذاته كافيا لاعلان الحقيقة ..

لم يكن موته عاديا ..

كان كل شىء يجابهه يهدده بسحق طموحه ، ولم يكن طموحه شخصيا انما كان اسلاميا ، وادرك انه يجب أن يحدق فى الخوف دون خوف . وسار شجاعا الى مقتله ..

ولقد ادرك على بن ابى طالب هذه الصفة الخاصة التى تثبت للشهداء، وهذه الطبيعة الخاصة التى يخلعها التاريخ على التضحية بالذات .. ولهذا خرج ولهذا استشهد ..

اراد بموته ان يحمي مبادئه ويزيد من جمع الناس حولها ، واراد باستشهاده ان يعرف الناس ان الاسلام يستحق ان يموت من أجله امثال على بن أبي طالب وقد وعى المسلمون الدرس بعده ..

وبسبب عنفه في الحق وحبه للاسلام .. غالي فيه الناس ونسبوا اليه ما لم يقله وتوسعوا في ذلك ..

هذه هي مسئولية على عن التصوف ، وهذه نسبته الى الصوفية .. لقد صنع دون ان يقصد مثالا اسطوريا بالغ السمو .. كان فتوة في حرية .. والفتوة تعبير يستدعي معاني القوة القادرة ، واكتشف الناس فتوته ، وصار تعبير الفتوة من تعبيرات الصوفية .

جاء في المنشور الذي أصدره الخليفة العباسي الناصر لدين الله حين اصدر الفتوة وجعل نفسه رأسها « بسم الله الرحمن الرحيم .. من المعلوم الذي لا يتمارى في صحته ولا يرتاب في براهينه ان أمير المؤمنين كرم الله وجهه هو أصل الفتوة ومنبعها ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها ، وعنه تروى محاسنها وأدبها ، ومنه تشعبت قبائلها واحزابها ، واليه دون غيره ينشب الفتيان ، وعلى منوال مؤاخاته النبوية الشريفة نسج الرفقاء والاخوان » ..

ومن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اخى بينه وبين على بن ابي طالب ..

ويبقى سؤال ..

هل كان على بن ابي طالب عالما بالأسرار قد اوتي من العلم اللدني كما اوتي الخضر ..

هذا سؤال نجهل الاجابة عليه بصراحة ..

لم يرد عن على ما يشير صراحة الى انه قد أوتي من علم الأسرار اذا جاز ان يكون للاسرار علم .. اذ مفاد الاسرار ومعناها أن تظل خافية ..

لم يرد عن على ما يشير صراحة الى انه أوتي من لدن الله علما ..

ربما كان الرسول يؤثره ببعض أسرار النبوة .. هذا محتمل وقائم، وربما كان الله يقذف فى قلب على بالعلم . هذا محتمل وقائم ، ولكن هذا كله لا دليل عليه سوى الصمت ، ومن ثم تصعب الاجابة على السؤال، ولعلى أميل الى ترجيح الظن بانه أوتى من هذا العلم الالهى .. لانه صمت تماما ولم يتحدث عنه ..

وتبقى اجابة السؤال مستعصيه ..

لا نعرف ..

كل ما نعرفه انه كان بحرا عظيما من البحار التى سقاها محيط النبوة.. ومن البحار تولد السحب والأنهار والبحار مرة اخرى .

على طريق الحياة ..

تمضى أعظم الشخصيات الانسانية وهى لا ترتدى سوى عباءة الفكر ، ولا تحمل فى يدها سوى شموع الحقيقة ..

وينسدل الظلام فتتحرك الأيدى الآثمة بالخناجر المسمومة وتضرب .. وتسقط الشمعة من يد حاملها ..

ويسيل الدم .. ويخطو أحد الشهداء خطواته الاخيرة من دنيا الباطل الى عالم الحق ..

هذه المأساة الانسانية تتكرر فى حياة النوع البشرى كثيرا ، منذ ان خلق الله تعالى آدم ، الى ان يرث الله الأرض ومن عليها ..

لم يسلم الأنبياء وكبار العارفين منها .

ولقد كان عيسى عليه السلام موشكا على القتل لولا أن رفعه الله تعالى اليه . ومن المدهش ان الناس تشترك سواء بالصمت أو خضوعا للمصالح الشخصية فى جرائم اغتيال هذه القمم الانسانية ، فاذا سقطت احدى هذه القمم ، بدأت انهار البكاء .. وبدأ الحزن المرير .. وبدأ تمزيق الوجوه والصدور ، وراحت الاساطير تعمل عملها بالاضافة والحذف والتعديل والتبديل الى شخصية الشهيد ، فاذا نحن أمام

شخصيه اسطوريه تختلف تماما من حقيقة الشخصية الاصلية .

ولقد حدث شيء يشبه هذا تماما في أيام الفتنة الكبرى ..

تقاعس الناس عن علي بن أبي طالب واسلموه لسيوف القتلة ، وتقاعسوا عن الحسين بن علي واسلموه لسيوف الخيانة .

فلما ذهب الشهيدان الى الله ، نسجت الأساطير حولهما خرافات عديدة ، وبدأت حركة الغلو والغلاة ، فاذا النور الالهي قد تسرب من نبي الى نبي حتى حل في جسد علي ، واذا علي لم يمت وانما هو حي يعرق تحت الدثار الثقيل ، الى امثال هذه الخرافات التي جاء الاسلام اصلا لحربها ، وموقف الشيعة المعتدلين من الغلاة واضح وحاسم ..

قال الصدوق القمي استاذ الشيخ المفيد .

« اعتقادنا في الغلاة انهم كفار بالله جل اسمه » .

قالها الشيخ ثم قرأ قوله تعالى في سورة آل عمران : **« ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا ايأمركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون »** .

ولقد ادرك علي بن الحسين بن أبي طالب ان الناس ستلتف حوله وتحاول استغلال اسمه سواء في الدعوة اليه أو الدعوة لخرافة الغلو .. أدرك هذا جيدا فابتعد تماما ..

لم يمكن لأحد من استغلال اسمه أو الدعوة اليه ..

أعطى ظهره للدنيا وانصرف الى العبادة ..

أدرك وسط جو الفتن والخيانة والدسائس والحمق وسائر الصفات الدنيوية ، ان مهمته ان يبتعد عن هذا كله ويصير نموذجا للاسلام الذي نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

كان الحزن قد نسج له عباءة والقاها على كتفيه ..

قتل جده علي بن أبي طالب وعمره سنتان .

وقتل أبوه الحسين في كربلاء وله ثلاث وعشرون سنة ..

وشهد بعينيه ـ وكان مريضا في المعركة ـ مصرع اخوانه وأعمامه .. وحفرت الاحداث الدامية في نفسه نهرا من الحزن طالما فاض من عينيه .

ثم انه شهد ما زاد حزنه اضعافا مضاعفة .

رأى الناس يبايعون ليزيد بن معاوية .. وعاصر ضرب الكعبة الشريفة بالمنجانيق .. وشهد عصر الحجاج في حكمه الظالم للعراق ..

وعاصر حركات اغرقت العالم الاسلامي في بحار من الدم ..

وشاهد بدايات حركة الغلو والغالين .. وادهشه ان الذين قتلوا اباه وجده او اشتركوا في قتله أو تقاعسوا عنه هم الذين ينسبون اليهما صورة ليست هي الصورة الحقيقية ..

ووسط سحائب الفتن قرر علي بن الحسين ان ينأى بنفسه عن هذا كله .. لم يكن موقفه سلبيا ، ولا كان يهرب من معركة ، انما كان بموقفه يمثل الايجابية الاسلامية الرفيعة ..

كان ميدان المعركة قد تحول الى ساحة مضطربة من الاكاذيب والخيانات والغلو .. وكان المثل الاسلامي الاعلى الذى ابتعد من عيون المسلمين بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابتعد بوفاة الصحابة الكرام ، كان هذا المثل في حاجة الى البعث من جديد ..

وكان في حاجة لان يرى الناس هذا المثل حيا امامهم .. وكان علي زين العابدين هذا المثل ..

كان يكره أهل العراق ويحمل عليهم كثيرا لسببين .. الأول انهم اسلموا والده وجده للقتل ، والثاني انهم يغلون في والده وجده وينسبون اليهما ما نسبه بعض اتباع الانبياء السابقين لانبيائهم من الوهية .

ورد في طبقات ابن سعد ان نفرا من اهل العراق اثنوا عليه فقال لهم : « ما اكذبكم وما اجراكم على الله تعالى . نحن من صالحي قومنا وبحسبنا

ان تكون من صالحى قومنا » .

ايضا كان حربا على كل الغلاة ، وكان يمقت الغلو ولا يحب ان يرفعه احد فوق منزلة احد من المسلمين .

وقال يوما لمن زادوا فيه بالثناء « **ايها الناس احبونا حب الاسلام فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا** » .

ونفى السمو عن نفسه ، وحين بلغته انباء ما يقوله عنه أهل العراق اشار بيده الى العراق وقال : « ليس فينا ما برمينا به هؤلاء » .

رغم هذا كله .. لم يسلم الرجل من الاذى الذى جاءه فى صورة الغلو والثناء الحراق . كان على بن الحسين ابن اميرة فارسية من أميرات آل ساسان . ونسب اليه البعض حقه فى حمل تاج العرب والعجم ، فقد كانت عقائد الفرس الدينية انهم ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات الهية اصطفاهم الله للحكم وجعلهم ظله فى الارض ..

وهذه العقيدة الوثنية التى لم يكن عليها نزاع عند الفرس .. التصقت زورا وعدوانا بعلي بن الحسين ، فقيل انه يملك وحده حق حمل التاج ، لان امه هى الشهربانو ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس وأبوه هو الحسين بن علي .. ويبدو أن ما حمل القائلين بهذا على قولهم شعر ابى الأسود الدؤلى :

وان غلاما بين كسرى وهاشم لاكرم من نيطت عليه التمائم

وحقيقة هذا الامر ابعد ما تكون عن على زين العابدين .. فلم يعرف عنه طوال حياته أى اتصال بالموالى ، ولا كان فى تصرفاته ما يبدى اتجاها فارسيا لديه . لقد نمى الرجل طوال حياته بعيدا كل البعد عن كل شبهة الحكم أو الرئاسة او رغبة فى الحكم او الرئاسة ..

كان الرجل زاهدا بحق ، ولم يكن زهده نابعا من هجران للدنيا ، فان المسلم الحقيقى لا يهجر الدنيا ، انما نبع زهده لسبب أخطر ..

كان يدرك ان وجوده فى هذا الجو من الفتن الطاميه كفيل بأن يسىء

الى الصورة الاسلامية الناصعة التي يمثلها ..

ولهذا ابتعد ..

ولم يسلم رغم ابتعاده من كلام غلاة الشيعة الذين نسبوا اليه ما لم يقله وما لم يكتبه فى الحقيقة ..

ولكنه فعل ما ينبغى أن يفعله أى مؤمن يخشى الله عز وجل .

تبرأ من الغلاة والفتن ، وابتعد تماما عن مسرح الصراع الرهيب الذى بدأ ..

كان يدرك بوعيه الاسلامى انه لا يأمن على القيم الاسلامية التى يمثلها لو دخل ساحة الصراع ..

وكان الصراع يومئذ يثير الدهشة مثلما يثير الحزن .

ان الغلاة من الشيعة يتحدثون بكلام لم ينزل الله به سلطانا ، والموالى من المسلمين يأخذون أفكارا وثنية سابقة ويطبخونها مع الاسلام ويقدمون للناس هذا الطعام باعتباره ينتمي الى الاسلام .. والسياسة هى التى تحكم الساحة الاسلامية ..

والسياسة لها أساليبها الخاصة فى الحكم ، وخاصة اذا كان الساسة يأخذون بقول معاوية بن أبى سفيان « ان لله جنودا فى العسل » يقصد ان العسل لو أضيف اليه السم لاغنى عن معركة كاملة ..

كانت الاغتيالات .. والحروب .. والدماء .. والاكاذيب .. والحزن المبالغ فيه .. والحب المغالى فيه .. كان هذا كله يقف على مسرح الحياة الاسلامية ..

واذا فمن حق زين العابدين أن يبتعد .. ليس هذا مجاله ولا مستواه ولا ميدانه ..

انصراف الرجل للعلم .. والعبادة .. زهد فى الدنيا بصورتها التى كانت عليها ، وأى مسلم كان يتصرف نفس تصرفه لو كان فى عباءته ..

. . . .

تتهيأ الشمس للاختفاء وراء افق الصحراء ..

بعد قليل يبدل المغرب ثيابه ثوبا بعد الآخر ..

الشفق القاني يملأ أطراف السماء بلون يشبه لون دم الشهداء ..

زين العابدين يشق طريقه قاصدا المسجد لصلاة المغرب مع الجماعة .. لا يرتدى الصوف كالزهاد المتأخرين او الصوفية فيما بعد ..

انما يرتدى عباءة ثمينة ، ويطل من وجهه نبل طبيعى لا يكون الا فى وجوه الصادقين .. يرفع عينيه الى السماء ويتأمل الأفق الدامى ..

ينقلب اللون بغتة ليوم كربلاء ..

كانت السماء والأرض يومها مخضبتين بدم الشمس ودم الحسين ويذكر أهل بيته الشهداء فيبكى ..

تنحدر دموعه على وجهه فى صمت نبيل مستسلم لقضاء الله وقدره .. ويسأله بعض أصحابه عن كثرة بكائه فيقول :

« لا تلوموني ، فان يعقوب فقد سبطا من ولده فبكى حتى ابيضت عيناه ولم يعلم انه مات ، وقد نظرت الى اربعة عشر رجلا من اهل بيتى يقتلون فى غزاة واحدة .. افترون حزنهم يذهب من قلبى » .

هذه الاشارة الموحية الى يعقوب تفسر كلمته التى قالها فيما بعد ..

وصارت شعارا للعارفين بالله والصوفية « فقد الأحبة غربة » .

يكون الانس حين يكون فى الارض من نحب .. فاذا كان حبنا فى الله ، وسقطت السيوف تحصد رجال الله ، وتصادف أن كان هؤلاء الرجال هم الاب والاخ والعم ، فمن الطبيعى ان يجتمع حزننا على القريب الذى غاب ، على احزان العقيدة التى توجه اليها الطعنات ، ويتكاثف الشعور بالحزن فى النفس ..

ويولد الاحساس بالغربة .. يؤدى فقد الاحبة الى الغربة ..

ذلك ان الحب يحتوى على شىء غامض يشبه السحر ، شىء يجعل

للحياة مذاقا خاصا من الانس والبهجة ، هذه البهجة هى سطح البحر الأزرق الجميل الهادىء ، وليس هناك كنوز عظيمة تعيش فوق سطح البحر ، تختار كنوز المعانى ان تختبىء مع لآلىء القاع تحت اعماق من المياه والصخور والمخاطر والضغط والمعاناة ..

وليس امام من يريد اكتشاف اللآلىء الا ان يغوص نحو القاع ..

ولابد لمن يريد الحقيقة ان يترك سطح البهجة الازرق اللامع ويمضى وراء الخوف حتى يحدق فيه دون خوف ..

ولقد دفع زين العابدين ثمن زهده ومعرفته ..

قاده الحزن العميق على حال الاسلام وغربته كمسلم الى حقيقة اليقين .. فكان مسلما يشرف بالاسلام ويشرف به المسلمون .

كان يدعو الله تعالى بدعاء وجيز يعبر عن مقام العبودية الذى يقف فيه « **اللهم كما اسأت واحسنت الى ، فان عدت فعد على** » ..

وكان يبخل على نفسه واهل بيته ، فلما مات وجدوه ينفق على مائة اسرة من اسر المدينة الفقراء ، وظل ينفق عليهم سرا فلم يعلم بذلك أحد الا بعد ان مات وجاءوا يبكونه ويسألون عن نفقتهم ..

وكان يرى ان صدقة السر تطفىء غضب الرب ..

وحين مات وجدوا بظهره آثارا تكشف عن حمله لاحمال الخير الثقيلة التى كان يضعها على ظهره ويحملها الى المساكين اثناء الليل .

وكان اذا نهض للصلاة اصفر لونه وتغير وجهه .. فسئل فى ذلك فاجاب انه ينهض للوقوف بين يدى رب العالمين ، ومن حقه ان يصفر لونه خوفا وحبا ..

ولقد روى سفيان الثورى شيخ الزهاد فى القرن الثانى ، ان رجلا جاء الى على بن الحسين فأخبره ان فلانا قد ذمك ووقع فيك .. فقال على بن الحسين : انطلق بنا اليه .. فانطلقنا معا وهو يظن ان على بن الحسين سوف ينتصر لنفسه ، فلما اتاه دعا له بقوله :

« ان كان ما قلت حقا فغفر الله لى ، وان كان ما قلت فى باطلا فغفر الله لك » ..

. . . .

وعاش على بن الحسين او زين العابدين كما اشتهر حياة تفرغ فيهـا للعلم والعبادة ..

وتنسب الى زين العابدين الصحيفة السجادية التى تتضمن أدعية ومناجيات حفظها الشيعة ونشروها ، وجاء فيها فى المقدمة انها بخط الامام زيد بن على وباملاء أبيه زين العابدين ..

ويرى كثير من العلماء المدققين ان جزءا من الصحيفة السجادية صدر من زين العابدين .. ولكن الاضافة والاستطراد والتعليق والزمن قد صيرها الى ما صارت اليه هذه الصحيفة ..

ونلاحظ مع الدارسين أن الادعية فى الصحيفة السجادية طويلة بعض الشيء ، وليس من طبيعة الدعاء أن يكون طويلا ، لأن ذهن الانسان لو انصرف الى محاولة تذكر الدعاء فسوف تتسرب منه معانيه كما يتسرب الماء من أصابع المرء ..

وفى القرآن ادعية كثيرة ، وسوف نلاحظ عليهـا الايجـاز العميـق الواف بالغرض ..

والله تبارك وتعالى هو الذى يلهم الدعاء ..

وقد حدثنا الله عز وجل عن دعاء ادم وحواء حين أكلا من الشجرة المحرمة وعصيا الله ..

« ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »

وحدثنا عن دعاء ذى النون فى جوف الحوت .

« لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين » ..

وحدثنا عن دعاء المؤمنين المختصر

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا

ولا تحزنوا » ..

ومعظم الأدعية التى انتهت لايدينا طويلة .. ونحن نشك فى نسبتها اليه ونتفق فى ذلك مع شواهد الحال وطبيعة الدعاء ..

لكن فيها سطوراً تضيء كالنجوم ولا تصدر الا من قلب زين العابدين.

« اللهم ان كنت عصيتك فانى قد اطعتك فى احب الاشياء اليك ، وهو الايمان بك تكرما منك لا منا عليك » .

. . . .

فى المدينة التى نورها رسول الله صلى الله عليه وسلم بامامة دولته ، توفى زين العابدين وترك ولده محمد الباقر .. الذى سيجيء من بعده حفيده جعفر الصادق ..

والذى سيكون لكل واحد منهما دوره فى الزهد المؤدى الى التصوف .

انتهت أيام على بن الحسين أو زين العابدين على مسرح الحياة .

ووقف ابنه المسمى محمد الباقر على المسرح .. والباقر ليس اسما من اسماء محمد ، انما هو وصف له ، كما كان زين العابدين وصفا لابيه ، وقد سمى محمد بالباقر اشارة الى انه يبقر العلم بقرا ، أو يشقه شقا ويصل الى قلب الحكمة .. وقد مات الباقر فى الثانية والستين من عمره ، بعد ان صارت له الامامة ٢٤ سنة . ولهذا ترك علامة بارزة فى تاريخ الزهد الذى اعان على نشوء التصوف .. حين ظهر محمد الباقر على مسرح الحياة ، كانت سماء الحياة ملبدة تماما تملؤها الغيوم الكثيفة ..

ان الصراع بين شيعة على بن أبى طالب والدولة الأموية لا يتوقف .. سواء بالانقضاض بالسيف أو الخروج بالكلام .. ورغم ان أبناء الحسين قد ابتعدوا تماما عن دائرة الصراع وانصرفوا الى العلم ، الا أن أحزابا من الشيعة نهضوا لمقاومة الدولة بالسيف وخرجوا عليها بالقوة ..

وعلى المستوى الفكرى كان الصراع على اشده بين علماء الكلام وعلماء السنة ، وكان المعتزلة يرون تقديم العقل على النقل ، ويثيرون مشكلات تتصل بالحرية والجبر والقضاء والقدر ، ويتحدثون هل القرآن مخلوق ام لا ، ويدخلون الصراع حول صفات الله واسمائه ، وكان أهل السنة

يقفون فى الطرف الآخر من الصراع ..

ومثلما ابتعد ابناء الحسين عن صراع السيف ، ابتعدوا ايضا عن صراع الترف العقلى ، سئل محمد الباقر عن الجبر والاختيار فقال :

« ان الله أرحم بخلقه من ان يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها ، والله اعز من ان يريد امرا فلا يكون .. »

سئل : هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة :

قال : نعم .. أوسع مما بين السماء والارض ..

وواضح من هذا النص ان الباقر لا ينفى ولا يثبت ، ولا يغلو ولا ينقص ، انما يقف موقف الوسط العدل من الامور ، فهو ينفى أن يكون الانسان ريشة فى مهب الرياح بلا ارادة . وينفى أن يكون الانسان مطلق الاختيار فى الكون ، وبذلك يعيد المياه الى مجراها الأصيل ويضع قاعدة للاشاعرة فيما بعد .

نشأ محمد الباقر فى هذا الجو الملبد المليء بالسحاب والصراع والمفاجآت .. وانصرف تماما الى العلم والزهد ..

ترك كل الامور التفصيلية التى يتقاتل عليها المسلمون .. واهتم برحلة الانسان نحو الله تعالى **« يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه »** أيضا ابتعد الباقر عن الغلو وكرهه كراهية شديدة ، وكانت الدولة الأموية تلعن على بن أبى طالب على منابر المساجد فى الامصار ، كجزء من خطة دعائية ضد الشيعة ، وغلا بعض الشيعة فكانوا يسبون عمر بن الخطاب وابا بكر الصديق كرد فعل لهجوم الدولة الاموية ، وبلغت محمد الباقر انباء الشيعة الذين يسبون ابا بكر وعمر بن الخطاب ، واصدر تصريحه الشهير الذى يعيد فيه الامور الى مجاريها ..

قال الباقر : **بلغنى ان قوما بالعراق يزعمون انهم يحبوننا وينالون من ابى بكر وعمر رضى الله عنهما ويزعمون اننى امرتهم بذلك ، فابلغهم انى الى الله منهم برىء ، والذى نفس محمد بيده ، لو وليت لتقربت الى الله بدمائهم ، ولا نالتنى شفاعة محمد ان لم اكن استغفر لهما** « يقصد ابا بكر وعمر » ..

وبهذه الكلمات يتبرأ الباقر من غلاة الشيعة ، ويرمى بالكفر من يسبون أبا بكر وعمر ، ويؤكد ان الأمور لو صارت اليه لقتلهم وتقرب الى الله بدمائهم ..

رغم اعتدال الباقر الشديد .. لم يسلم بعد موته من صب حياته فى قالب صوفى زهدى بحيث صار واحدا من الصوفية او زاهدى الصوفية..

حكوا عنه ان دمعته لم تجف طوال حياته شأن أبيه ، وروى عنه أنه قال ما اغرورقت عين بمائها الا حرم الله وجه صاحبها على النار . بل انه يقسم البكاء كما قسم المعرفة فيقول :

« فان سالت الدموع على الخدين لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، وما من شيء الا له جزاء الا الدمعة ، فان الله يكفر بها بحور الخطايا ، ولو ان باكيا بكى فى أمة لحرم الله تلك الأمة على النار .. »

والجديد الذى يضيفه الباقر أو يضيفه له معاصروه هو ربط الذكر الالهى بالبكاء .. يقول ان الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولا تصيب الذاكر .

ومن الصعب وسط جو الحياة المضطرب أيامها ان نعرف اليوم ماذا قال الباقر حقيقة ، وماذا نسبه الناس اليه .. وسنجد هذه المأساة عالقة بكل الشخصيات الزاهدة التى نسبت الى الصوفية ..

وفى تصورى أن الباقر كان زاهدا فحسب ، وعباراته التى تدين الغلو والغلاة هى التى يتصور صدورها منه حقا ، لأنهـا تتفق مع روح الاسلام السنى ، أما ما أضيف الى شخصيته ونسج عنه من أساطير ونسب اليه من كلمات غامضة تدخل فى لب التصوف ، فأغلب الظن أن هذا كله منحول ومضاف اليه ..

وقد رويت عن الباقر حكايات تجعله كالخضر عليه السلام ..

قال ابن المبارك « توفى سنة ١٨١ » انه قابل بين مكة والمدينة شبحا يلوح فى البريه . سأله ابن المبارك من اين قال من الله ، قال الى اين قال الى الله قال علام قال على الله . ويظل ابن المبارك يدقق فى السؤال حتى

يكتشف انه يحدث محمد الباقر . وبعد عده أبيات ركيسكه من التسعر يكشف البافر عن شخصيته ويختفي في ضباب الصحراء فلا يعلم ابن المبارك هل صعد الى السماء أم انشق عنه الهواء ..

ونحن نعرف الآن أن البافر مات قبل صاحب القصه بخمسين سنه . فهل كان ما رآه الراوي شبحا ام حقيقة ؟

واضح أن هذا الشبح ظهر في مخيله ابن المبارك الخصبة ولا اثر له في الحقيقة . ومن هذه الاشباح التي تذهب وتجيء في المخيلة . تمتلىء كتب التصوف واخباره بالكثير ..

وهذا كله اختراع فني لا يلزم احدا ولا يعبر عن حقيقة ..

. . . .

مات الباقر فلم يسلم من هذه العباءه الخرافيسة التي القاها غلاة الشيعة على صورته ..

وبرز الى المسرح ابن محمد الباقر جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب . وسمي جعفر بالصادق لصدقه . وعلى عادة الشيعة صارت الصفة اسما ثانيا له .. فهو جعفر الذي يصدق اذا حدث أو عمل او سكن او تحرك هو جعفر الصادق اذا ..

وكانت الظروف التي صاحبت ظهوره على المسرح اشد قسوة من ظروف أبيه محمد الباقر ..

كانت حركات العنف في قمتها . سواء على المستوى السياسي او الفكري .. وهكذا عاصر الصادق حركة الغلو في أعنف مراحلها ، فوقعت في حياته حركة ابي مسلم الخراساني وحركة عبد الله بن معاوية ، كما وقعت حروب مروان بن محمد وحركات الخوارج وحركات الزيديين ، والاصل في حركات الزيديين ايمانها بقول زيد بن علي امامهم الأول « **ما كره قوم قط حر السيوف الا ذلوا** » .. وهكذا خرج زيد على الدولة بالسيف فقتل في الكوفة سنة ١٢١ هجرية ، وصلب بعد قتله خمسين شهرا عريانا ثم احرق كما يقول مروج الذهب

وفى هذا الجو المضطرب الثائر ، تفرغ جعفر الصادق تماما للعلم ، وترك السياسة والملك لطالبيهما وما كان أكثرهم انصرف جعفر الصادق الى التأمل والزهد والقراءة والتدريس والذكر والعلم ، ومع الوقت صار الرجل استاذا روحيا لجيله المعاصر .. وكانت كلماته فى العقيدة والاسلام بالغة العمق والاحكام والوعى معا ..

كانت الآراء متناحرة تتقاتل حول صفات الله والجبر والاختيار والقضاء والقدر ، وكان المجتمع يموج بتيارات ثقافية متعددة ، فقد انتشر الاسلام وبلغت أمواجه أقصى شواطىء الأرض البعيدة ، ودخلت فى الاسلام امم مختلفة لها تصورها وعقائدها واسلوبها فى الفكر ، كما صارت الفلسفة اليونانية جزءا من نسيج بعض العقول المسلمة ، وكان فلاسفة هذا الوقت العقلانيون هم المعتزلة .. واحتدم الصراع الفكرى بين أهل العقل والبحث والنظر وأهل التسليم والتفويض مثلما احتدم الصراع بالسيوف بين الخارجين على الدولة والمؤيدين لها ..

وسئل جعفر الصادق عن ارادة الله وارادة الفرد ، سئل عن الجبر والاختيار ، وقال كلمته البليغة :

« ان الله تعالى اراد بنا شيئا واراد منا شيئا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما اراده منا اظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما اراده بنا عما اراده منا » .

وبهذه الكلمة يمتنع الجدل تماما فى الموضوع المتنازع عليه .. تسقط الدعوى والخصومة ولا يبقى غير جوهر الزهد الصافى ..

ان البحث فيما أخفاه الله عنا لا معنى له ، لأن هذا ما أراده بنا ، ولا حساب على هذا ، انما يكون الحساب على ما أراده منا من تقوى وعبادة وتوقير . أيضا أجاب جعفر الصادق على المتكلمين فى الله ، وكان المقصود علماء الكلام من المعتزله ومن انجر فى الصراع معهم من علماء السنة ..

قال جعفر الصادق : **« الكلام فى الله لا يزداد صاحبه الا تحيرا »** ..

وبهذه الكلمة الجامعة المانعة تسقط القضية والخصومة ولا يبقى الا

ان ينصرف الناس الى العمل ..

أن الكلام فى الله لا يزيد صاحبه الا تحيرا ..

ما هو الاسلوب الذى يزيد من ثبات الثابتين اذا ؟

الاسلوب هو العمل .. وليس الكلام ..

ومضى جعفر الصادق فى حياته كعالم وزاهد .. ويرى بعض الدارسين من المستشرقين أنه كانت له مدرسة شبه سقراطية ..

وفى مسجد الكوفة وحده كان له تسعمائة شيخ من تلاميذه .. وكان من تلاميذه جابر بن حيان .. المشهور فى التاريخ بصنعة الكيمياء وتحويل المعادن .. ولقد كان جعفر الصادق يرسم بكلماته عالما بالغ الشفافية والعمق ، وكان صورة رائعة من ابيه واجداده ، فهو يحافظ على الاسلام ويبتعد عن صراع الأفكار التى لا تزيد المرء الا تحيرا ، ويكف عن دس عقله فيما طواه الله واخفاه عن عباده كالغيب ..

وهو بذاته صورة للمسلم الذى يشرب من نبع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثلما اضيف الى اجداده ونسج حولهم وقعت نفس الاضافات لجعفر الصادق . يروى الكلينى حديثا ينفى فيه جعفر الصادق علم الغيب عن الائمة ، ويقابله حديث آخر ينسب الى جعفر الصادق يقرر فيه « **أن الامام اذا اراد ان يعلم علم ، وان سليمان ورث داود ، وأن محمدا ورث سليمان ، وانا ورثنا محمدا** » .

ويسأله احد السائلين عن العلم ، هل هو ما ورد فى الكتب السماوية وحدها فيكون جواب الصادق « **ليس هذا هو العلم ، ان العلم الذى يحدث يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة** » .

وقد انكر عمر بن الرياح امامة الصادق لأنه اجاب عن سؤال واحد اجابتين مختلفتين وروى الصادق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « **انا معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم** » ..

ويبدو من هذا ان الصادق كان يكلم الناس على قدر عقولهم ، وهذا تقليد من تقاليد الاساتذة الموهوبين ، فان الاستاذ لو كلم الناس على قدر فهمه هو أو عقله هو فربما لم يفهم عنه أحد ، فربما ضاعت الفائدة فيما يقوله .

لا غرابة اذا فى هذا ، انما تثور الغرابة مما يثبتــه بعض المؤرخين لجعفر الصادق ، بحيث يبدو فيه متناقضا مع احدى جوهريات الاسلام .. كمعرفة الغيب ، ان أحدا لا يعرف الغيب ، النص القرآنى على أن الجن لا يعلمون الغيب ، وعلى ان الملائكة لا تعلم الغيب ، وعلى أن الانبياء لا يعلمون الغيب ، فهل يقصد جعفر الصادق هنا هذا الغيب المحجوب او أسرار الله تعالى .. ؟

لماذا لا يكون ما يقصده جعفر الصادق هو غيب العلوم والعبادات ، وهذه امور لا بد ان يعرفها من كان استاذا مثله ، وربما كان العلم الذى أوتيه جعفر الصادق علما اكتســبه ، وربما قذف الله تعالى فى قلبــه بنور علوم اخرى ، هذا كله جائز الوقوع ومحتمل ، أما اجابته اجابتين مختلفتين بحسب عقلية السائل مرة ، ومحافظة على التقية مرة أخرى .. فليس امرا بالغ الغرابة فى جو مضطرب يموج بالفتن كالجو الذى ماش فيه جعفر الصادق .. ولعل هذا كله يوضح ما قاله الصادق يوما « **وددت لو انى افتديت خصلتين فى الشيعة لنا ببعض لحم ســاعدى .. النزق وقلة الكتمان** » ..

ويبدو من ذلك ان التشيع كان قد دخل فى الطور السرى لاشتداد الفتنة ، ومهما يكن من امر فان ما اضيف لجعفر الصادق وما نسب اليه من كلام كان شيئا ضخما ، لقد وصل بعض اتباعه من الجهلاء فى الرواية عنه والكذب عليه ونسبة ما لم يقله اليه مبلغا كبيرا .. وقد علل مصنفو الشيعة الاوائل سر تضعيف احاديث الصادق هذا التعليل المعقول ، قال الكشى :

« **كان جعفر بن محمد رجلا صالحا مسلما ورعا ، فاكتنفه قوم جهال يدخلون عليه ويخرجون من عنده ويقولون : حدثنا جعفر بن محمد ، ويحدثون باحاديث كلها منكرات كذب موضــوعة على جعفر يســتاكلون الناس بذلك وياخذون منهم الدراهم** » .

وهذا هو رأينا الخاص فى جعفر الصادق .

كان الناس يدخلون عليه فيحدثهم حديث الاسلام لا يزيد ولا ينقص ، فاذا خرجوا من عنده وانتشروا قال كل واحد ما فهمه أو قال كل واحد ما يريد قوله ونسبه الى الصادق على انه حديث نبوى حدثهم عنه .

هذا الراى الوحيد يفسر لنا سر تناقضات تراث جعفر الصادق .. كان الرجل مسلما صالحا ولكنه لم يسلم من الكذب عليه ونسبة الخرافات اليه ..

ولدينا منهج لا يفلت شيئا لمعرفة ذلك هل كان الصادق مسلما ام لا ..

كان الرجل مسلما عظيما .. اذا فلا مجال للارتياب - وكلماته تقاس بمعيار الاسلام الصحيح ، ما زاد عن ذلك نبرئه منه ..

ولسوف نجد فى سيرة جعفر الصادق نفس هذه الرقة والصفاء اللذين كانا سمة مميزة لاجداده ، فهو يقول عن الدموع التى يبكيها العبد فى سجوده لله :

« ما من شيء الا وله كيل ووزن الا الدموع ، فان القطرة تطفىء بحارا من النار ، فاذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهها قتر ولا ذلة ، فاذا فاضت حرمه الله على النار ، ولو ان باكيا بكى فى امة لرحموا » .

ويصطبغ زهد جعفر الصادق بصبغة علمية عميقة ، فهو القائل حين سئل عن المعروف **« لا يتم المعروف الا بثلاث ، تعجيله وتصغيره وستره »** وسئل الصادق باى شيء يعلم المؤمن انه مؤمن قال : **« بالتسليم له والرضا فيما ورد عليه من سرور او سخط »** ..

وهو مسلم يلوم نفسه يوما حين حدثه احد جلسائه بأن جده شفيع الخلائق فقال : **« انى لاخجل من افعالى الى حد اننى استحى ان اواجه جدى يوم القيامة »** « يقصد رسول الله » . .

ونسب لجعفر الصادق انه كان يدعو نفس دعاء النبى الياس ..

اتراك معذبى وقد اظمات لك هواجرى .. اتراك معذبى وقد اسهرت لك ليلى ، اتراك معذبى وقد اجتنبت لك المعاصى ..

ولسنا نعرف من أين عرف بدعاء النبى الياس ..

اشياء كثيرة لاتثبت للتمحيص ، واشياء تتفق مع روح الاسلام كقول جعفر الصادق :

« من خاف الله اخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله اخافه الله من كل شيء » ..

ولقد كان هذا هو جوهر التوكل الحقيقى ، ومثال ذلك قوله إيضا :

« من اعطى ثلاثا لم يمنع ثلاثا ، من اعطى الدعاء اعطى الاجابة ، ومن اعطى الشكر اعطى الزيادة ، ومن اعطى التوكل اعطى الكفاية » .

ومن كلماته الخطيرة الجامعة قوله : **« لقد تجلى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ولكن لا يبصرون » .**

حين مات جعفر الصادق .. ومر الزمن .. اعتبر اكبر مفسرى الصوفية ان جعفر الصادق هو امام التأويل الباطن .. واظهره الصوفية كاستاذ لهم وامام .. ومن تفسيراته الآية الكريمة التى تقول فى سورة الكهف : **« لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا »** قوله لو اطلعت عليهم من حيث أنت لوليت منهم فرارا ، ولو اطلعت عليهم من حيث الحق لشاهدت فيهم معانى الوحدانية والربانية .

وهو يرى ان « يس » معناها : ياسيد .. ايضا يفسر **« والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى »** بقوله النجم هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعنى اذا هوى اى اذا انقطع عن جميع ما سوى الله تعالى ، وما ضل هنا بمعنى ما ضل من قربه تعالى .

ايضا يروى القشيرى عن جعفر الصادق فى تفسير قوله تعالى **« فاوحى الى عبده ما اوحى » .. قال : سر الحبيب مع الحبيب ، ولا يعلم سر الحبيب الا الحبيب » ..**

خلال حياة جعفر الصادق ، تنبأ يوما للمنصور بأن أمر الخلافة سيكون للعباسيين بعد الامويين .. وتنبأ بالقتل للثوار العلويين .. وحين وقع الامر الاول سماه الخليفة المنصور باسم جعفر الصادق ، وصار

الوصف له اسما ..

والثابت تاريخيا أن جعفر الصادق كان يلبس الصوف ، وقد سئل مرة لماذا ترتدى الحرير ، فكشف عن ثياب الحرير فاذا تحتها ثوب من الشعر الصوفى الخشن .

وصار الصوف لباسا للزاهدين والصوفيه ..

استغرق الصوفية وقتا حتى صار الصوف لباسا عاما لهم .. وينقسم العلماء فى لفظ الصوفية الى اكثر من فريق ، يرى بعضهم ان الصوفية لفظ مشتق من الصفاء ، ويستبعد البعض هذا الراى ويروى ان الصوفية لفظ مشتق من الصوف ، ويرى البعض ان الكلمة اليونانية « سوفيا » بمعنى الحكمة هى اصل كلمة التصوف ..

وربما كانت الكلمة مشتقة من هذا كله .. غير ان هناك دلائل تشير الى ترجيح الصوف ..

نحن نعرف من تاريخ الايام الاولى للاسلام كيف كره الاسلام ان يلبس الرجل الحرير ، ويبدو أن خشونة الرجولة فى الاسلام وترفعها على لبس الحرير كانا امرين مستقرين تماما طوال بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطوال فترة الخلفاء الراشدين ..

ويذكر ابن سعد ان النبى لم يسمح لاحد من الرجال بلبس الحرير الا لعبد الرحمن بن عوف وذلك لانه كان رجلا مصابا بمرض جلدى « او حساسية جلدية » . ومعنى هذا ان لبس الحرير كان محرما على الرجال فى بداية الاسلام ، ثم مر الوقت ، ووليت الدولة الاموية الحكم ، وعاد الحرير الى الظهور مره أخرى - ولم يكن الحرير صافيا هذه المره انما كان منسوجا بالذهب والفضه ..

يلفت د . كامل الشيبى نظرنا لما كتبه المسعودى فى وصف سليمان ابن عبد الملك الذى ولى الخلافة سنة ٩٦ اى بعد موت الحجاج بافاعيله فى الكوفه .. قال المسعودى « وكان يلبس الثياب الرقاق (يقصد الرقيقة الغالية) وثياب الوشى « يقصد الحرير الموشى بالذهب والفضة والقصب » وفى ايامه عمل الوشى الجيد فى اليمن والكوفة والاسكندرية ، ولبس

النـاس جميعـا الوشي جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس . وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته الا فى الوشي ، وكذلك عماله واصحابه ومن فى داره . وكان لباسه فى ركوبه وجلوسه على المنبر ، وكان لا يدخل عليه احد من خدامه الا فى الوشي حتي الطباخ فانه كان يدخل اليه فى صدره وشي « صديرى منقوش » وعلى راسه طويلة وشي « غطاء رأس موشي » وأمر أن يكفن فى الوشي المثقلة » .

ما الذى نفهمه من سطور المسعودي .. ؟

واضح أن الترف كان قد تسلل الى قمة النظام الاسلامى الحـاكم يومئذ .. وواضح ايضا ان لبس الحرير اصبح يمثل سـياسة عـامة اتخذتها الدولة الاموية وأمرت بها خلفاءها وعمالها .. ولم يكن الخليفة يرضي بلبس شيء غير الحرير المنسوج بالذهب أو الفضة أو القصب ، وصار هذا النموذج سائدا بالنسبة للحكام وعمالهـم وخدمهـم حتى الطباخين منهم ، فقد كان الطباخ الأموى يرتدى الحرير المنسوج بالقصب ولا يدخل على الخليفة أو أمير المؤمنين او الحاكم الأعلى الا وهو يرتدى هذه الثياب ، فترتاح عين الخليفة ولا يجرحها لبس الصوف الخشن ..

وكانت الكوفة مركزا من مراكز صنع الحرير فى العالم الاسلامى مع الاسكندرية ، ولا زالت كلمة « الكوفية » التى تغطى الرقبة مشتقة اصلا من الـكوفة ومنسـوبة اليها ، وأراد الزاهدون فى الـكوفة ان يخترعوا أسلوبا للمعارضة لا تستطيع سلطة أن تؤاخذهم عليه .. وهكذا **لبس الزهاد الصوف ليميزوا انفسهم عن حكام الدولة الاموية** ، وكان لبس الصوف يتفق مع المعارضة السلبية التى يتخذها قادة الزهد وزعماؤه .. وقد رأينا كيف انصرف أبناء على بن الحسين بن على الى تحصيل العلم ونشره والبعد تماما من السياسة وبحارها المضطربة ، وسلك الزهاد مسلكهم هـذا ، فابتعدوا عن دنيا الفتن وأرادوا اظهار معارضتهم للحرير المنسوج بالذهب والفضة . فارتدوا الصوف ..

ولم يكن الصـوف يومئذ غالى الثمن كما هو اليوم ، ولا كان ناعـم الملمس كما هو اليوم ، انما كان يصنع من صوف الحيوانات واوبارها ، فيجيء خشن الملمس رخيص الثمن ..

وفى كبار الزاهدين من كان يلبس الصوف ويخفى لبسه للصوف ، اتقاء للمظاهر الكاذبة ، وقد حكت لنا كتب القدماء ان سفيان الثورى لام جعفر الصادق على لبسه الحرير ، فأراه جعفر تحت الحرير ثوبا من الصوف الخشن أو الشعر الخشن .

وهناك من يعتقد ان الصوفية قلدوا الرهبان المسيحيين فى ارتداء الصوف ، وكان هؤلاء الرهبان يرتدون الصوف معظم الوقت ، ولكن الآراء تميل مع الكفة التى تقول ان لبس الصوف لم يكن تقليدا للرهبان ، وانما كان مقاومة سلبية للاتجاه الأموى الذى يحاول بث الرفاهية فى الملابس والمجتمع ..

وقد كان الصوف مادة لا يعبأ بها العرب ، انما كان شيئا مهملا لا قيمة له ولا سعر ، ولم يكن العرب يلبسون الصوف المنسوج حتى فى الشتاء ، انما كانوا يتغلبون على برد الشتاء بارتداء الفرو أو القمصان المبطنة او المحشوة . « وهو لباس من القماش يحشى القطن داخله ليقى من البرد » ..

وقد اهملت كتب العصور القديمة التى تتحدث عن ثياب العرب الصوف اهمالا يكاد يكون تاما ، ويبدو أن الصوف كان لباس الفقراء والمعدمين .. وحين ارتداه الزاهدون والصوفية ، كان هذا اشارة موحية بأنهم ينبذون المظاهر الأموية والترف السائد ، ويختارون طريق الفقراء ولباس الفقراء ..

ولسنا نعرف على وجه التحقيق من هو اول رجل اطلق عليه لقب الصوفى ، لقد اختلف الباحثون على ثلاثة اشخاص ، جابر بن حيان وابو هاشم الكوفى ، وعبدك الصوفى ..

اما **جابر بن حيان** فتلميذ جعفر الصادق ، أو عبده كما ورد فى خلاصة الاثر ، وكان يلقب بالصوفى ، واختلف الناس فى أمره ، فالشيعة يزعمون انه واحد منهم ، والفلاسفة يدعونه لانفسهم ، وأهل صناعة الذهب والمعادن يرون انه كان واحدا منهم ، وكان جابر بن حيان يشتغل بعلم الكيمياء ، ولم يعرف عنه أنه كان صاحب مجاهدات فى الصوفية ، أيضا

لم يعرف عنه انه نطق بأقوال الزاهدين . ويرجح فى حقه ان لقب الصوفية الصق به نتيجة اخذه من الحكمة اليونانية « سوفيا » وعلومها .

اما **ابو هاشم الكوفى** فقد كان معاصرا لسفيان الثورى ، ويقول عنه سفيان « **لولا ابو هاشم ما عرفت دقائق الرياء** » .

ويورد بعض المؤلفين ان أول من تسمى بالصوفى هو **ابو هاشم الكوفى** سنة ١٥٠ وكان من النساك يجيد الكلام وينطق بالشعر كما وصفه الجاحظ ..

ويعلق بعض المؤلفين على تسميته بالصوفى بانه كان يلبس لباسا طويلا من الصوف كما يفعل الرهبان ، ويقول بالحلول والاتحاد مثل النصارى ، غير ان النصارى أضافوا الحلول والاتحاد الى عيسى عليه السلام واضافهما هو الى نفسه ، وكان مترددا بين هاتين الدعويين ، ولم يعلم على ايهما استقر فى النهاية « كما يورد صاحب طرائق الحقائق » .

والاخبار الواردة عنه مضطربة ، وتعدل فى اضطرابها الاخبار الواردة عن جابر بن حيان او تزيد .. وينقلون عن جعفر الصادق انه قال فيه « انه فاسد العقيدة جدا وهو ابتدع مذهبا يقال له التصوف وجعله مقرا لعقيدته الخبيثة » .

اما **عبدك الصوفى** فكان آخر شيوخ فرقة نصف شيعية صوفية تأسست فى الكوفة ، وقد كان عبدك هذا رجلا زاهدا منزويا توفى فى بغداد سنة ٢١٠ تقريبا ، ويحدثنا عنه كتاب الرد على اهل الاهواء والبدع انه « اى عبدك الصوفى » كان على رأس فرقة من الزنادقة ، واهم ما فى قصة عبدك الغامضة انه كان أول كوفى يطلق عليه اسم صوفى بعد انتقاله الى بغداد .

ولعل من العسير اليوم أن نعرف أول من اطلق عليه لقب الصوفى ، او نقطع فى هذا البحر برأى نطمئن اليه .. كل ما نريد ان نلاحظه جيدا أن هناك احتمالا قويا ومؤشرات عديدة لخروج التصوف من الكوفة .. وقد مر الزهد بمراحل عديدة حتى صار الى التصوف ..

وبعد ان كان الزهد حلا سعيدا ــ أو حلا وحيدا بمعنى أصبح ــ امام ابناء الحسين ، وبعد ان كان البكاء الطويل والدموع التى لا تجف هى اول بحار سبح فيها الزهد ، دخل الزهد طورا جديدا بدخول شخصيات جديدة فيه ..

وينسب لسفيان الثورى « الذى ولد سنة ٩٧ هجرية » بدء هذا الطور الجديد الهادىء .. فبعد ان كان الزهد سباحة فى الدموع وغربة سببها فقد الاحبة ، صار الزهد هادئا متأملا صامتا مفكرا ..

بدأ الاتجاه الى التفكير بدلا من الهرب منه ..

وهكذا سئل سفيان الثورى يوما بعد أن ذاع واشــــتهر صيته : **أرى الناس يقولون سفيان الثورى وانت تنام الليل ..**

يريد السائل ان يقول لسفيان انك لا تتعبد اثناء الليل عبادة تفسر شهرتك بالعبادة ..

وكان رد سفيان عليه وجيزا مختصرا وجامعا فى نفس الوقت .. قال سفيان « **اسكت .. ملاك هذا الأمر التقوى ..** » .

يريد ان يقول له ان أهم ما فى الزهد هو التقــوى . وليس الســـهر والعبادة وكان سفيان متفرغا للعلم ، ويبدو انه قطع شــوطا طويلا من العلم فصار اكثر ميلا الى الحزن .. وكان يؤثر عنه قوله :

« **لو لم اعلم لكان حزنى اقل ..** »

كان ســفيان الثورى ســائحا من الســائحين فى الارض .. وكانت السـياحة فى الأرض يومئذ بدعة ، ولكن سفيان الثورى كان يسيح رغبة فى العزلة ، قاصدا التامل والتفكر ..

كان رايه ان من خالط الناس داراهم . ومن داراهم راءاهم ، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه ، فهلك كما هلكوا .

وكان ســـفيان زيديا ، وناصر محمد بن عبد الله بن الحســـين الثائر بالمدينة ، وبايع له واكتسب عداء الدولة بهذا الموقف ، وكان الســـلطان

يطلب رأسه ، ولكن سفيان لم يشترك فى القتال لانه آثر السلم كما يقضى بذلك مبدأ الزهاد .

ويبدو أن اختيار سفيان للزيدية جاء نتيجة اتفاق الزيدية مع تفكيره الحر فالزيدية لا تجعل الامام معصوما ، وهو ليس بالضرورة أعلم المسلمين اما التفوق فى العلم فبابه مفتوح للجميع .. من شاء أن يدخل دخل .

وقد دخل سفيان الثورى باب العلم وتفوق فيه : وكان جريئا فى الحق ، فقد سلم على الخليفة المهدى تسليم العامة ، ورفض أن يظهر للسلطان اى مراعاة خاصة .

بعد سفيان الثورى جاء داود الطائى وهو رجل اتم تعلمه على يد شيخه فلما امتحنه الشيخ قال له معقبا : **بقى العمل به .**

يقصد الشيخ بقى العمل بما تعلمته ..

ونازعته نفسه الى الوحدة والعزلة ، واعتزل داود الناس واتخذ التبتل منهجا لسلوكه وحقيقته .. ولم يتزوج داود وبقى أعزب اربعة وستين عاما ، وترد فى سيرة داود اشارة الى كونه شيخا لمريد آخر ..

كان الدور الذى لعبته الكوفة فى نشأة التصوف بارزا بغير شك ..

ان حركات الغلاة من الشيعة ، وحركات الإمامة ، وفكرة الشيخ والمريد ، والمقاومة السلبية التى تأخذ شكل ارتداء الصوف ، والعاطفة الدينية التى كانت تستغرق الكوفيين ، واللون الشيعى الذى كان يصبغ الكوفة .. استطاع هذا كله ان يعين على نشأة الزهد وتطوره الى التصوف ، ولم تكن البصرة بمنأى عن تيارات تجعلها هى الاخرى حضانة للزهد المفضى الى التصوف ..

ورغم قرب البصرة والكوفة ، فقد كان بين البلدين تضاد قوى ، يتضح فى كون الكوفة مغلقة على نفسها ، وكون البصرة مفتوحة على التيارات الأجنبية الوافدة .. وكانت البصرة تسمى بأرض الهند ، كما كانت من الناحية الادارية مركز حكومة خراسان أيام الأمويين ، وعلى حين اتصفت الكوفة بالاصالة العربية ، اتصفت البصرة باختلاط الثقافات .. وقد كانت البصرة على تخوم فارس ، ولهذا نشأت فيها دراسات اللغة

العربيــة كاصــول الصرف والنحو لتعليم الاعاجم الداخلين فى الاســلام واصبح التلاميذ مع الوقت اساتذة لهذه العلوم ومن حملتها ، وظهر فى البصرة أول واضع للنحو العربى أبو الاسود الدؤلى .. وكان فى أساتذة اللغة العربية من يقوم بتفسير القرآن ، فيفسر للعرب باللغة العربيــة ، ويفسر للذين انحدروا من دماء فارسية باللغة الفارسية .

ولعل أطرف ماقيــل عن الفرق بين الـكوفة والبصرة ما قاله كتاب مروج الذهب . فقد شبه البصرة بأنها عجوز اوتيت من الحلى والزينة ، اما الكوفة فشابة حسناء جميلة لا حلى عليها ولا زينة ..

وكانت الحياة فى البصرة سهلة طيبة ، ويبدو ان الاسعار فيها كانت رخيصة حتى وصفها أحد الكتاب بانها خير البلاد للجائع والغريب والمفلس .. كما كانت الاحوال فيها اكثر استقرارا من الكوفة ، وكان أهل البصرة اكثر اموالا واولادا واطوع للســلطان ، ولعــل اخطر فرق بين المدينتين هو الفرق بين ضميرهما ، فعلى حين ظل الزهد فى الكوفة مشوبا بالتوجس والخوف استطاعت بذور الزهد فى البصرة أن تنتج لنا زهور الحب ..

وكان جو الكوفة مليئا بغبار المعارك التى أدت الى عكس النتائج التى يريدها الكوفيون ، ولهذا لم يستطع الزهد الكوفى أن يخــرج من نطاق الخوف الى نطاق الحب ، فقد كان ضمير الكوفة مثقلا بالالم الذى يعانيه أهلها ، وكانت خطيئة الكوفيين تتصل بخيانة المبادىء والتخلى عن المثل العليا عندما تحين ساعة الجد والقتال ، أما البصرة فكانت ذنوبها فردية لا تتصل بخيانة المبادىء او الكبائر المتصلة بالمثل العليا ، ولهذا قطعت البصرة المسافة بين الخوف والحب إسرع من الكوفة ..

كما ان تشيع الكوفة كان يلتصــق بآل البيت ، وكانت خيانتهم لآل البيت هى السر فى عدم استطاعتهم الارتفاع بحب آل البيت الى الله ، على عكس البصرة التى لم يكن لها ارتباط شيعى بامام يفترض فى اتباعه ان يعتبروا حبه جزءا من عقيدتهم .

وكان الحسن البصرى هو مؤسس مدرسه الزهد فى البصرة ، وكان

الرجل زاهدا يصدر عن روح الاسلام الحقيقي ، وقد ولد الحسن البصرى في المدينة وحفظ كتاب الله في خلافة عثمان وسمعه يخطب مرات ، وكان ابوه من الاسرى ، ولم يكن عربيا ، ويقال انه ولد على الرق ، وكانت امه خادمة لام سلمة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يسلم الحسن البصرى ، وقد نسب الى اسم المدينة التى اشتهر فيها علمه وزهده ، لم يسلم من أساطير الصوفية فهم يحكون عنه انه اطلع على الاسرار الدينية وعلم الباطن ، ومهما يكن من أمر فقد كان الحسن زاهدا رقيق القلب بالغ الحساسية عميق الحزن ..

كان اذا اقبل فكأنما اقبل من دفن حميمه .. واذا ذكرت النار . فكأنما خلقت من اجله ، وكان يقول **ان طول الحزن في الدنيا بمثابة تلقيح للعمل الصالح** . وحين سئل عن سر احزانه قال :

« ان المؤمن لا يسعه سوى الحزن لانه بين مخافتين .. ذنب قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، واجل قد بقي لا يدرى ما يصيب فيه من المهالك . وكان الحسن البصرى يلبس الصوف .. »

وكان الحسن البصرى يبكى اذا نصب قامته للصلاة في جوف الليل .. وكان المجتمع البصرى مليئا بالذنوب والانحلال الخلقى .. من مواخير منصوبة اثناء الليل ، وحقوق منهوبة في النهار المبصر ، كما أشار الحسن البصرى الى الشذوذ الجنسى الذى كان منتشرا في البصرة ..

وطوال حياة الحسن البصرى كان الزهد لم يزل يسبح في مياه الخوف .. وحين جاء عامر بن عبد الله بن عبد قيس .. كان هذا ايذانا بخروج الزهد من منطقة الخوف من الله .. الى منطقة الحب لله عز وجل ..

كان عامر أول زاهد تخلص من احزانه وهمومه واغرق نفسه في بحار الحب حين قال :

« احببت الله حبا سهل على كل مصيبة ، ورضاني بكل قضية ، فما ابالي ما اصبحت عليه » .

وخرج الزهد من حدوده الضيقة التى تحاصرها الاحزان والبكاء الى

عالم أكثر رحابة .. وأدعى الى التفاؤل ، وأعمق وأكثر تركيبا ..

ذلك عالم الحب ..

وبدأ الزاهدون يتجهون الى الله بالحب .

قال الزاهد : يا أخوتاه هل فيكم من أحد لا يحب ان يلقى حبيبه ، الا فاحبوا ربكم وسيروا اليه سيرا كريما .

وجاء عتبة الغلام فكان أكثر اندفاعا في الحب وأقدر على التعبير عنه في قوله : « ان تعذبني فاني لك محب ، وان ترحمني فاني لك محب » وقال : العرس في الدار الآخرة ، اشارة الى انه لا يفكر في الاعراس التي تنعقد على هذا السطح الترابي للارض ..

وبدأت الكلمات التي تربط الزهد بالحب تطفو على سطح الحياة ..

وقال القائل : « والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » ..

ولم يعد الخوف من الله تعالى هو الذي يحكم قلوب الزهاد والصوفية ، ولا صارت الرغبة في الجنة أو الخوف من النار هو السر في التقوى .. صار الحياء من الله تعالى وحبه حبا خالصا لوجهه هو المسيطر على القلوب .. ودخل الزهد في مياه التصوف بهذه العاطفة القوية ..

وبدأت بحار الحب عند الصوفية تستكمل شكلها من أمطار الزاهدين القدامى ودموع الخائفين .

ومع القرن الثالث للهجرة .. كان الاحساس بالاسلام قد صار احساسا معقدا مركبا كما تقول بلغة الفن ..

لم يعد هو الطاقة الدافعة المؤثرة التي تستولي ببداهتها على الروح ، انما صار مؤسسات تلاحمت مع الواقع بثقافاته المختلفة ورؤاه المتنوعة .. وكان بحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغ الشفافية والصفاء ، ورغم عمقه العظيم ، كانت العين تستبين في قاعة المسك ولآلىء المحارات .. ولم يكن ممكنا ان يغرق أحد في هذا البحر ، بعد ان أبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالة الله ، وصار القرآن الكريم هو سفينة نوح التي ينجو من يلوذ بها ، ولا يخشى اللائذ بها من أمواج العواصف أو أمواج

الزمن ..

ولم يكد هلال القرن الثالث الهجرى يستكمل استدارة القمر حتى كان الوضع قد تغير ..

لم يعد بحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يكشف عن قاع المسك ولآلىء المحارات ، قد أريقت فى هذا البحر الكريم دماء أهل بيته ، وتصاعد ريح المسك من دم الشهداء المراق ، واخترع الحب الذى ينقصه النضوج كلاما كثيرا نسب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منه برىء ..

ومن الطبيعى ان حركة الوضع فى السنه ، او الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونسبة الاحاديث اليه ، نشطت مع نشاط الفتنة وانقسام الفرق واقتتال المقاتلين ، ومن المدهش ان الحديث المتواتر عن رسول الله هو الحديث الذى يقول فيه .

ـ من كذب على عامدا متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ..

ورغم هذا النص الحاسم الذى يتوعد الكاذبين على الرسول ، فقد نشطت حركة الكذب ووضع الاحاديث ، كما كان الناس اذا استحسنوا قولا نسبوه للرسول ، كما كان الوعاظ يحكون الحكايات الطويلة المؤثرة ذات المضمون الوعظى وينسبونها للرسول ، وزاد ركام الاحاديث المنسوبة للرسول .

ونشط اليهود الذين اعتنقوا الاسلام الى وضع الحواديت والاساطير والحكايات الخرافية التى عرفت باسم الاسرائيليات وكان هدفها تحطيم الاسلام من داخله كقنابل الأعماق ، وراحت كل فرقة تأخذ من هذا الركام ما يتفق مع اغراضها ..

ومع القرن الثانى للهجرة كانت كلمة الزهد قد صعدت لبؤرة الشعور ، ومن الغريب ان هذه الكلمة لم ترد فى القرآن الكريم غير مرة واحدة فى قصة يوسف عليه السلام فى قوله تعالى « **وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين** » . وليس لها هنا كما يقول نيكولسون اى معنى سوى . وانما هى مستعمله فى معام اللوم والتأنيب ، ولكن كلمه الـ... وهى اقدم من كلمة الزهد . وردت فى القرآن فى قوله

تعالى « **واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا** » سورة المرمل ، والمراد بها نوع من أنواع العبادة التى امر بها الله ، كما ان السياحة فى الأرض وردت فى القرآن الكريم لقوله تعالى « **التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف** » سورة التوبة ..

أيضا وقف القرآن الكريم ضد الرهبانية ، ووصفها بأنها بدعة إبتدعتها المسيحية .. قال تعالى « **ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله** » ..

أيضا صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بان الاسلام يخلو من الرهبانية « **لا رهبانية فى الاسلام** » .

ويخطىء نيكولسون حين يتصور ان فى المسلمين الأوائل من سلك هذا الطريق ، ويحتج بما جمعه جولدتسهير من طائفة من الامثلة على نماذج كانت معاصرة للنبى أو قريبة من زمنه ، عرفوا بالتكفير عن معاصيهم بهذه الطرق ..

من هؤلاء بهلول بن ذؤيب الذى خرج الى جبل بجوار المدينة ، ولبس لباس الشعر الخشن وربط يديه خلف ظهره بسلاسل من حديد وجعل يصيح « يا رب » انظر الى بهلول يرسف فى الاغلال » ..

وكذلك ابو لبابه حين ندم على خيانة ارتكبها ، فقد ربط نفسه الى عمود فى مسجد المدينة وبقى على هذه الحال حتى أيقن ان الله غفر له ، وهناك انواع اخرى من أساليب الندم والتوبة كانت متصلة بشعائر الحج الى البيت الحرام ، فكثيرا ما ذهب الحجاج الى مكة مشاة حفاة الاقدام ، أو طافوا بالكعبة وهم مقودون كالجمال بحلقات فى أنوفهم ، وقد سمعنا بحجاج قطعوا على أنفسهم عهد الصمت وان أبا بكر ابطل هذه العادة واعتبرها من اعمال الجاهلية .

هذا ما يسوقه نيكولسون فى الدلالة على وجود الزهاد فى العصر النبوى ، وليس هذا التصور فهما سليما لما حدث ، فان هذه النماذج القليلة التى اوردها المستشرقان لم تكن نماذج للزهد ، وانما كانت نماذج للندم النابع من معصية مؤقتة ، وكان يزول بزوال اسبابه ، ولم يكن الرسول يتدخل فيه لمعرفته صلى الله عليه وسلم ان هذا ندم مؤقت

سرعان مايزول بقبول التوبة ، وليس زهدا منظما له طقوس وتقاليد ، وليس رهبانية لها قوانينها الحاكمة ..

. . . .

ثمة سؤال يطرح نفسه هنا ..

اذا كان هذا الندم البالغ الذي ياخذ شكل تعذيب النفس ليس هو الزهد الذى جاء به الاسلام .

فما هى نوعية الزهد الذى حمله الاسلام كعقيدة .. اذا سلمنا جدلا بان الاسلام حمل الزهد فى ثنياته كعقيدة ..

. . . .

سنبدا براى الاستشراق اولا .. ثم نعرض لراى أحد الدارسين العرب ثم نقول ما نعتقد انه وجه الصواب فى الرايين ..

يقول نيكولسون فى كتابه « التصوف الاسلامي وتاريخه » ..

انفرد القرن الأول فى الاسلام بالعوامل الكثيرة التى شجعت على ظهور الزهد وانتشاره ، فالحروب الاهلية الطويلة الدامية التى وقعت فى عهد الصحابة وبنى امية ، والتطرف العنيف فى الاحزاب السياسية ، وازدياد التراخى والاستهانة فى المسائل الخلقية ، وما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين الذين يملون ارادتهم وآراءهم الدينية على غيرهم ممن اخلصوا فى الاسلام ورفض هؤلاء الحكام علانية كل فكرة تتصل بالخلافة الدينية ((الثيوقراطية)) التى حاول المسلمون ارجاعها ، كل هذه عوامل حركت فى نفوس الناس الزهد فى الدنيا ومتاعها ، وحولت انظارهم نحو الاخرة ووضعت آمالهم فيها ، ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية عنيفة ، وانتشرت على مر الايام ، فكانت زهدا دينيا خالصا فى بادىء الأمر ، ثم دخل اليها بالتدريج بعض العناصر الصوفية حتى تحولت فى النهاية الى اقدم صورة تعرفها للتصوف الاسلامى ، وظلت هذه الحركة تحمل طابع مذهب اهل السنة الدقيق طيلة حكم بنى امية ، اى نحوا من قرن من الزمان .. وكان القائمون بها من اشهر اتقياء المسلمين ، بل كان كثير منهم

من القراء واهل الحديث وعلماء الدين ، ومن هؤلاء جميعا استمدت قوتها وشبابها ، واشهر شخصية في الزهد تمثل روح العصر الذى تتكلم عنه هو المتكلم المعروف الحسن البصرى (توفى ١١٠ هجرية) ، والذى يعتبر مؤسسا لمدرسة البصرة في الزهد والتصوف .. وتدل اقواله واقوال غيره من اوائل المسلمين بوجه عام ، دلالة لا تدع مجالا للشك على ان العوامل التى دفعتهم للزهد هى ·

اولا : الرعب الذى القاه القرآن في قلوبهم من هول يوم القيامة وعذاب النار ..

ثانيا : ما استولى على نفوسهم من الغم والحزن لشعورهم بالمعاصى ، مما دعاهم الى قضاء حياتهم في التوبة والاستغفار .

قال سفيان الثورى (متوفى سنة ١٦١ هجرية) ما اطاق احد العبادة ولا قوى عليها الا بشدة الخوف ..

انتهى راى نيكولسون ، وهو راى يوائمه على اسبابه .. ولكننا نرى نتيجة مضطربة أعظم الاضطراب متهافتة اشد التهافت ..

ان الرجل يورد أسبابا حقيقية يستمدها بأمانة من المحيط الخارجى الذى احاط بالاسلام ، ولكنه يقفز — في الظلام الى نتيجه مفاجئة ، فيرى ان هناك دلالة لا تدع مجالا للشك في سببين نشأ منهما الزهد .. هما ·

١ — الرعب الذى القاه القرآن في قلوبهم من هول يوم القيامة .

٢ — ما استولى على نفوسهم من الغم والحزن لشعورهم بالمعاصى ..

وهذان السببان داخليان تماما ، ولا علاقه لهما بظروف الاسلام الخارجية ..

ولقد اخطأ المستشرق حين تصور ان القرآن يلقى الرعب في قلوب المسلمين ، كما انه اخطأ حين تصور ان الغم والحزن نتجا من تمزق المسلمين بين رعب التخويف وسوء الحال ..

ان هذا التصور الاستشراقى يجعل القرآن أداة قمع لقوى الانسان وطموحه ، ويجعله سلاسل لتكبل انطلاقه

وهذا التصور ليس صحيحا لحسن الحظ ..

ان القرآن ــ بكل آياته المرعبة التى تخوف من عذاب النار ــ ليس موجها الى المسلمين ، انما هو موجه للكافرين ، وليس للمسلم الموحد بالله ان يخشى النار ، لانه ليس مقصودا بها ، كما ان القرآن لا ينشيء فى نفوس من يقرؤه أى غم او حزن ، بل لعله ينشيء عكس ذلك تماما ، ولو كان صحيحا ما يذكره المستشرق من تكبيل القرآن المسلمين وتخويفه لهم ، ما انتشر الاسلام بالسرعة التى انتشر بها ، ولما اخضع له الحضارتين الكبيرتين فى هذا الزمان البعيد .. ان القرآن صنع للمسلمين اجنحة من الامل والاشراق طاروا بها فى سماء الحياة ، على حين قعدت بقية المبادىء باصحابها واخلدت بهم الى الارض .. ولم يكن القرآن يحمل الى النفوس دفعات من الغم والحزن نتيجة الشعور بالمعاصى ، لان الله تبارك وتعالى نص فى القرآن الكريم على قبول توبة التائبين ، كما نص على ان الله تعالى « **يغفر الذنوب جميعا** » ، كما نص على ان الله عز وجل « **لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** » كما نصت أصول العقيدة الاسلامية على ان الاسلام يجب ما قبله ، ويلغى تماما كل شرك أو كفر كانا قبله ..

من أين يجيء الغم والهم اذا ، ومن أين يأتى هذا الرعب الذى يزعم نيكولسون أن القرآن القاه فى القلوب ..

وفى بيان حب الكافرين أو المشركين لعقائدهم ومبادئهم ، اشار القرآن الى حقيقة جوهرية غابت عن العالم الباحث ..

قال تعالى « **والذين آمنوا اشد حبا لله** » ..

وقال تعالى فى بيان حقيقة الصلة بين المسلمين الموحدين بالله وخالقهم الأعز الأكرم « **يحبهم ويحبونه** » ..

فاشار سبحانه وتعالى الى ان حقيقة الصلة بالله هى الحب .. لا القهر .. وهى الاكرام .. لا الخوف ..

وعقيدة هذا شانها لا تحمل رعبا ولا هما ولا غما ..

. . . .

ولننظر الآن فى راى احد الباحثين من العرب .. يقول الدكتور كامل

الشيبي في التفرقة بين زهد الاسلام الأول والزهد المنظم الذى نادى به زهاد الكوفة والبصرة والشام وصار مقدمة للتصوف . .

سنرى ان الاسلام كان من اصول الزهد الاولى ، ذلك ان الاسلام قد جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرتفع بمستوى الاجراء والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحية ، وقد كان صبغ الاسلام دعوته بالزهد والتقشف هو العلامة المميزة له عن النظام القرشي في مكة والشعار الذى يلتف بمقتضاه الضعفاء والمحرومون والعبيد حول النبى ويدخلون فى دين الله افواجا . ذلك ان الاسلام لم يكن منجما من الذهب ولم يكن شركة لها اموال وتجارة ، وانما كان دعوة تهدف الى اقرار مثل من العدالة والمساواة لم تكن موجودة ، ولو استندت الدعوة الى النظام السائد واشبهته ما راينا المستضعفين والفقراء والعبيد انصارا له ، ولكان حركة انقلاب يقصد بها الاستيلاء على السلطة ، ولهذا عجزت قريش عن تحطيم الاسلام المكى ، وكانت مقاومته محاطة بالاشواك . وقد كان الزهد الذى اصطبغ به الاسلام مانعا لارستقراطيي قريش من الدخول فيه وتقويضه ، فقد كانت ضريبة دخول الغني فى الدعوة ان يخرج عن امواله وان يساوى زملاءه فى الفقر ، والامثلة على نزول المسلمين الصادقى الايمان عن ثرواتهم مشهورة ، وهذا ابو بكر وعثمان من الامثلة الناصعة على ذلك ، ولعله ليس من الغريب ان نجد حركة الزهد فيما بعد تعكس لنا هذه الصورة ذاتها بنزول محمد بن سوقه الزاهد مولى بجيلة ، عن مائة وعشرين الف درهم من امواله ليدفع بها البلاء عن اهل الكوفة .. وبهذا يتبين لنا ان الزهد صورة اصيلة من صور الاسلام ، وفقرة هامة فى منهجه التطبيقى ، اريد به نزول القادة الى مستوى الفقراء لجمعهم وكسب عطفهم وحماسهم، فاصطبغ زهد الاسلام بصفات الداخلين فيه من الفقراء والعبيد ، فكان المسلمون الاولون وحتى خلفاءهم يلبسون اللباس الخشن ويتناولون الطعام البسيط ولم يكن ذلك منهم نوعامن العبادة الزائدة او شيئا مضافا الى الايمان المتميز ، وانما كان من طبيعة الاسلام التى دخلت نفوسهم وتقمصتها .

ولعل ابدع مثال ضرب للتدليل على هذه الحقيقة ما اورده أبو طالب

المكي من أنه « لما جاء عبد الله بن عامر بن ربيعة في بزته الى أبي ذر رضي الله عنه وساله عن الزهد واخذ يتكلم فيه جعل ابو ذر يضرب به في كفه ثم اعرض عنه ولم يكلمه ، فغضب ابن عامر وكان قرشيا شريفا وشكاه الى ابن عمر رضي الله عنه فقال له : هذا ما فعلته بنفسك ، تأتي الى ابي ذر في هذه الثياب وتساله من الزهد .

وهكذا اوضحت صراحة أبي ذر معنى الزهد وحكت لنا قصته الحقيقية وأوضحت حقيقة الملبسين بالاسلام من الارستقراطيين القدامى الذين جاء الاسلام لمحقهم » .

انتهى كلام الدكتور الشيبي ، ورغم أن فيه جزءا كبيرا من الصحة ، الا اننا لا نستطيع موافقته على النتائج القاطعة التي ينتهي اليها دون معاودة الروية ..

ليس صحيحا ان الاسلام جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرتفع بمستوى الاجراء والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحية.

الصحيح ان الاسلام كان دعوة حضارية لتصحيح صورة البشر عن الله عز وجل .. وكان رسالة الهية ترسم للبشر طريق الخلاص الروحي والاجتماعي ، واذا كانت الارستقراطية القرشية ستقف ضده ، فالذنب ذنبها أنها تقف ضد حضارة الانسان المؤيدة من الله ..

لكن الاسلام لم يات ليمحق اغنياء مكة او الارستقراطية القرشية ، بهذا المفهوم الضيق يتحول الاسلام الى ثورة تشبه ثورات الاشتراكية التي يقوم بها الفقراء ضد الأغنياء مدفوعين ـ ومعهم كل الحق ـ بدوافع اقتصادية . نحن نرفض هذا التفسير الاقتصادي لنزول الاسلام ، كما نرفضه لتفسير زهد المسلمين ، كما نرفض تفسير المستشرق النفسي الخاطىء لزهد المسلمين ، ونرى ان الاسلام لم ينزل لضرب اغنياء مكة او الارستقراطية التجارية فيها ، فهؤلاء كانت تكفيهم ثورة يقوم بها الفقراء والجياع ، ولا يستلزم القضاء عليهم ان ينزل الله تبارك وتعالى رسالة هي آخر رسالاته الى البشر ، هذا تضييق لنطاق الاسلام وحصر لميدانه.

ايضا لم تكن ضريبة الدخول في الاسلام ان ينزل الغني عن أمواله

ويخـرج من ثرائه ، لم يكن هـذا النـزول عن الثروة شرطا للدخول فى الاسـلام ، انما كان نتيجة لترتب على فهم حقيقة الاسلام . وفرق بين المعنيين بعيد ، لان القهر متصور فى الحالة الاولى ، بينما الحب هو الدافع فى الحالة الثانية . أيضا لم يكن نزول قادة الاسلام الى مستوى الفقراء لجمعهم وكسب عطفهم وحماسهم كما يقول الدكتور الشميبى ، انما كان نزول القادة لمستوى الفقراء حياء من الله تعالى ورغبة فى كسب رضـائه سبحانه ..

لم يكن الزهد فى الاسلام تكتيكا يقصد به ضرب مجموعة من الاغنياء ، كما لم يكن تكتيكا الغرض منه اقناع الفقراء بأننا منكم ومعكم ، انما كان الزهد فى الاسلام جوهرا أساسه الحياء من الله تعالى .. فلا يأكل المسلم وجواره مسلم جائع ..

ولا يرتدى المسـلم ثيابا ثمينة وجواره مسـلم عار أما الذين يكنزون الذهب والفضـة ولا ينفقونها فى سبيل الله من المسلمين .. اما هؤلاء فقد وردت فى حقهم آيات تسلكهم مع الكافرين وتجعل لهم امتيازا أرهب فى العذاب .. فان الذهب والفضة التى ادخرت ولم تنفق فى سبيل الله ، قد تحولت يوم القيامة الى هذا الغيب المروع الذى يطلعنا عليه الحق ..

قال تعالى :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بهـا جباههم وجنوبهـم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

. . . .

نفهم من هذا ان اكتناز الذهب والفضـة ليس من طبيعة المسـلم .. لانه وقف لنمو المجتمع الاسلامى وحبس للمال الذى هو ملك الله تعالى وعدم انفاقه فى خير المسلمين . وليس هذا من قيم المسلم ..

الزهد اذا طبيعة وجوهر من جواهر الاسـلام .. ولـكنه ليس هو الاصل المنشىء لنزول الاسلام ، انما هو عنصر داخلى من عناصر القيم فى

هذا الدين ، وهو عنصر ظهر فى بداية الاسلام ظهوره الطبيعى ، وكان جمالا يضاف الى جلال الاسلام ، فلما انحرف المسلمون كان طبيعيا ان ينحرف الزهد ويولد فى شكله الفنى الجديد الذى نعرفه باسم التصوف .

كان انحراف الزهد عن طريقه وسيره فى طريق التصوف مسألة طبيعية اقتضتها عشرات العوامل المختلفة ..

كما كان الطريق الجديد ممهدا لهذا التحول .. وبغض النظر عن الظروف الموضوعية التى ساهمت فى ميلاد التصوف ، فهناك ظروف شخصية كانت تكفى وحدها لميلاده .. هذه الظروف هى اختلاف مشاعر الخلق وطباعهم لقد خلق الله تعالى وجوه الخلق وليس فيها وجه يشبه الآخر ، وصور النفوس اشد تنوعا من صور الوجوه . نحن نعرف ان الله تبارك وتعالى لم يخلق الناس سواء فى العقول أو المشاعر أو القلوب او الاحساس بالأشياء ..

نعرف ان الله تبارك وتعالى لم يخلق انسانا يشبه انسانا آخر فى تكوينه النفسى أو أسلوبه فى الاحساس ..

صحيح ان بين الناس أشياء عديدة مشتركة ، لكن الحس الداخلى يختلف من انسان الى آخر ..

فى الناس المعتدل .. وفيهم المتطرف ..

وفى الناس من ينمو عقله الفلسفى ، وفيهم من ينمو وجدانه الروحى ، وفى الناس ذو الطبيعة السوية ، وفيهم ذو الطبيعة الفنية ، وتطلعنا الدراسات الحديثة فى تكوين الفنانين على أنهم من طينة تختلف كل الاختلاف عن طينة البشر العاديين ، ان الاعتدال الذى يميز الانسان السوى أو العادى يخنق الفنان ، وعلى حين يؤمن الانسان العادى بالحياة الوسطية المعتدلة ويعتقد ان خير الامور الوسط ، يرى الفنان ان التطرف مبدؤه ، وهو لا يفتعل ذلك افتعالا والا كان كاذبا ، والأصح انه يولد بهذه الطبيعة التى تظهر نتيجة الثقافة وقوى البيئة ..

والى جوار الانفعالات العنيفة التى تشتعل فى روح الفنان ، يملك

الفنان رؤية تختلف عادة عن رؤية الانسان العادى . ويملك الفنان هـذه القدرة على الانتقال من اقصى اليمين الى اقصى اليسار دون جهد . ويختار الفنان دائما أن يحيا فى قلب الغلو ، والمبالغـة ، والاخطار ، والقلق .. وهو مسير فى اختياره لان قوى داخلية تختار له وتفرض عليـه .. ولو ركدت حياة الفنان واستقر وعثر على الجنة فانه ينتهى كفنان .. ولعـل الفرق بين الفنان ورجل الشريعة هو الفرق بين رابعة العدوية مثلا وفقيه مثل أحمد بن حنبل ..

كان أحمد بن حنبل فى محنته خلال السجن يبتسم برضا ويحس بالرضا .. وحين اشفق عليه بعض تلاميذه وحدثوه ان يصبر على عذاب السجن قال « **أنا جنتى فى صدرى** » .

وحدد بكلمته الوجيزة الفرق بينه وبين غيره ..

ان أحمد بن حنبل يحمل جنته فى صدره .. انه رجل يعيش فى جنة الرضا عن الله ، وليس يعنيه أن يوضع فى السجن أو فى قصر .. فهـو فى الجنة سواء وضعوه فى قلب النعيم أو قلب العذاب .

هذه الطبيعة المستقرة الراسـخة العارفة ، ليست طبيعة فنية .. لقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن الشعراء ، وهم رمز للفنانين ، والاشارة اليهم لم ترد فى القرآن الكريم صدفة أو اتفاقا . انما وردت لحكمة .. كان الله تبارك وتعالى ينفى عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم صـفة الشعر « **وما علمناه الشعر وما ينبغى له** » يريد الحق تبارك وتعالى ان يقول ان الشعر موهبة يعلمها الله لبعض عباده ، ولم يكن الرسول ــ بما وهب من نبوة ــ فى حاجة لهذه الموهبة الاقل .. أيضا لم يكن من المصلحة ان يكون فى النبوة اى اثر لموهبـة الفن ، لان الفن او الشـعر هيام بين الاودية « **الم تر أنهم فى كل واد يهيمون** » والاودية كمـا اتفقنـا ليست أودية مادية ، انما تنطبق على القلق المتصل بالمكان ، كما تنطبق على القلق المتصل بالزمان والأفكار ..

ولقد حدد الله تبارك وتعـالى فى القـرآن الـكريم طبيعة الشـعراء والفنانين عموما ، وبين خصائصها الجوهرية التى لا تتفق مع النبوة ،

وانكر ان يكون النبى شاعرا او يعلم الشعر او علمه الله الشعر .

النبوة افق اعلى من كل الآفاق ..

النبوة فوق كل تصور بشرى ، فهي اصطفاء من الله تعالى ، وحفظ من الله تعالى ، وعصمة من الله تعالى ؛ واختيار من الله تعالى ..

والنبى بشر .. ولكنه المثل الأعلى للبشر ..

وليس كل البشر أنبياء ..

وفهم النبى للعقيدة الاسلامية هو الفهم اللائق بجلال النبوة ..

وليس كل البشر أنبياء كما تقول ..

واذا .. فمن الطبيعي أن يختلف فهم البشر العاديين للعقيدة من فهم النبى ..

ومن الطبيعى حين يلتقى الاسلام بانسان يملك طبيعة فنية ، من الطبيعى لهذا الفنان أن يفهم الاسلام فهما يختلف فيه عن فهم النبى ، وربما غلا بعض الشيء ، وربما بالغ بعض الشيء ، وربما كانت له رؤياه الخاصة التى تختلف عن رؤية غيره ..

لهذا كله نحسب ان التصوف كان سينشا لأسباب شخصية وبشرية حتى ولو لم تساعده الأسباب الموضوعية فى المجال الاجتماعى ..

وليست مصادفة بحتة ان معظم الصوفية شعراء وكتاب ، ليست هذه مصادفة ..

انما تشير هذه الحقيقة الى حقيقة اخطر .. وهى ان معظم الصوفية فنانون . . او أصحاب طبيعة فنية ، وفيهم من كان يستسلم لفنه ، وفيهم من كان يلزم فنه بأصول الكتاب والسنة ..

ومن هنا جاء اختلافهم ..

اذا سلمنا بذلك ، فسوف نفهم كثيرا جدا من تناقضات الصوفية ومبالغاتهم ، فان التناقض جزء من طبيعة الفن .. وجزء من تكوين الفنان

تأمل قوله تعالى عن الشعراء « **وانهم يقولون مالا يفعلون** » ..

ان هذه الآية الكريمة ليست انتقاصا من الشعراء أو سبا لهم ، انما هى كشف لهذا التناقض الذى هو جزء من الطبيعة الفنية ..

والشعر اداة من أدوات التعبير ، والاداة لا توصف بالخير أو الشر ، انما يتعلق الخير والشر بما يفصح به الروح الانسانى خلال استخدامه للأداة .. وهناك شعراء قالوا الحكمة كلها فى بيت واحد من الشعر كما صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم .. أصدق بيت قالته العرب قول لبيد .

« **الا كل شىء ما خلا الله باطل** » ..

وهناك بالمثل شعراء حاربوا الاسلام ووقفوا ضده ، والعبرة بما يقوله الشاعر وما يفعله ..

نريد ان نخلص الى الحقيقة التالية ..

ان معظم الصوفية فنانون ..

نقول معظم الصوفية ، ولا نطلق الكلام ليستوعب الجميع ..

ومعظم الصوفية ذوو طبيعة فنية ..

ومعظم التراث الصوفى أدب من ارقى انواع الأدب وارفعه .. بكافة المقاييس النقدية القديمة والحديثة ، وسواء عرضنا هذا الأدب على نقاد العصور القديمة او نقاد القرن العشرين ..

ونحسب ان هذا الرأى الجديد فى مجال الدراسات الصوفية يمكن ان يصطدم بعقبات شتى .

وربما كانت هذه العقبات صادرة من هذه الهالات المقدسة التى أضفاها الزمن على مشايخ الصوفية وكراماتهم ..

ولكننا لا نعرف هالات مقدسة حول أحد من رجال الاسلام .. واشرف خلق الله واكرمهم عليه هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

والتراب الذى يسير عليه النبى صلى الله عليه وسلم على راسى ، ودمى كله فداء قطرة من عرقه .. ولكنه ليس مقدسا ..

كانت عظمة النبى صلى الله عليه وسلم انه افهمنا ان القداسة الوحيدة لا تنصرف الا لله عز وجل .. ولا تقال الا عن الله عز وجل ، فهو القدوس سبحانه ، وهو المقدس المتعالى وحده ..

وثمة فرق هائل بين الخالق والانسان ..

ولا قداسة لأحد من رجال الاسلام ..

فكلهم بشر يصيب ويخطىء .. وفيهم من يملك طبيعة متزنة عاقلة وفيهم من يملك طبيعة فنية متوهجة ..

وفى الصوفية من كان يملك هذه الطبيعة الفنية .

وسوف نحاول خلال تعرضنا للصوفية وآثارهم ، ان نبين هذه الطبيعة الفنية ، سواء فى اسلوب حياتهم أو ابداع عقولهم من الادب والشعر ..

كما سنحاول أيضا ان نقول .. متى يبدأ الفن ومتى ينتهى فى كلام الصوفية ؟ ومتى يبدأ الدين ومتى ينتهى فى كلام الصوفية ؟

ونسأل الله تبارك وتعالى ان يوفقنا الى النجاة فى هذا البحر الذى ننوى خوضه ..

. . . .

لنبدأ برابعة العدوية

بحر رابعة العدوية ..

امرأة .. صوفية ..

أليست مفاجأة ان نعثر على امرأة صوفية ؟

ليست مفاجأة اذا كنا نعرف طبيعة الاسلام ، فان الاسلام دين النوع البشرى كله ، وليس النوع البشرى قاصرا على الرجال دون النساء ، كما ان المواهب التى وزعها الله تبارك وتعالى لم توزع على الرجال دون

النساء ..

كانت رابعة العدوية امرأة تملك طبيعة فنية مرهفة ..

وكانت لها رؤية خاصة فى جوهر العبادة .. وكانت الى جوار ذلك من الفنانين المثاليين رغم حياتها التى كانت فى جزء منها لاتنتمى للمثالية.

وسنرى هذا كله فى تاريخ حياتها المليء ..

واول ما نحب ان نلفت اليه النظر .. رؤاها الخاصة للشخصية الالهية ..

الشخصية الالهية مسألة اهتم بها المسيحيون اهتماما اكبر من اهتمام المسلمين .. هذا راى نيكولسون .. وهو راى صحيح اذا نظرنا للقرنين الاولين بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن هذا الراى لا يثبت للصحة فيما تلا ذلك من قرون ، فقد كان موضوع التصوف هو البحث فى الشخصية الالهية ، بل ان علم الكلام قبل التصوف انصرف الى هذا البحث ، ونقصد بمعنى الشخصية هنا القدرة على الاتصال ..

يقول وب فى كتابه الشهير « الله والشخصية » : « اننا لا نصف الله بالشخصية الا اذا تصورنا امكان وجود صلات شخصية بينة ، من حيث هو معبود ، وبين الانسان من حيث هو عابد ، وان هذه الصلات الشخصية يمتنع وجودها اذا بولغ فى جانب تنزيه المعبود او بولغ فى جانب تشبيهه وتجسيده » ..

ولقد اعتنق نيكولسون هذا الراى ، وان تحفظ عليه بقوله انه لايظن أن هذا يقنع علماء الكلام من المسلمين ، لان العقيدة الاسلامية تنص صراحة على ان الله تعالى مخالف للحوادث ..

ولست أرى فى راى نيكولسون او راى وب ما يصعب الاقتناع به ، ان الراى يسلم كل السلامة .. اذ تؤيده آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن تنزيه الله ((**ليس كمثله شيء ..**)) وتتحدث فى نفس الوقت عن سمعه سبحانه وبصره تعالى .. ((**وهو السميع البصير**)) ..

الصورة التى يقدمها القرآن لله عز وجل صورة ولا صوره ..

نعـرف من القـرآن أن الله تعـالى يسـمع ويرى « **اسمع وأرى** » ونعرف ان « **يد الله فوق ايديهم** » .. ونعرف انه « **وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى** » ونعرف ان الله يخالف الحوادث « **ليس كمثله شيء** » ..

ويحدثنا كبار العارفين بالله عن الله فيقولون :

« **كل ما دار فى وهمك ، وتصوره عقلك ، واستشرف اليه خيالك .. فالله غير ذلك** » ..

سبحانه وتعالى ..

كلمتان من كلمات التنزيه والتقديس يسوقهما المسلم اذا اراد ان يتصور الله تعالى أو يتحدث عنه . .

ولقد أصاب المستشرق « وب » حين كتب ان الاسـلام يميل الى تصوير العلاقة الشخصية بين الله والانسان بصورة العلاقة بين السيد الذى لا مرد لأمره وبين عبده ..

أصاب تماما فى هـذه وان اخطاه التوفيق فيما بنـاه على ذلك من نتائج ، يستوى فى ذلك حسن نيته ..

نريد أن نقول أن صورة التعالى والسيادة وصورة العبودية والخضوع .. هما حقيقة الصلة بين الرب الخالق الاحد ، والعبد المخلوق الخاضع .. هذه هى حقيقة العلاقة بين الله والانسان فى عمق الاسلام والقرآن .. ورغم عظمة الله وحقارة الانسان ـ بالقياس الى هذه العظمة الالهية ..

رغم تعالى الله وتقدسه وتدنى الانسان وبؤسه وضعفه واخطائه رغم هذا كله ، لم يشأ الله سبحانه وتعالى ان يترك الانسان قائما فى موضـع الرهبة والضآلة والخوف ..

انما سمى الله تعالى نفسه « الودود » ..

وهى كلمة نحب ان يتأملها القارىء ويقف عندها طويلا طويلا ..

ان الود هو أصفى ما فى الحب ..

وتسمية الله تعالى نفسه بالودود اشارة رحيمة لخلقه . وهو سماح

لهذا الخلق ان يحبوه ..

ولقد كان الصوفية اول من فتحوا هذا الباب ..

كانت رابعة العدوية أول من استعمل ــ بغير تهيب ــ كلمة الحب فى العشق الالهى ..

واليها تنسب الابيات الشعرية التى تقول :

احبك حبين حب الهــوى وحب لانك اهــــل لذاكا

ان الشطر الأول من البيت يقول انها تحب الله حب الهوى .. نحن امام حب انسانى يتجه الى الله ..

صاحبته امرأة تعذبت كثيرا واحبت كثيرا واشتعلت بنار الفن كثيرا وحين فاض بها الشوق صرحت بمشاعرها ، ووضعت هــذا التصريح فى قالب من الفن يستطيع الصمود للزمن .. ولقد قالت هذه المرأة كلماتها منذ اكثر من الف سنة ، ورغم بعد المسافة وجدت كلماتها من يغنيها من مغنيات هذا القرن الشهيرات ، ووجدت كلماتها من يهتز لها من جمهور هذه الأيام ، يطيب للانســان ان يحس أنه يحب خالقه ..

وليس فى هذا الاحساس ما يصطدم بالشريعة الاسلامية او العقيدة الاسلامية ..

ولا بأس ان يقف المسلم فى مقام الرهبة او مقام الحب ..

المهم أن يكون فى طريقه الى الله ..

تتعدد الطرق فى الأرض وتتعدد الطرق فى القلوب ، واشرفها الطرق التى توصل الى الله ..

كانت رابعة العدوية هى اول من اخترق مجــال الخوف الى مجــال الحب ، وهى امرأة من البصرة .

اسمها رابعة واسم ابيها اسماعيل ، والعدوية اسم قبيلتها ، ويقول عنها المستشرق ماسينيون أنها كانت فى أول أمرها تعزف بالمعازف ، ثم تابت ، وقد خلفت مقطوعات شعرية تعبر عن حدة عشق مؤثرة ، وقضت

حياتهـا بالبصرة وكأنهـا مسـجونة ، وفى البصرة ماتت بعـد ان وصلت الثمانين ، وتركت فى الاسـلام شلدا من ولايتها لا يزال أريجا ..

ويذكر الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه عن رابعة العدوية اننا لا نعلم عن حياتها الاولى شـيئا الا عن طريق العطار فى تذكرة الأوليـاء .. ويذكر الدكتور بدوى ان رواية العطار عن طفولتها ونشأتها وخطيئتها قبل التوبة مستفيضة ، ولكنها لا تقبل فى عين المؤرخ الا اذا طرحنا منها جانب الخوارق والكرامات ..

ويذكر العطار ان رابعة ولدت فى بيت فقير كل الفقر .. فلم يكن لدى ابويها قطرة سمن حتى يدهنوا موضع خلاصـها .. واصـل أسرتها غير معروف ، كل ما نعرفه ان الأسرة انتسبت الى آل عتيك ، أما ديانة آبائها قبل الاسلام فمجهولة أيضا .. ولا ندرى أكانوا من الفرس أم لا ..

ويفترض الدكتور عبد الرحمن بدوى المصدر المسيحى أصلا لكلامها فى الحب الالهى ..

وقصة حياتها انها هامت على وجهها بعد قحط حدث بالبصرة .. هى واخواتها الثلاث ، فاخذها ظالم واسرها وباعها لرجل بستة دراهم ، واثقل عليها الرجل العمل فعاشت حياة بالغة العذاب .. واتخذت رابعة مهنة العزف على الناى (لاحظوا الجانب الفنى فى شخصيتها) ، وكانت هذه المهنة فى رأى الدكتور بدوى « من المستحيل ان تستقل بنفسـها ، ولا ان تكون بمنجاة من ألوان الاغراء » ..

ويخيل الى الدكتور بدوى انها قطعت شوطا طويلا فى طريق الاثم ، لانها تابت بعد ذلك ، وهذه التوبة أصدق دليل على اندفاعها الى أبعد حد فى طريق الشهوة .

ويؤكد الدكتور بدوى انها لم تكن معتدلة ، لان الاعتدال من شـان الضعفاء والتافهين ، اما التطـرف فمن شـيمة الممتازين الذين يبدعون ويخلقون فى التاريخ ، لهذا ادعو الى التطرف المطلق كل من يريد ان يكون خالقا للقيم ..

وقد اعترض الدكتور عبد القادر محمود على هذا الحماس غير العلمى

.. ورأى ان هذا الكلام يجوز ان ينطبق على البعض ، ولا يجوز تطبيقه على الكل ، ومهما يكن من أمر فقد كانت رابعة العدوية فنانة فى الأصل ..

كانت امرأة متأججة المشاعر ، عنيفة فى الاتجاه والاختيار ، متقلبة فى حياتها المادية والنفسية على السواء ، اخطأت وانقادت ثم صحت ذات يوم على التوبة ..

ولكنها توبة غريبة ..

انها لا تبكى خطيئتها فى تواضع ، انما تفخر بحبها لله وهواها له .. وهى تقسم حبها حبين ، وتتطلع بهذين الحبين الى الله ..

احبـــك حبين حب الهـــوى	وحــب لانك اهــــــل لذاكا
فاما الذى هو حب الهـــوى	فشغلى بذكرك عمن ســـواكا
واما الذى انت اهـــــل له	فكشفك لى الحجب حتى اراكا
فلا الحمــــد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمــد فى ذا وذاكا

اختلف القدماء حول الابيات الشهيرة التى نسبت لرابعة العدوية .

كما اختلف المحدثون حول مضــمون الأبيات ، وهــل هو مذهب فى الحب الالهى أم مجرد امتداد لنظرية سابقة .

وجرى نفس الاختلاف على شخصية رابعة العدوية ، فنسب اليها العطار كرامات كثيرة ، وحدثت كثير من الكتب من الخوارق التى جرت على يديها ..

وفى البداية ..

نحب ان نستبعد موضوع الـكرامات والخوارق من مجـال البحث لسبب بديهى اننا ندرس فكرها كفكر ، ونحلل اشعارها كأدب صوفى ، ولن يزيد هذا الفكر أو ينقص منه ان تكون لها كرامات أو لا تكون ..

موضوع الكرامات قد يلقى ضوءا على شخصيتها ، ويبين الى أى حد لم تسلم شخصيتها من اضفاء مســحة اســطورية عليها ، ولكن هــذا الموضوع لا يضيف الى ادبها وفكرها ولا ينقص منه ..

تقول رابعة العدوية :

احبـــك حبين حب الهـــوى   وحب لانـك اهـــــل لذاكا

تصرح فى البداية انها تحب الله تعالى نوعين من الحب : حب تسميه الهوى .. وحب لانه سـبحانه وتعالى أهل لذلك .

والهوى كلمه مشتقة من اندفاع لا يقاوم نحو شيء .. وقد وردت الكلمة فى القرآن الكريم فى دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال :

« فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم » ..

والأصل فى استخدام الكلمة هو المجال البشرى . واسـتخدامها فى المجال الالهى هو الجديد الذى يلفت الانتباه ..

تريد رابعة العدوية أن تقول ان حبها البشرى أو قدرتها على الحب البشرى قد تحولت الى الله عز وجل ، واضيفت هذه الطاقة الى الطاقة القادره على الحب الالهى ..

الحب مزدوج ..

ثنائى ..

حب بشري كان المفروض أن تصرفه للناس .. ولكنها قدمته لله ..
وحب الهى لله سبحانه وتعالى اهل له ..

وفى البيت الثانى تشرح رابعة العدوية سر حبها البشرى الذى تحول الى الله .

واما الذى انت اهـــــل له   فكشفك لى الحجب حتى اراكا

تريد ان تقول ان انشغالها بالذكر .. قد صرفها عن الناس .. ولانها انصرفت عن الناس ، فقد انكشفت لها الحجب .

واما الذى انت اهـــــل له   فكشفك لى الحجب حتى اراكا
فلا الحمـــد فى ذا ولا ذاك لى   ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

انها ترجع الامر كله والحمد كله لله تعالى ..

هذه الأبيات الأربعه اثارت جدلا لم يزل ماضيا الى اليوم ، واثارت عديدا من المناقشات لم تغلق الى اليوم ..

. . . .

فى البداية ، اختلف القدماء حول نسبة الأبيات اليها ..

قال الكلاباذى « توفى سنة ٣٨٠ هجرية » أن هذه الأبيات لمجهول ، أما الزبيدى فقد نسب الأبيات السابقة لسفيان الثورى ، وعبد الواحد ابن يزيد .. ولم يلتفت الطوسى الا لكرامات رابعة العدوية ، واهمل الأبيات ..

ومعنى ذلك ان الابيات الاربعة التى قيل ان نظرينها فى الحب الالهى تعتمد عليها .. مشكوك فى صدورها منها ..

اذا افترضنا أن رابعة هى صاحبة هذه الأبيات .. فهل ينطوى هذا الشعر على نظرية فى الحب الالهى .. أم ان الأمر مجرد كلام فى الحب الالهى ..

اختلف الدارسون والباحثون على هذا الموضوع .. اعتبر الاستاذ « ماسينيون » ـ وهو واحد من اكبر المستشرقين الذين كتبوا فى التصوف ـ ان رابعة العدوية صاحبة نظرية فى الحب الالهى ..

انه يقول « وكان تحمسها لحياة الزهد مؤديا الى معالجة احوال صوفية مختلفة ، والى البحث فى فروض دقيقة فى العلميات والعقائد »

واختلف معه الاستاذ مصطفى عبد الرازق .. فهو يرى « ان من التعسف أن ننسب الى رابعة العدوية التصدى لدقائق المسائل الفقهية والكلامية والصوفية » .

وقد وقع نفس الاختلاف بين الدكتور عبد الرحمن بدوى والدكتور عبد القادر محمود حول رابعة العدوية ، كتب عنها الدكتور بدوى فى كتابه « شهيدة العشق الالهى » ونقد الكتاب د. عبد القادر محمود ونفى عنها المسحة الاسطورية التى التصقت بها ..

والمشهور عند كثير من القدماء والمحدثين ان رابعة العدوية هي واضعة مذهب الحب الالهي فى التصوف الاسلامى ، وقد بين د. عبد القادر محمود تهافت هذا الراى ، وذهب الى انها مجرد امتداد لنظرية الحب الخالص التى تطورت من مدرسة جعفر الصادق ، وبهدى من النص المسيحى .

ولو نظرنا فى نقد د. عبد القادر محمود لكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى « شهيدة العشق » ، فسوف تكتمل امامنا الصورة الحقيقية لرابعة العدوية .

ربط الدكتور بدوى تجربة رابعة الروحية نحو الله بثلاثة عناصر .

أولها الندم من حياة الشهوات ، وثانيها حضورها مجالس الوعاظ وخاصة الزاهد العالم الحسن البصرى ، والواقع أنها لم تلتق به ، وقد عاد الدكتور بدوى فذكر هذا صحيحا ، وثالث العناصر اليأس من الدنيا، ولا شك انها عاشت مع قول ابراهيم بن ادهم المعاصر لها « الحر من خرج من الدنيا قبل أن يخرج منها » .. ويؤكد الدكتور بدوى أنه لا مقياس لمعرفة تطور توبتها سوى درجة حرارة التضرع من حين الى حين فيما حكاه العطار .

ويعتبر الدكتور بدوى نبرة الضراعة المنيفة دليلا يؤكد أن فترة ضلالها أيام كانت تعزف على الناى لشهوات الجسد هى العامل الأوحد فى تكيف النظرية الصوفية عند رابعة ، وهى النظرة التى تحولت الى حب لذات الله لا طمعا فى ثواب أو خوفا من عقاب ..

ونحن مع الدكتور عبد القادر محمود فى أن توكيد نبرة الضراعة كمقياس لدى الدكتور بدوى يؤكد لنا عدم كفايته كدليل وحيد فى تكييف النظرة الصوفية لدى رابعة .

هذا دليل يحتاج الى حجج قوية من آراء رابعة التى كان ادق ما فى تراثها موضع شك فى صحة نسبته اليها ، وكان غيره جملا رائعة من النجوم المنيرة والعيون النائمة ، سوى عين يقظى وقلب ساهر قلق جزوع .

فاذا عدنا الى العطار على رغمنا مرة أخرى ، فاننا نجده يثير مشكلة

لدى « ماسينيون » ، مشكلة يربط فيها بين الحلاج ورابعة .

يقول العطار فى تذكرة الأولياء ان رابعة العدوية كانت بسبيل الحج ، فرأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء فقالت : لا أريد الكعبة ، بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها .

قام الدكتور بدوى بالتعليق على هذه الحادثة التي يرويها العطار فقال « ليس بمستبعد أن تكون صحيحة » ومن المعروف ان هذا هو رأى الحلاج ، وقد كان سببا فى تكفيره ثم صلبه قال الحلاج « ان شوقنا الى الله يجب أن يمحو عقليا فى نفوسنا صورة الكعبة ، كيما نجد من اقامها ، وأن نحطم معبد بدننا كيما نبلغ من جاء اليه ليتحدث الى بنى الانسان »

ويمضى الدكتور بدوى فيقول (ولعل هذا قد بلغ أوجه فيما رواه ابن تيمية حين قال « قال على الحريرى » قيل عن رابعة أنها حجت فقالت هذا « أى البيت الحرام » الصنم المعبود فى الأرض ، وانه ما ولجه الله ولا خلا منه » ، يقول الدكتور بدوى « وهذا يؤيد الرواية التى ذكرها العطار ، وفيه من الجرأة فى التعبير قدر هائل يدل على أى مدى بلغه فكر رابعة من جسارة لا نجد لها نظيرا فى هذا القرن ولا القرن الذى يليه عند الصوفية ، فهى ترى أن فى الكعبة صنما ، وفى التبرك بها وثنية ، وليس بين هذا وبين أن تعلن سقوط التكاليف الظاهرية فى الحياة الدنيا الا خطوة واحدة » .

يرى الدكتور عبد القادر محمود ان الدكتور بدوى قد أسرف فى حكمه ، واعطى لرابعة بمقارنتها بالحلاج مكانا ليس لها ، فبعد ان قال عن حكاية الكعبة التى رأتها رابعة العدوية وهى قادمة نحوها ، انه ليس بمستبعد ان تكون هذه الحادثة صحيحة ، بعد هذا الفخ الذى وقع فيه الدكتور بدوى ، اجرى المقارنة بين رابعة والحلاج ، ورآها استاذة للحلاج فى اخطر آرائه ، ووقف مع رأى العطار ، وهو ليس مؤرخا ولا عالما ، وكتابه يمتلىء بالاساطير والخرافات ..

ويفسر الدكتور عبد القادر محمود هذا كله بذكر الحقائق التالية ،

توفى العطار سنة ٥٨٦ هجرية ، وهو تلميذ لمدرسة الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هجرية ، وكل ماكتبه العطار مصدره عصره والعصر الذى قبله ، ولما كانت روايات العطار عن رابعة ، وخاصة فى نظرية تحطيم الوثنية فى صنم الكعبة لعبادة رب الكعبة ، لما كانت هذه الرواية لم ترد الا مع العطار ، والعطار تلميذ فى مدرسة الحلاج ، فمن المؤكد انه خلع عليها شيئا من هذه الرواية او اعطاها نسبا منها ، لان رابعة من الناحية الموضوعية لا تصل فى ثقافتها الى هذه النظرة ، خاصة وأن ادق مانسب اليها فى نظرية الحب الخالص مشكوك فى صحة نسبته اليها ، وما أورده العطار وغيره من احاديث وقصص عباداتها يؤكد انها كانت لا تنقطع عن الصلاة ، فكيف نقيم لها نظرية او مطلع نظرية فى اسقاط التكاليف الشرعية ..

من الصعب أن يكون هذا رأيها .. أما عند الحلاج فهو تخريج لرأى القرامطة الذين أعادوا قصة الفيل فى محاولتهم هدم الكعبة فى صورة متطورة ..

يقول د. عبد القادر محمود « لو سرنا وراء امثال هذه الروايات التى اوردها العطار وتبعه المستشرقون وغير المستشرقين ، لوجدنا انفسنا ونحن فى القرن العشرين وقد عدنا الى عقلية ما قبل القرن العاشر والحادى عشر الميلادى فى نظرتنا النقدية غير السليمة .. ولو سايرنا هذا المنطق لجاز لنا أن نقول ان رابعة فى نظريتها فى الحب الخالص الذى لا يطمع فى ثواب أو يرهب عقابا تصل بنا لا محالة الى القول بعدم اهمية التكاليف الشرعية التى هى فى نظر الوصوليين أو العوام سلم الوصول الى الجنة والبعد عن النار ، ولكان من الجائز أن نكفر ونقول انه ليس من الضرورى الاعتماد عليها فى طريق الوصول ، ولكننا لن نساير هذا المنطق ، ولن نجدف وراءه فى اعطاء رابعة ما ليس لها وما لا يجوز أن ينسب اليها ، لان بيئتها الثقافية والاجتماعية والنفسية وحياتها الماضية لا يمكن بحال من الاحوال أن تعطينا أمثال هذه الاتجاهات التى أكدها الاستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه الممتاز عن رابعة العدوية ، ونسب اليها ما أعطاه للحلاج فى تعليقاته على ما كتبه « ماسينيون » عنه .

. . . .

القضية اذا ان الدكتور بدوى يحمل فكر رابعة العدوية ما لا يحتمله .. ويرى انها كانت صاحبة نظرية فى الحب الالهى ، وصاحبة رأى فى التكاليف الشرعية ، وأستاذة للحلاج فى أخطر آرائه التى كانت سببا فى اتهامه بالكفر وقتله .. ويعتقد الدكتور عبد القادر محمود ان هذا كله غير صحيح ، لان الدليل على أن رابعة كانت تعتبر الكعبة وثنا ، هو مجرد كلام قيل عنها أو حكى عنها ، وهو كلام لا يصدقه عقل ، مثل أن ترى رابعة الكعبة وهى قادمة نحوها ، فتقول انها لا تريدها وتريد رب الكعبة ..

ونحن مع رأى الدكتور محمود رغم احترامنا للدكتور بدوى .. فمن الصعب علينا أن نقيم بناء كاملا لنظرية فلسفية على حكاية خرافية حكاها واحد على لسان رابعة العدوية .. حكاية من الصعب أن تقنع طفلا ..

ان الكعبة بناء مثبت فى الارض ، فهل يمكن بناء نظرية على أساس ان هذا البناء الثابت قد ذهب يهرول سعيا نحو امرأة صوفية ؟ ان محاولات هدم الكعبة قديمة ، وهى جزء من محاولات هدم الاسلام ، واذا كان ابرهة قد ابيد حين حاول هدم الكعبة بجيشه الجبار ، فقد ظلت المحاولات مستمرة من اعداء الاسلام ، وليس بمستبعد ان يكون هذا القول مدسوسا على رابعة العدوية ..

القول بأن الكعبة جاءتها تمشى ..

والدليل على براءة رابعة من هذا القول ما رواه ابن تيمية عنها .. فالمعروف عن ابن تيمية انه من اعداء الصوفية ، وقد كان موقفه حاسما فيما رواه العطار عن رابعة العدوية .

قال ابن تيمية « ان رابعة كانت من التقوى بحيث لا يصدر عنها هذا ، ولو قال هذا احد لكان كافرا يستتاب ، فان تاب ، والا قتل ، وهو كذب ، فان البيت لا يعبده المسلمون ، ولكن يعبدون رب البيت بالطواف به والصلاة فيه ، أما مانقل من قولها (والله ما ولجه الله ولا خلا منه) فكلام باطل عليها » ..

والحقيقة ان الصورة التي يرسمها الدكتور بدوى لرابعة العدوية ، ليست هي حجمها الحقيقي ، فهو يعتبرها أول من تعرض بالنقد للمفاهيم الحسية التي فهمها العامة لبعض آيات القرآن .. فقد سمعت قارئا يقرأ قوله تعالى « **ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون** » فقالت مساكين اهل الجنة .. في شغل هم وازواجهم ، ويرى الدكتور بدوى ان ضمير رابعة قد امتعض من هذا المعنى الحسي ، وهي التي ارتفع عندها معنى الجنة الى اعلى درجات الروحية ، ويعتقد انها رمت من وراء هذا النقد ، الى الارتفاع بمستوى الحياة الدينية ومعاني القرآن والاسلام الى اعلى درجة من الروحية » ..

وفي راينا أن الدكتور بدوى لم يفهم كلمة رابعة العدوية ، فليس في الكلمة نقد للمعنى الحسي « استخدم الدكتور بدوى كلمة « المعنى الشهواني » .. لان الجنة ليست هي الأرض ، والناس حين يبعثون يوم القيامة ويدخلون الجنة لا يدخلونها بنفس حواسهم وشهواتهم الارضية ، وكل ما ورد عن الجنة في القرآن غيب ، يتحدث الله تبارك وتعالى عن لحم الطير والازواج والاعناب والنخيل ، ولكن حقيقة هذا كله غيب ، وصلته بما على الأرض من متع هو الآخر غيب ..

ولو صدقنا ان رابعة العدوية يمكن ان تقول عبارتها التي أوردها الدكتور بدوى ، فلا ريب أنها تعني شيئا يختلف كل الاختلاف عن نقد الحياة الحسية في الجنة ، لأن الحياة في الجنة غيب مجهول ، واى مسلم يعرف عقيدته يعرف ان في الجنة نعيما لا يقاس به نعيم الأرض ، أما حقيقة هذا النعيم فمجهولة تماما ، والمجهول لا يمكن أن يخضع للنقد .. ولا يمكن بالتالى أن تعتبر رابعة العدوية أول ناقدة لنعيم الجنة الحسى .. ويبدو رأى الدكتور بدوى متضاربا حين ينفي عن رابعة محاولات الطعن او الانحراف بالاسلام ، في نفس الوقت الذى يجعلها في كتابه جريئة جراة لا نظير لها في هذا القرن ولا الذى يليه . فليس بينها وبين أن تعلن سقوط التكاليف الشرعية الا خطوة واحدة .

يرفض الدكتور عبد القادر محمود ، كما يرفض الاستاذ مصطفى عبد الرازق هذه الاسطورة التي يتم بناؤها حول رابعة العدوية .. ويرى

كلاهما ان من التعسف أن ينسب اليها التصدى لمعالجة دقائق المسائل الفقهية والكلامية والصوفية والنظريات الفلسفية كأستاذة لمدرسة الحلاج ..

وهذا هو الراى الذى تهدى اليه الأدلة ويستريح اليه العقل ..

ولو افترضنا جدلا انها قالت ما رواه العطار عن حكاية الكعبة التى شاهدتها تمشى نحوها ..

لو افترضنا جدلا انها قالت انها لا تريد الكعبة ولكنها تريد رب الكعبة ، فهل يمكن تحميل هذا المعنى على أساس أنه بناء لنظرية جديدة هدفها اسقاط التكاليف ، ام أن الأولى أن يحمل على أنه تعبير فنى لشاعرة تحمل طبيعة فنية ، ان اقوال الشعراء ليست هى الحقيقة المادية ..انما هى تصور الشاعر ورؤياه الخاصة .. وقد أشار القرآن الكريم الى أن الشعراء يقولون مالا يفعلون ، بمعنى انهم لا يصورون الواقع ، ولا يصفونه ، ويبالغون مبالغات فنية لا يمكن قياسها على الحقيقة ، وهناك شاعر يقول :

اذا بلغ الرضيع لنا فطاما ... تخر له الجبابر ساجدينا

فهل يصدق احد ان طفلا فطمته أمه ، يمكن أن تخر له الجبابرة ساجدة !!

ان الرؤى الشعرية للشعراء لا يمكن قبولها بمنطق الحياة الواقعة ، انما هى تعبير عن رؤيا فنية أو رموز لصور أو مشاعر يريد الشاعر التعبير عنها ..

بهذا المنطق يستقيم الامر ، وتبدو رابعة العدوية بصورتها الحقيقية ، شاعرة صوفية وكاتبة محبة لله عز وجل .. كانت لها آراؤها التى لاتصلح ان تكون أساسا لمذهب متكامل فى التصوف الاسلامى ..

عاشت رابعة العدوية فى القرن الثانى من الهجرة ، وماتت فى اخريات هذا القرن ، كما يرجحه أكثر من كتبوا سيرتها ..

وقد كانت فى راى كثير من الدارسين القدامى والمحدثين علامة هامة من علامات الطريق الصوفى .

كتب عنها صاحب كتاب « مراة الجنان وعبرة اليقظان » .. السيدة الولية ذات المقامات العلية والاحوال السنية ..

ويقول عنها ابن خلكان « كانت من اعيان عصرها واخبارها فى الصلاح مشهورة » ومن المدهش ، أو فلنقل ان من الطبيعى اننا لا نعرف شيئا مؤكدا عن حياة رابعة العدوية ، قبل ان تكون صوفية ، فلم يعن المؤرخون الا بهذا الجانب من حياتها ، وهو الجانب الصوفى ..

ومن المؤكد انها لم تولد صوفية ، لان المرء لا يولد صوفيا ، انما اكتسبت التصوف عن طريق تجاربها الروحية ..

وهكذا سلط القدماء الاضواء على حياتها الصوفية ، وبقى الجزء الاعظم من حياتها غارقا فى الظلام ..

وفى الظلام عادة تسمى الخرافة .. والاسطورة .. والعجائب ..

وهذا ما وقع لرابعة ..

ان ما ينسب اليها من عجائب اشبه بالخرافات منه بالحقيقة ، وقد تداخلت الروايات عن حياتها وتضاربت الاقوال عنها حتى اختلفوا فى ابسط تفاصيل الحياة والموت المتعلقة بها ..

ذكر ابن خلكان ان قبرها يزار ، فهو بظاهر القدس من شرقيه على راس جبل يقال له الطور ، وانكر ياقوت الحموى ان يكون هذا قبر رابعة العدوية ، وقال ان قبرها بالبصرة ، اما هذا القبر الذى يشير اليه ابن خلكان فهو قبر امراة اخرى تسمى رابعة ، كانت زوجة احمد بن أبى الحوارى الكاتب ، وقد اشتبه الأمر على الناس .

امتد الاختلاف الى حياتها ايضا كما امتد لمكان قبرها ..

قيل انها تابت على يد ذى النون المصرى .. فقد كانت تركب سفينة مع جماعة يشربون الخمر فاتفق ركوب ذى النون المصرى (المتوفى ٢٤٥

هجرية (هذه السفينة ، وطلبت رابعة من ذى النون على سبيل التهكم ان يسمعهم شيئا من غنائه كما إسمعوه فأنشد أبياتا ركيكة تابت بسدها رابعة العدوية على يديه ، وقد انكر المؤرخون هذه القصة لبعد المصرين رابعة وذي النون .. ورجحوا أن تكون القصة موضوعة ومختلقة .. فنحن لا نعرف ان رابعة العدوية زارت مصر ، وان كانت الاساطير قد ابتدعت لها قبرا بقرافة الامام يزار ويتبرك به ..

الشيء المتواتر عنها انها كادت تغني في سفن البصرة وتشرب الخمر ، وقد وقع هذا قبل توبتها ، ويذكر ماسينيون عن رابعة العدوية أن والى البصرة خطبها ، فلما دخل عليها قالت له « يا شهواني أطلب شهوانية مثلك » ..

يريد أن يقول أن رابعة العدوية انكرت على والى البصرة رغبته في زواجها لأنها اشتمت منها أثرا من آثار الاشتهاء ..

والقصة موضوعة ومختلقة ، فلم يكن والى البصرة بالذى يرضى ان يخطب امرأة تغني في مراكب الخليج وتشرب الخمر ، ولم يكن منطقيا من هذه المرأة أن تنكر الشهوات وهي غارقة فيها لأذنيها ..

نريد أن نقول أن الاساطير والروايات لم تترك رابعة العدوية في حالها، انما نسجت حولها ركاما من الاحداث ، حتى اختلط الصدق بالكذب ، والحقيقة بالخرافة ، وصار من المتعذر ان تكتشف الحقيقة الموضوعية او شيئا يقترب من الحقيقة الموضوعية ..

كل ما نعرفه ان حياتها قسمان ..

قسم قبل التوبة .. كانت فيه ما كانته ..

وقسم بعد التوبة .. صارت فيه عاشقة لله عز وجل ..

وقد اخطأ كثير من الباحثين في رابعة العدوية ، رغم ان هؤلاء الباحثين كانوا اصحاب عقول محترمة ..

مثلا .. ذكر الاستاذ ماسينيون عنها أن تحمسها لحياة الزهد أدى بها الى معالجة أحوال صوفية مختلفة ، والى البحث فى فروض دقيقة فى العمليات والعقائد ، وبهذا تعتبر رابعة عند الباحثين فى أمور الولاية والأولياء أعظم ولية .

وهذا الرأى الذى يراه ماسينيون لا يمكن قبوله على علاته ..

وهناك اكثر من سبب لذلك ..

ان التصوف كان فى بداية نموه ، ولم يكن معقولا ان تقفز رابعة العدوية فجاة الى معالجة احوال صوفية مختلفة ، أو البحث فى فروض دقيقة فى العبادات والعقائد ..

هذا سبب مانع فى حد ذاته ..

وثمة سبب ابلغ فى الدلالة على المنع ، وهو ان الآثار التى تركتها رابعة العدوية لا تدل مطلقا على انها عالجت احوالا صوفية أو بحثت فى فروض العقائد والعبادات ..

هذا اعتساف واضح وتحميل كلامها معان ينوء تحت ثقلها ..

ولننظر فى أبيات رابعة العدوية التى اشتهرت بها .. « أحبك حبين » لنرى هل يمكن ان تحمل هذه الأبيات الشعرية الأربعة مذهبا من مذاهب التصوف ، أو نظرية من نظريات العبادات مثلا ..

تقول هذه الأبيات أن رابعة تحب الله تعالى حبين ..

حب الهوى ، أو الحب البشرى ..

وحب آخر لأنه سبحانه أهل لهذا الحب ، يستحقه ابتداء سبحانه .

وتشرح حبها البشرى فتقول لنا ان حبها البشرى هو انشغالها بالله عمن سواه ..

أما حبها الالهى لله فتفهمنا ان هذا هو كشف الحجب لها حتى تراه سبحانه ..

ثم تستطرد فى تواضع فتقول انها لا تحمد على حبها هذا أو ذاك ،

فان الله تعالى هو وحدة المستحق للحمد فى ذا وذاكا ..

وتأمل الابيات يطلعنا على حقيقة جوهرية ..

لسنا امام نوعين من الحب ..

نحن إمام نوع واحـد من الحب ، وان كان يأخذ صـورتين هما فى حقيقتهما صورة واحدة ..

فهى مشغولة بالله عمن سواه ..

وهى تقف امام الحجب المكشوفة لتراه ..

ليس هناك حب بشرى وحب الهى ..

هناك حبها وحده لله ..

الصورة واحدة ، ولكنها على عادة الشعراء تبالغ فى تجسيم حبها ، وتراه فى مرآة العبقرية ، فاذا نحن أمام اكثر من صورة لها ..

وليس هناك فى الحقيقة غير صورة واحدة ..

أيضا لا تكشف الأبيات عن مذهب فلسفى كامل فى التصوف ، ولا تكشف عن معالجة فروض دقيقة فى امور العبادات والعقائد ..

انما تكشف الأبيات عن وهج عاشقة وشاعرة فى ذات الوقت ..

وقد انكر معظم الباحثين المعاصرين راى ماسينيون كالدكتور مصطفى عبد الرازق والدكتور عبد القادر محمود والدكتور مصطفى الشيبى ..

بل اننا لو تعمقنا البحث فسوف نكتشف ان هـذه الأبيات ذاتها ، والتى يدور حولها الحديث فى محاولة لتحديد حقيقة تصوفها ، منسوبة اليها ، يقول الكلاباذى ان هذه الأبيات لمجهول ، وليست لرابعة العدوية ، ويذكر الزبيدى أن هذه الأبيات الشعرية تنسب لسفيان الثورى كما تنسب لعبد الواحد بن زيد ، ومعنى هذا فى راى الدكتور عبد القادر محمود ان الأبيات التى تتضمن رأيها فى الحب مشكوك فى صحة نسبتها اليها ؛ بدليل شك الكلاباذى ، وعدم التفات الطوسى الى ذلك ..

كل ما يمكن قوله عنها انها كانت اول من استعمل كلمة الحب في العشق الالهي دون تهيب .. معتمدة على ورود كلمة الحب في القرآن .. وكان من قبلها يتحرجون من كلمة الحب في هذا المقام ..

وهذا رأى ماسينيون .. وهو رأى نعتقد في وجاهته ، فقد تميزت رابعة بكلامها في المحبة ..

وكانت من طائفة المسافرين الى ربهم .. كانت من الذين قعدوا على الحقائق وقعد من سواهم على الرسوم ، وكان عنوان طريقها هو الحب ، والمحبة دليل على صدق دعواها ..

ولفظة الحب في اللغة العربية تدور حول خمسة معان ..

١ ــ الصفاء والبياض .. يقول العرب حبب الأسنان اذا ارادوا وصفها بالبياض والصفاء ..

٢ ــ العلو والظهور .. ومنه حبب الماء وحبابه وهو ما يعلوه عند المطر الشديد ..

٣ ــ اللزوم والثبات ، وفيه يقول العرب حب البعير واحب اذا برك فلم يقم ..

٤ ــ اللب .. ومنه حبة القلب اى عمقه الداخل ولبه .. ومنه الحبة الواحدة ومجموعها الحب ، والحبة هى أصل الشيء ومادته وقوامه.

٥ ــ الحفظ والامساك ، يقول العرب احب الوعاء الماء اى امسكه وحفظه ..

وتعريف الحب عند العرب ينطوى على هذه المعاني الخمسة ..

فالحب عندهم هو صفاء المودة ، وعلو ارادة القلب لتعلقها بالمحبوب ، وثبات ارادة القلب على المحبوب ، واعطاء المحب محبوبه اشرف ما عنده وهو الحب او اللب ، وحفظ هذا التوهج على المحبوب ..

هذا رأى ابن قيم الجوزية في معنى المحبة ومنزلتها من التصوف ..

وعلى أيام رابعة العدوية .. لم يكن التصوف قد خرج من سذاجته الى التعقيد الفلسفي وصار مذاهب أو نظريات .. كان التصوف لم يزل فى بدايته ، وجاءت كلمات رابعة العدوية نقطا مضيئة من النور لا يجمعها خيط واحد سوى هذا الاستيلاء الكامل لفكرة الحب الالهى عليها ..

كانت شأن اى فنانة تشق طريقها فى الصخر ..

وكانت كلماتها تحمل عبق الفن والتوهج .. وتنوء باحزان غامضه كانت هى المناخ العام السائد أيامها فى المجتمع ..

لقد رأينا كيف تحول المسلمون الى الفتنة ، وكيف سار الى الشهاده ازكى الرجال وارقهم نفسا .. ورأينا كيف ارتفعت السيوف وهوت فى العالم العربى وهى تشق قلب البراءة ..

وصنعت الاحزان خيمة على الشيعة وشواهم من المسلمين ، وكانت رابعة تبكى فى جوف الليل تحت خيمة الأحزان ..

سئلت عن حقيقة ايمانها فقالت :

ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته بل عبدته حبا له وشوقا اليه..

قال الشعرانى : كانت رضى الله عنها كثيرة البكاء والحزن ..

وقد رأينا بدايات الشيعة والزاهدين وكيف شربت من امطار الحزن ودموع الاشفاق ..

وفى عصر رابعة العدوية .. وهو نهاية القرن الثانى للهجرة ، كان الاسلام قد انتشر وخفقت رايته فوق ثلث العالم ..

ولكن الاسلام نفسه كان ينسحب من نفوس الرجال والنساء فى نفس الوقت الذى كان ينتشر فيه فى الأرض ..

وكان هناك نموذجان اسلاميان يومئذ ..

نموذج يعبد الله خوفا من النار ..

سبب العبادة هو الخوف من دخول النار ..

ولم يستطع هذا النموذج احتواء مشاعرها المتوهجة .. لأن الخوف لا يثير فى الفنان اكثر من الرفض والتحدى ..

وكان هناك نموذج آخر يعبد الله طمعا فى الجنة ..

وكان المجتمع الاسلامى يومئذ قد رفع قيمة الطمع سواء فى ذلك الطمع فى الرئاسات او الحكم ، او الطمع فيما عند الله ..

ولم يستطع هذا النموذج احتواء مشاعرها كفنانة .. فالطمع لا يثير فى الفنان اكثر من الرفض والاستعلاء ..

واذا لا يبقى امامها الا ان تشق مجراها الجديد ..

لن تعبد الله خوفا .. ولن تعبده طمعا ..

هذه تصرفات الاجير الخائف او الأجير الطامع ..

تريد ان تعلو على النموذجين التقليديين الذائعين فى المجتمع ..

واختارت ما يختاره اى انسان يملك طبيعة فنية ..

انها تحب الله لأنها تحب الله ..

لا تخاف النار ولا تطمع فى الجنة ..

ثمة درجة أعلى فوق هاتين الدرجتين ..

الحب الخالص الذى يصعب على المحب فيه أن يتنفس ..

. . . .

كان عندها احد الصوفية يوما فقال : واحزناه .

وردت عليه رابعة العدوية مؤنبة : لا تكذب وقل واقلة حزناه ، لو كنت محزونا لم يتهيأ لك ان تتنفس ..

. . . .

لو توقفنا قليلا عند تصور رابعة العدوية للحزن .. فسوف نفهم انها

كانت امراة من طبيعة خاصة ..

طبيعة فنية خاصة .. انها تفهم الحزن فلا تراه هذه الكآبة التي تنتشر على سطح النفس وتجعل الانسان هادئا صامتا منزويا ..

انما تنظر الى الحزن فتراه فى ابعد اعماقه .. شيئا هائلا يمنع الانسان من التنفس ..

هذا الغلو فى الحزن يتفق مع غلوها فى الحب .

ويفترض كثير من الدارسين ان كلاهما فى الحب الالهى يستمد اصوله من المسيحية ، وهناك نص خطير للسيد المسيح تداولته امهات كتب الصوفية يدور معناه حول المعنى الذى اوردته الأبيات المنسوبة اليها فى الحب الالهى ..

ولست ميالا لهذا الرأى ، لأن تشابه نظرة واحدة من الصوفية مع كلام السيد المسيح (لو افترضنا صحة نسبته اليه) تشابه النظرتين لا يعنى ان احدهما اخذ من الآخر ..

والأصح هنا ان يقال ان الاثنين يستمدان من مصدر اصيل ..

والمسيحية التى انزلت على عيسى عليه الصلاة والسلام هى الاسلام الذى انزل على محمد عليه الصلاة والسلام هى اليهودية التى انزلت على موسى عليه الصلاة والسلام .. **(ان الدين عند الله الاسلام)** بمعنى ان جوهر الأديان جميعا هو التوحيد ..

وفى هذا ليس هناك اى خلاف بين دين الهى وآخر ..

وفهم الانسان لدوره فى الحياة وضآلته امام الكون والله يقودانه الى ادراك عظمة الخالق وضعف المخلوق ..

ولا يملك الضعف امام العظمة سوى الحب .. اذا اراد ان يتخلى عن الخوف والطمع ..

كان الحب هو الطريق الوحيد أمام رابعة العدوية .. بسبب طبيعتها

الخاصة المتاججة ، وظروف حياتها القاسية ..

ولا اتصور انها تاثرت بالمسيحية لان الاسلام والمسيحية يتشابهان في اصل العقائد كما انزلت من الله لا كما صارت اليه عند البشر ..

كل ما في الأمر ان رابعة العدوية ـ بفطرة الفنان ـ ادركت ان الخوف من النار فقط اهانة لعظمة الانسان .. والطمع في الجنة فقط سوء تقدير لعظمة الخالق ..

هذه اشياء .. الجنة والنار شيئان ..

وهي لا تريد ان تتطلع الى الاشياء ..

انما هي تريد .. من « ليس كمثله شيء » ..

وهي لا تخاف ولا تطمع انما تحب ..

والحب هو المجال الوحيد الذى يدع لعظمة الانسان قدرها من التواضع ويدع لعظمة الله قدرها من السمو والتعالي ..

اثارت اربعة ابيات . منسوبة لرابعة العدوية ، كثيرا من الجدل والخلاف ، ورأى فيها بعض المستشرقين نظرية جديدة في التصوف الاسلامي ..

وسوف نلتقي في بحار الصوفية بأبيات شعر عديدة ، وشعراء كثيرين ، وأدباء وكتاب ، ومن المدهش ، انه رغم مرور عشرة قرون او اكثر على بدء الصوفية وتطورها ، لم ينظر أحد من الباحثين الى الصوفي باعتباره فنانا .

انما كانت النظرة الى الصوفي دائما تعتبره رجل دين فحسب ..

وفي تصوري أن هذا ظلم للصوفية ورجالها ..

وسوف اشرح تصوري هذا وأقدم أدلتي عليه ..

ان الصوفي انسان .. والانسان هو المخلوق الوحيد الذى يروعه الفرق بين الاشياء كما هي ، والاشياء كما ينبغي ان تكون .. ومن هذا

الحنين للكمال يولد الفن .. والصوفى فنان بمعنى البحث عن الكمال ..

وليس فنانا بالمعنى المعتاد للفن ، أو المعنى المبتذل للكلمة ، وبهذا المنطق يخرج الفن الذى يرتبط بالغرائز او يثيرها من اجل الكسب ، ويخرج اداء الأعمال الفنية ، ويخرج الامتاع والتسرية ، تخرج كل هذه الانواع وامثالها من نطاق المعنى الذى اقصده ..

انما اقصد بالفن ابداع العقل الانسانى فى مجال الكتابة والشعر .. ونحن نعرف ان الكتابة والشعر تعبيران .. وكون الفن تعبيرا لا يعنى أنه تعبير مبسط عن المشاعر والاحاسيس فقط ..

انما نقصد هنا كل أدب او شعر رفيع يثرى قارئه ويزيد من تجربته ويسمو بمشاعره ويطهره كما يقول ارسطو .

والفن امر بالغ التعقيد كالانسان .. والانسان هو اكثر مخلوقات الله تركيبا وتعقيدا ، وليس خلقه بهذا الشكل الا دليلا على عظمة خالقه وقدرته سبحانه ، والفن موهبة يمنحها الله تعالى للانسان .. لحكمة يدريها هو سبحانه ، ويشبه الفنان رجلا دخل حجرة مظلمة .. حجرة لا يبدو فيها شىء ولا يظهر منها شىء .. ثم استطاع هذا الرجل ان يدير مفتاح النور ..

حين تسبح الحجرة فى الضوء يتغير منظرها على الفور .. تظهر فيها اشياء لم تكن ظاهرة ، ويتضح فيها ما كان خافيا ..

يشبه الفن هذه القدرة على اضاءة النور .. سواء كان النور داخلنا او داخل الآخرين او فى الحياة او فى الكون ..

ان اضاءة النور تعنى اسدال الستار على الظلام ، تعنى اطلاق طاقة الكهرباء ، والكهرباء طاقة ، ولكنها مجهولة تماما ، يدرس العلماء الآف الحقائق عن الضوء ، ولكن احدا من البشر لا يعرف سر الضوء .. ذلك العلم من شئون الخالق القوى العزيز الممتنع .

والفن سر يتوصل به الانسان الى الكشف عن مصدر الطاقة .. واضاءة الحياة .. وحين نقرا ونعرف يتسع وعينا للتجربة ، ونرى

افضل مما كنا نرى ..

وهناك فرق بين الرؤية الفنية والرؤية العادية ..

هو نفس الفرق بين العصفور والدودة .. والعصفور والدودة كلاهما خلق من خلق الله تعالى .. ولكن الدودة تسير على الارض ، او تسير تحت سطح الأرض ، تصنع لنفسها انفاقا فى طين الأرض وتسير .. أما العصفور فيملك القدرة على الطيران والتحليق .. ويملك القدرة على ان يرى مساحة اكبر مما تراه الدودة .. ولا فضل للعصفور على الدودة ..

فلا الدودة هى التى خلقت نفسها ملتصقة بالأرض ، ولا العصفور خالق نفسه قادراً على الطيران ..

الفضل هنا او هناك منسوب للحق .. عز وجل ..

والسر فى خلق الدودة دودة ، وفى خلق العصفور عصفورا .. هذا السر من أسرار الحق عز وجل ..

والفرق بين الرؤية العادية والرؤية الفنية هو الفرق بين رؤية الدودة ورؤية العصفور ..

يعيش معظم النوع الانسانى وذهنه مغموس فى مشاكل اللحظة الحاضرة ، ومتاعب الحياة اليومية .. لا يرى الا حاجات جسده ومشاكل نفسه .. وتجيء لحظة حاسمة ..

فينسحب هذا الانسان من كهفه الطينى ويطير وينظر ..

ان الرؤية الصوفية تتم حين يزاول الانسان نظرة عصفورية على الحياة ، اى حين ينسحب منها ولو للحظة واحدة ، فيرى منها قدرا اكبر ، بدلا من بقائه محصورا ضمن البؤرة الضيقة ، بؤرة نظرته الدودية للاشياء ..

وهذه الرؤية هى نفسها الرؤية الشعرية او الادبية ..

وليس الفرق بين تراث الانسانية الادبى والفنى وتراثها المعتاد غير

الفرق بين النظرة العصفوريه والنظره الدوديه ..

والصوفية هم الذين يملكون القدرة على الطيران والتحليق ورؤية الحقيقة ..

والشاعر أو الكاتب العظيم يملك نفس القدرة على التحليق ، ورؤية مساحة اكبر من الحقيقة ..

وليست مصادفة ان معظم الصوفية شعراء وكتاب ..

وميزة الكاتب العظيم حقا هي قدرة عقله على الوثوب من مستويات الانسان العادي ، وادراك القيم الشاملة ..

وحين يختزن الكاتب تجربة ما .. ويثبتها في ذهنه أو روحه ، ويعيد خلقها من جديد بأسلوب وشكل وتعبير يختلف عن التجربة ، حين يقع هذا للكاتب يقع مثله للصوفي ..

ان تجارب القرب من الله عز وجل تختزن .. ويجيء التعبير عنها في الشعر الصوفي .. يجيء التعبير عنها ، او عن المعادل الموضوعي لها ، فاذا نحن أمام تجربة جديدة ، ليست هي الصورة الفوتوغرافيـة للتجـربة الاصلية ، انما امام اضافة جديدة كل الجدة ..

ولو سالنا عن هدف الأدب والفن .. فسوف نتلقى عشرات الاجوبة ، ربما كان افضلها هو تاكيد الوعي الانساني ، واثراء تجاربه ، واضـافة الجمال الى الحياة ، والبحث عن الحقيقة ..

وتختلف الحقيقة عند الكتاب والشعراء ، تبعا لاختلاف حظوظهم من العظمة ، وكلما ارتقى الانسان ادرك ان الحقيقة هي الله .

وكلما زادت عظمة الانسان ادرك ان الله هو الخير المطلق والحق المطلق والجمال اللانهائي وذلك هدف الاداب الرفيعة والشعر العظيم . .

ومن الصعب أن تجد مفكرا رفيعا أو كاتبا انسانيا أو شاعرا كبيرا قد انصرف عن البحث عن الحقيقة ..

الادب العظيم يبحث عن الحقيقة ..

وكلما ارتقي الفنان الكاتب اقترب من الله عز وجل .. وكلما اقترب تحير وزادت دهشته وسجدت روحه ..

في الصوفية شعراء وفنانون يكابدون تجاربهم الروحية وهم يسعون سعيا الى الله ..

كيف ننظر الى تراثهم في الشعر ..

هل نعتبره فنا .. ام نعتبره دينا ..

لكي نجيب على هذا السؤال سوف نضرب المثال التالي :

لنفترض ان شاعرا قرا القرآن ، واعجبه احد المعاني في احدى الآيات ، وصاغ هذا المعنى شعرا .. كيف ننظر الى هذا الشعر .. هل نعتبره قرآنا لأن فيه جزءا من معاني القرآن ، أم نعتبره فنا ونلحقه بالشعر ونناقشه على هذا الاساس ..

ان الاجابة على هذا السؤال هي التي ستحدد نظرتنا الى شعر الصوفية وآدابهم والجواب بسيط رغم خطورة الآثار المترتبة عليه .

من الصعب ان نعتبر اي شعر عن القرآن قرآنا .. لأن القرآن قرآن والشعر شعر ، وليس القرآن شعرا كما قال مشركو مكة او منافقو المدينة ، ويجب ان نناقش هذا الشاعر الذي صاغ معنى من معاني آية قرآنية ، يجب أن يناقش باعتباره شاعرا لا باعتباره رجل دين ، ولا يجوز ان نستنبط من هذا الشعر حكما شرعيا ، انما يستنبط الحكم الشرعي من النص القرآني الاصيل ، كما اننا لا يمكن أن نتعبد بقراءة هذا الشعر ، وانما يجوز التعبد بقراءة الآيات القرآنية ذاتها ..

نمضي في مثالنا الى مرحلة أبعد ..

لنفترض ان هذا الشاعر الذي قرا القرآن ، واعجبه معنى من معاني آياته . وقرر ان يصوغها شعرا ، لنفترض انه لم يكتب المعنى القرآني تماما . وانما زاد فيه قليلا ، واضاف عليه من خياله ، وتحدث عن تجربة

سابقة له تؤكد ما يقوله ..

هل يناقش شعره على انه شعر رجل دين ، او يناقش على اساس انه شعر متصل بمعنى دينى .. ولكنه فى نهاية الامر شعر ..

. . . .

نريد ان ننظر فى شعر الصوفية ونناقشه بهذا المنطق ..

انه شعر متصل بالدين .. وليس شعرا لرجال الدين ..

والفرق بين المعنيين خطير ..

والسر فى كل المنازعات التى وقعت بين الصوفية انفسهم او بينهم وبين غيرهم .. هو ان الناس اعتبروا شعراء الصوفية رجال دين يقولون الشعر ، ولم يعتبروهم شعراء يتحدثون فى الدين .. وبسبب هذه النظرة الخاطئة قتل الناس شعراء صوفيين بتهمة الزندقة والالحاد .. وكانت تهمتهم الحقيقية هى اتساع الخيال وغرابته وعمق التجربة وتوهجها .

كما انه بسبب هذه النظرة اتهم رجال بما يخالف حقيقتهم ، لان الناس نظرت فى شعرهم وادبهم واعتبرته دينا وحاكمتهم على انه دين ، امام قضاة من رجال الدين ، وكان المفروض ان يحاكموا على انه شعر ، امام قضاة من النقاد والشعراء .

ان الدين معروف عند الله .. وهو الاسلام .. اسلام الانسان ذاته لله . ويدرك المسلمون ان دينهم يضمه كتاب هو القرآن .. والقرآن هو الكتاب الوحيد الذى يتعالى على التغيير والتبديل والمحو والاضافة والنقد والمناقشة .. اما غيره من الكتب فتخضع لما تخضع له الكتب من نقد وتحليل واضافة وتبديل ومناقشة ..

ويهذا المنطق سننظر فى الشعر الصوفى ..

ان الشعر الصوفى رؤية شعرية اولا .. وصوفية ثانيا ..

فى شكله الخارجى هو الشعر ..

ومضمونه الداخلي هو الحب الالهي .

وهذا الفن ينبع من فنان هو الصوفى ، وتجربة الصوفى رؤية ، وهى حال تعتريه ، ويصل اليها بالرياضـات الروحيـة والاعتزال والتجارب والتحليق ، وثمة تجربة غنية تجرى فى دماء روحه ..

والتعبير عن هذه التجربة تم بالشعر ..

جوهر المعنى رؤية ، بينما الشكل الخارجى فنى ..

ثمة مسحة من الفن فى الرؤية وفى الشكل الخارجى ..

والصوفى فنان له رؤياه الدينية ..

وليس كل فنان صوفيا .. الا اذا بلغ درجـة من الجدارة والتعمق الدينى .. واى رؤية صوفية ليست دينا ملزما ، ولا يجوز أن تكون ، ولا يصح أن تعامل معاملة الدين .

وسننظر فى الشعر الصوفى بهذا المنطق .

ما هو راى نيكولسون فى الشعر الصوفى ؟

ان رأيه كان فخا عقليا منصوبا دخله كثير من الدارسين فى التصوف .. وسنرى ان راى نيكولسون هو راى تقليدى اعتبر الصوفية رجال دين أولا ، وناقش شعرهم بعد فصله من الشعر ، والحاقه بالدين ، ولست أتهم أحدا بسوء النوايه ، ولكن الاسلام قد إنكهه هذا الخلط الذى يضيف اليه ما ليس منه ، كما انهكته الحرب بين الصوفية والفقهاء ، كما انهكته الخلافات بين الصوفية ذاتهم .. والحـرب والخلافات اصـلا مفتعلة ، لأن الصوفية أنفسهم يقولون أنهم أصحاب أحوال لا أصحاب أقوال .. وهذا يعنى أنهم أصحاب تجارب روحية ، ورؤى خاصـة ، ولهم فنهـم الخاص . ومن الخطأ اضافة هذه الرؤى الخاصة للاسـلام أو مناقشـتها كجزء من الاسلام ، الاسلام واضح بين له كتـابه ، وفى المسـلمين فنانون كبار . عبروا عن انفسـهم شعرا ونثرا .. ومنهم من تاه وشطح ، واضافة كل متاهات الصوفيه وشطحاتهم الى الاسلام ، لا يمكن أن تكون صداقة للاسلام .

هذا عداء مستتر يختبىء فى ظل بحث علمى رصين ..

يعترف نيكولسون فى مقاله عن الشعر الصوفى « انه ليس بين الأشياء التى ابتدعها الصوفية لتحريك وجدانهم الدينى ما هو أقوى من « السماع» اى الاستماع الى الموسيقى والغناء ، وفى أخبار الصوفية حكايات تربو على الحصر ، وتقص علينا كيف كانت تعترى الواحد منهم حالة الجذب عند سماع بضعة أبيات من الشعر تتغنى بها احدى الجوارى ، وقد كان ذلك الشعر عادة من شعر الغزل غير الصوفى ، وكثيرا مايتشابه النوعان فى الظاهر ، الى حد أننا اذا لم نقف بطريقة ما على غرض الشاعر ، لا نستطيع التمييز بين قصيدتين احداهما يتغنى صاحبها بالحب الانسانى والأخرى بالحب الالهى » .

يريد نيكولسون أن يقول هاتين الحقيقتين :

١ ــ أن الصوفية متصلون بأهل الغناء لأنهم اهل سماع .. اى أنهم متصلون بأهل فن الشعر والغناء والموسيقى .

٢ ــ ان الشعر الصوفى يتشابه مع الشعر غير الصوفى ، الى الحد الذى يصعب فيه على عقل ناضج مثل نيكولسون أن يفرق بينهما ..

بعد هاتين الحقيقتين ينكر نيكولسون ان يكون الشعر الصوفى وليدا لوعى فنى ادبى .. رغم ما فى قصائده من جمال النظم ورقة الاسلوب وأناقته ..

ونحسب ان هذا الحكم غير صحيح ..

ولو مضينا مع منطق الباحث نفسه فسوف ننتهى الى عكس النتيجة التى انتهى اليها ..

ان الصوفية يحبون السماع ، وهم متصلون باهل الغناء والشعر ، وشعر الصوفيين الذى يمتلىء بالغزل يشبه شعر غير الصوفيين فى مجال الغزل .. ومن الصعب التفرقة بينهما ..

كيف لا يكون الشعر الصوفى وليدا لوعى فنى وادبى هو بالقطع وليد وعى فنى يقع فى مجال الرؤية الدينية ..

هو فن دينى .. فن نبع من تأثر المسلم الشـــاعر بالدين ، ولكنه ليس دينا وليس فيه وحى كما يقول نيكولسون .

يميل نيكولسون الى القول بأن قصائد الصوفية « وضرب مثلا بجلال الدين الرومى وابن الفارض وابن عربى » كانت نتيجـــة لوحى احـوال الوجد الصوفى .. وانها تشابه فى عرف علم النفس الحديث ما يسمونه « الكتابة الآلية » ومن خصائص هذه القصائد الغريبة ان أوزانها وانغامها وأساليبها الرمزية ، كل هذه عوامل تساعد على انتقال احوال الوجد التى يشعر بها الشاعر الصوفى الى سامعيه ، ويزداد اثرها فى الســـامع اذا انشدت ؛ كما تنشد عادة ، فى حفلات الذكر مصحوبا بالموسيقى .. »

هذا راى نيكولسون ، وهو راى نعارضه لسببين :

١ — ان مسالة وحى احوال الوجد الصوفى هى نفسها حالات الالهام والاشتعال التى تعترى الكاتب او الشاعر حين يريد ان يعبر بالشـــعر او الكتابة .

٢ — ان تحديد خصائص القصائد الصوفية بانها تنقل احوال الوجد الى السامعين ، هو وصف ينطبق على الشعر عموما ، والاصل فى الشعر ان ينقل حال الشاعر ووجده واحتراقه الى السامعين .

وذلك اسلوب الفن وبغير هذه القدرة لا يكون الفن فنا ، او يكون ادعاء لصفة الفن دون حقيقته ..

اعلى طراز من الفنانين اذا هم الصوفية ..

وهم ارفع النماذج لان فنهم يتصل بالحقيقة المطلقة الخالدة .. فهم اهل بحث عن الله ..

اهل حب لله ..

وشانهم شان اى فنان يعبر عن حبه ان شعرا او نثرا ..

. . . .

اذا اتفقنا ان الصوفى فنان يجهده البحث عن الكمال الأعلى ، اى الله

عز وجل واذا اتفقنا ان الصوفى يعبر عن شوقه الى الحق تعبيرا تدخل فيه الصور الأدبية كالنثر والشعر ، اذا اتفقنا على ذلك ، فما هو حظ الصوفية من الفلسفة ..

سنعثر فى عالم التصوف على فلاسفة ، وسنعثر فى بحار الصـــوفية على اعداء الداء للفلسفة ، رغم ان فيهم فلاسفة بمعنى البحث عن حقائق الأشياء وحكمتها .. وسنعثر فى الصوفية على عقليات ناقدة اســتوفت حظها من معرفة اصول النقد ودقائقه . رغم هذا كله ..

فليس هنـــاك قانون عام أو قاعـــدة عامة يمكن تطبيقها على جميع الصوفية .. حتى كلمة الفن ــ بمعناها الرفيع الذى احترناه ــ لا يمكن اطلاقها عليهم بشكل عام .. فكل واحد فيهم نسيج وحده ..

وكل واحد فيهم فنان بمعنى من المعانى غير المألوفة او المتعارفة .. والفلاسفة فيهم ليسوا فلاسفة بالمعنى التقليدى للكلمة ، بالعكس .. ان فيهم من يرتدى ثياب الفلسفة ويمسك اسلحتها لضرب الفلسفة التقليدية وهزيمتها ..

ولو تأملنا ثلاثة نماذج للصوفية لأدركنا المعنى الذى نقصده ..

ان الغزالى .. وجـــلال الدين الرومى .. والحلاج ثلاثة نماذج من الصوفية .. وهب الله تبارك وتعالى كل واحد من الثلاثة موهبة البحث من الحقيقة الالهية .. ورغم أنهم جميعا صوفيون ، الا أن كل واحد فيهم يختلف عن الآخر بشكل محدود وواضح ..

عرف الغزالى باسم حجة الاسلام ، لانه استخدم عقله الناقد الجبار فى ضرب الفلاسفة وعلماء الكلام والانتصار للتصوف السنى القائم على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

اما جلال الدين الرومى فيسمونه شاعر الصوفية الأكبر لان موهبته كشاعر قد استخدمت فى التغنى بالحب الالهى استخداما بالغ الروعة .

اما الحلاج فقد قادته موهبته الى شطحات انهت حياته بالقتل .. واسندت على اسمه اكثر من تهمة اقلها الزندقة ..

وللثلاثة انتاجهم من الكتابة والشعر ..

كان الغزالي عالما وكاتبا حمل لواء الدعوة لحقائق الاسلام ..

وكان الرومي والحلاج شاعرين تغنيا بالحب الالهي ، على اختلاف في درجة الموهبة ومضمون الفن .

يقول الصوفية عن انفسهم انهم ارباب احوال وليسوا اصحاب اقوال ..

ومعنى العبارة ـ طبقا لرؤيتهم ـ أنهم لا يريدون أن يحاسبوا على اقوالهم ، وانما على أحوالهم .. من معانى العبارة أيضا ـ طبقا لرؤيتنا ـ انهم يريدون نفي صفة الفن عنهم .. والايحاء بأنهم لم يقصدوا بكلامهم أن يتكلموا فحسب كما يفعل الفنانون ، وانما كان كلامهم تعبيرا عن أحوال وتجارب تذوقوها ..

وهذا كله مفهوم ومقبول ..

وربما كان الفرق الناعم الرفيع بين الصوفي والفنان ان الصوفي اذا تكلم فانه يتكلم غير قاصد انتاج الفن ..

اما الفنان فيقصد انتاج الفن .

عدم اتجاه القصد الى انتاج الفن يبدع فنا لا مثيل له .. تماما مثلما تفيض احدى ازهار الفل بعطرها دون أن تقصد أو تريد ..

هذه العفوية هي التي جعلت من تراث الصوفية الأدبي والشعري فنا لا يقارن به شعر او ادب آخر ..

واذا كان الفنان يرفض أن يستسلم وينجرف لمتطلبات الحياة اليومية ، بغية اكتشاف حقيقة اعلى ، فان الصوفي يفعل اكثر من ذلك بهدف اكتشاف نوع اكثف من التجربة الروحية ..

والانسان يعيش عادة في الحياة مشدودا لأهداف معينة ، واحيانا تسجن الاهداف المادية الانسان داخلها ، وهذا هو السير في الحياة على غير هدى ، حتى لو كان الانسان يحقق اهدافه في الثراء أو السلطان أو السيطرة

.. هذا كله ــ رغم النجاح المادى ــ سير فى الحياة على غير هدى ..

وفى اللحظة التى يقنع الانســـان وعيه بالتوقف عن السير على غير هدى .. فى اللحظة التى يدرك فيها الانسان ان الحياة ليست هى الانحصار فى الوجود المادى .. وليست هى ذاته ومتطلبات هذه الذات .. فى اللحظة التى يتخلى فيها الانسان عن نفسه ، ويوجه عقله نحو اوسع معنى ممكن لتجربة الحياة ..

فى هذه اللحظة يولد الفنان .. ويبدا انتاج الفن ..

اذا ادرك الفنان انه ينتج الفن بهدف انتاج الفن .. فنحن لم نزل فى منطقة الفن ..

اما اذا تجاوز الوعى الفنى ذاته متجها الى الله تعالى .. فنحن ندخل بحار التصوف ..

وهى بحار تتجاوز فيها التجربة الفنية حدود الحياة المادية كما تتجاوز حدود التجربة الانسانية ، فى محاولة للاتصـــال بخالق الحياة والتجربة سبحانه وتعالى .

ولهذا السر .. سوف نجد فى الشعر الصوفى مذاقا ليس له وجود فى شعر الغزل ..

وليس صحيحا ما يقوله نيكولسون ان الشعر الصوفى والشعر الغزلى يتشابهان الى الحد الذى يجعل التمييز بينهما صعبا ، الا اذا وقفنا على غرض الشاعر .. ليس هذا صحيحا ..

الصـــحيح ان بينهما فروقا جوهرية .. وهى فروق يخفيها شكل القصيدة ولكن مضمونها يكشف عنها من القراءة الاولى ..

ان الشاعر الذى يتغزل فى امراة او يصف صورة حلوة من صـــور الوجود الانسانى ، ينفصل عن المراة او الصورة ليعبر عنهما ، وانفصاله لازم لانتاج الفن ، اما الصوفى الذى يعبر بالشعر عن تجربة ما .. فانه يتصل بالاشياء اتصالا غامضا ، ويتخلص من اواصر نفسه بهذا الاتصال .

وعلى حين ينفصل الفنان عن ذاته ليؤكد ذاته .. ينفصل الصوفى عن ذاته لتأكيد حقيقة أكبر من ذاته ..

وهذا التجريد يجعل الشعر الصوفى صعبا وغامضا ورمزيا ..

وصحيح أن الشاعر والصوفى الشاعر يستخدمان احيانا نفس المصطلحات .. كالخمر .. والشعلة .. والجمال .. والحسن .. والكاس .. والحبيب .. هذا صحيح ..

ولكن .. نحن نعرف أن اللغة الانسانية اشارة الى شىء ..

وعلى حين يشير الشاعر لشىء .. يشير الصوفى لمن ليس كمثله شىء .. هذا الفرق يجعل شعر الصوفية فنا ليس له مثيل ..

يقول محمود شبسترى ..

الخمر والشعلة والجمال كلها للحق مجال ..

هو الظاهر فى جميع الصور ..

الخمر والشعلة للعارف جذبة ونور ..

فاشهد الجمال غير الخفى على احد ..

يريد الشاعر الصوفى أن يقول ان كل ما فى الوجود من جمال .. هو مجال لتجلى الحق بالجمال .. هو الظاهر فى جميع الصور .. كل الوان الحسن تستمد الجمال منه .. هو سبحانه وتعالى الذى يوصف بالكمال الأعلى ، وهو سبحانه الذى يضفى على الجمال حظه من الجمال :

الخمر والشعلة والجمال كلها حضور ..

فاحذر الاهمال فى معانقة هذا الجمال ..

واشرب خمر الفناء لعلها فى لحظة ..

تخلصك من أواصر النفس ..

اشرب الخمر فكاسها وجه الحبيب ..

يتحدث الشاعر الصوفى فى هذه الأبيات عن حضور الخالق سبحانه وتعالى فى كل مجالات الجمال ..

ويتجاوز الشاعر الصور الى المصور المبارىء ..

ويحاول أن يتصل بمالا يمكن الاتصال به ونحن أحياء .. ولهذا يشرب الشاعر خمر الفناء والمحو .. اذا تخلص من أواصر نفسه فهذا معناه أنه فى الطريق الصحيح الى الله ..

وهذا الفناء عن الذات وتأكيد الحق .. هو جوهر التجربة الصوفية . وليس للشاعر الصوفى صلة مباشرة بالفلسفة وان بدا أحيانا وهو يتدثر بثياب الفلسفة ، انما يدع الشاعر الصوفى قلبه يفيض بالمعانى المتعلقة بذلك الحب القاهر ، لأن الحب هو الأساس الحقيقى الذى قامت عليه الحياة وانسجم به ميزان الكون ..

. . . .

يقوم الفكر الصوفى على أساس فكرة الحب ..

حب الله تعالى للانسان .. وحب الانسان لله عز وجل .. وقديما طرح السؤال الازلى ..

لماذا خلق الله العالم ، وهو سبحانه ليس محتاجا الى العالم ؟

اختلفت اجابات السؤال منذ أفراد النوع البشرى ، ولم يناقش السؤال كثير من الناس ، وان خطر على قلوبهم ، وظل السؤال يتنقل من عقل الى عقل .. حتى وصل الى الصوفية .

واحال الصوفية السؤال الى القلوب قالوا ان ادراك سر خلق العالم ، وهو شيء كلى ، ادراك ذلك بعقل الانسان الجزئى أمر مستحيل ..

هذا السؤال ليس فى قدرة العقل أو تخصصه أن يجيب عليه ، هذا اختصاص القلوب ..

ان الله تبارك وتعالى ليس محتاجا الى العالم ، ورغم ذلك خلق العالم

لماذا خلقه ان لم يكن هذا الخلق فيضا من فيوض الحب الالهى والرحمه ..

يورد القرآن الكريم نصاً فيه اجابة على سؤال خلق العالم ..

يقول تعالى :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبـــدون ، ما اريد منهم من رزق وما اريد أن يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

تحدد الآية الكريمة هدف الخليقة بالعبادة ..

عبادة الله تعالى ..

اليس شرفا أن يأذن الله لمخلوقات من تراب أو نار بأن تعبده سبحانه ، اليس تشريفا لتراب أن يرتفع لمقام الحب ..

ان عبادة الله تعالى تعني الحب والطاعة ، اذا نظرنا اليها من جانب الانســان ، فاذا نظرنا اليها من جانب آخر ، كانت مجدا حقيقيا للانسان .

او بعبارة أصح .. هى المجـــد الحقيقى الوحيد .. وما عداه وهم وصور .. مثلما أن الله هو الموجود الحق ، وما عـداه صـور تظهر ثم تموت ..

يدرك الصوفى أن الله تعالى خلق الانسان لانه يحب الانسان ولهذا يبدأ سباحته فى بحار الحب الالهى على الفور ..

يقول جلال الدين الرومى ..

ها هو .. قد طلع بدرا لم تر السماء له نظيرا فى حلم او يقظة وحوله هالة من النار الأبدية لا يقوى اى طوفان على اخمــادها يا رب .. لقــد اسكرتنى خمر حبك وتهدم كل شىء فى بيت جسمى الطينى لقد عمل الحب بيده القوية فى هدم بيوت الظلام من سقفها الى ارضها .. فلا يتسرب اليها الا بصيص من الأشعة الذهبية خلال الشقوق ..

وحين لاحت لقلبى لجة الحب .. القى قلبى بنفسه فيها .. وسمعت « لن ترانى » .

لا اريد ان اعقب بشيء على ابيات شاعر الصوفية الاكبر .. اى تعليق عليها يفسدها .. نحن أمام عطر يتصاعد أريجه من زهور الحب .. وهو عطر لا يمكن تفسيره الا اذا اعترفنا ان الحب هو سر الوجود وعلته الأولى عند الصوفية ..

يقول عبد الرحمن جامى ..

« فى الوحدة ، حيث الوجود الموحش ، وحيث العالم سر فى باطن الحق محتجب باستار العدم ، كان « الوجود المطلق » المنزه عن « انا » و « انت » وعن كل اثنينية ، لم يكن ذلك الجمال معروفا الا لذاته ، تجلى لنفسه فى نفسه بنوره الأزلى ، وفيه من القوى ما يبهر العقول جميعا .

ولكن الجمال يأبى البقاء مختفيا ، لا تراه عين ولا يسعد به قلب .

لذلك فك عقاله وانطلق يفيض على الكون .. بصورة كل جميل . تلك طبيعة الجمال ، وذلك اصله ..

فاض على الوجود من عالم الطهر والصفاء ..

سطعت شمسه على الأكوان وملأت ما فيها من النفوس ..
كل ذرة فى الوجود مرآة تعكس صورته ..

تتفتح عنه الأزهار .. وتشدو به الطيور ، ويستمد النور من ناره الضوء الذى يجذب الفراش الى اقداره ..

حذار ان نقول هو الجميل ونحن عشاقه .. فلست الا المرآة التى تنعكس عليها صورته ويرى فيها وجهه .

هو وحده الظاهر وانت الباطن ..

والحب المحض ــ كالجمال المحض ــ ليس الا منه ، وهو يتجلى لك فيك ، فاذا لم تستطع ان تنظر الى المرآة ، فاعلم انه هو المرآة ايضا ، هو الكنز وهو الخزانة .

اما « انا » و « وانت » فليس لهما محل هنالك ..

تلك اوهام خادعة لا حظ لها من الوجود .. »

يريد الشاعر الصوفى أن يقول ان كلمة « أنا » و « انت » ليس لهما محل هناك او يريد أن يقول أن كلمة « أنا » و « انت » أوهام خادمـــة ولا حظ لها من الوجود .. او يريد أن يقول ان الوجود الحقيقي هو الله ..

ويشير معظم شعر الصوفية فى مضمونه لهذه الحقيقة الكبرى .. ورغم اتحاد الشعراء فى المضمون الا ان اختلافات الاحوال التى تتعاقب عليهم ، واختلاف حظهم من الحب والشوق والفناء والصحو وموهبة التعبير ذاتها يجعل شعرهم يختلف من حيث الشكل .

ومهما يكن من امر فان شعر الصوفية هو سر عظمة الآداب التى ينتمى اليها الصوفيون ..

يرى الباحثون أن الشعر الصوفى الفارسى هو سر عظمة الادب الفارسى .. ويرون أن اجمل ما فى الشعر العربى هو الشعر الصوفى ، أو يرون أن ارفع ما فيه هو الشعر الصوفى ..

ويدرس النقاد اشعار الصوفيين الفارسيين مثل أبى سعيد بن أبى الخير ، واشعار فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومى ، وعبد الرحمن جامى ، وفى اللغة العربية يرون أن قصـــائد ابن الفارض ترد فى الطبقة الأولى منه ، وهناك قصـــائد ابن عربى التى يرى نيكولسون انها تمتلىء بالجمال رغم امتلائها بالغموض .. اما الشعر التركى فأجمل ما فيه شعر النسيمى الذى كان من المعجبين بالحلاج ..

واهم خصائص الشعر الصوفى هى أهم الفروق بين شعر الصوفية والشعر البحت ، ان مشكلة القضاء والقدر ، ومشكلة معنى الوجود ، ومشكلة الشر ، من المشاكل العويصة التى حار فيها الشعراء ، وهى فى ذات الوقت من الامور المحلولة عند الصوفية ..

يرى الخيام بعد سياحته فى الكون انه قد عاد بجراب يمتلىء بالسخط . من الذى يخبره لماذا جاء الى الحياة ، ومن أجل ماذا يفارقها ، من الذى يخبره من أين جاء والى اين سيذهب ، وما هى حال الذاهبين يا ترى ، وانت ايها الروح .. من اجل اى شىء سكنت فى هذا البدن ، ما دمت لنوى

الرحيل على اية حال . . .وماذا كان قصد من خلقنى وأحسن صورتى ثم القانى على المسرح الترابى ، لماذا يهلكنى بعد ذلك ويفنينى ، كأنه الخزاف يتأنق فى صنع القوارير ثم يضرب بها الأرض . .

وهذا الكون الشاســـــع ما بدؤه وما نهايته ، كيف شرع الفلك يدور كأنه الطاس الذهبى ، وكيف سيندثر وينهار كأنه البناء الشامخ . . الغاز وراء الغاز تحير فيها الخيام وطفت حيرته فى رباعياته . .

جاء بى فى البدء مضطرا الى دنيا التراب

حائرا ما ازددت فيها غير جهل واضطراب

ثم وليت برغمى . . غـــير دار فى ايابى

لم قد كان مجيئى . . ومقامى . . وذهابى

نحن أمام شاعر يسأل عن حكمة الوجود وسبب الخليقة . . ويتجاوز السؤال الى الشك فى فائدة كل شىء . .

ما افاد الفلك الدوار ربحا من حيـــاتى

لا ولا زاد جمـــالا او جـــلالا بوفاتى

انا لم اسمع مدى عمرى فى دار الشتات

ما هو المقصود فيها من حياتى ومماتى

لا يدرك عمر الخيام سر حياته ولا يعرف سرا لمماته . . وهذه الحيرة تسلمه الى الخمر والشراب . . ويحتسى الخمر فيرى الدنيا من خلال كأسه . . فاذا بلغته انباء الدين الذى يأمر بالعـــدل وينهى عن غياب العقل ، صاح الخيام . .

ليست الدنيا مقـــاما لك او دار مثاب

فلبيب من غـــدا فيها ولوعا بالشراب

صب من ماء ابنة الكرم على نار الاسى

قبل ان تلقى وفى كفك ريح فى التراب

هذه المشكله التى يحلها شاعر كعمر الخيام بالشراب والشك والاحساس بانه مجبور جاء رغم انفه ، مجبور سيمضى رغم أنفه ، هذه المشكلة تاخذ شكلا آخر فى أشعار الصوفية ..

ان الحيرة عند الشعراء .. تتحول الى سلام عند الشعراء الصوفيين .. ليست هناك حيرة وتنافر ، ثمة انسجام ويقين ، فالصوفى يعلم أنه لم يات مضطرا الى دنيا التراب ، انما جاء لحكمة عليا هى العبادة ، والعبادة حب لا يرى فيه المحبوب غير وجه الحبيب ..

والعبادة مجد لا يناله الا كبار العاشقين للحق ..

ومشكلة القضاء والقدر التى فتت فيها الخيام ذهنه محلولة تماما عند شاعر كجلال الدين الرومى .. وأسرار القدر المجهولة عند الشعراء معروفة عند الشعراء الصـــــوفيين .. فبمقدار حب المرء لربه يكون علمه بأسرار القدر ، لأن الحب اسطرلاب يكشف اسرار السماء ، وهو الكحل الذى تكتحل به عين القلب فينجلى بصرها كما يقول جلال الدين الرومى .

والحب عند الشعراء الصوفيين هو الذى يرينا الشر خيرا ، او على الاقل يرينا الشر شرطا اساسيا لظهور الخير ، كما يبين لنا أن الشر لا وجود له على الاطلاق فى نظر الله .. أو بتحـــــديد أدق .. ليس الشر أمرا بغير حكمة ، وليس ظلما يعيب الكون ، انما وجوده سر لاظهار الخير ، فمن طريق هزيمة الشر نصل الى الخير ..

الشر عند الصوفية طريق تسير فوقه نعالهم احتقارا له .. من أجل الوصول الى الخير ومن كمال الحب أن تتحـــــد ارادة المحب والمحبوب ، وبهذا يذوب الفرق بين الجبر والاختيار ، وهذا هو معنى القدر عندهم ..

يقول جلال الدين الرومى ..

« من اجل الحب كرهت كلمة الجبر .. فان المجبور لا حب له ..

والحب الذى هو غاية القرب من الحق لا جبر فيه ..

هو ضوء شمس ساطع لا ظل سحابة قاتم » ..

ليس معنى هذا ان قلق الشعراء وحيرتهم امر يفتقر اليه الشعراء الصوفيون .. وليس معنى هذا ان نظرتهم الى الحياة وغرضها ليست معقدة ولا مركبة وليس فيها هذا التركيب الفنى ..

هناك بناء بالغ التعقيد فى شعر الصوفية ، وهناك قلق وحيرة ، ولكن هذا كله يقود الى سلام نفسى عظيم .. يقود الى خمر الحقيقة المعنوية ..

يقول جلال الدين الرومى ..

مجهول انا عند نفسى .. بربك خبرنى ما العمل

لا الهلال ولا الصليب معبودى .. ولا انا كافر ولا يهودى

ولا فى الشرق ولا فى الغرب موطنى .. ولا لى قريب من ملاك ولا جن

ولا طينتى من تراب ولا طل .. ولا صورتى من ماء ولا زبد

ولا بالصين ولا بسقسين ولا ببلغار مولدى

ولا بالعراق ولا خراسان ولا الهند ذات الانهار الخمسة منبتى

ولا طردت من عدن ولا يزدان .. ولا من آدم اخذت نسبتى

بل من مقام رفيع المقام .. وطريق خفى المعالم

تجردت عن بدنى وروحى .. فمن جديد احيا فى روح محبوبى

ينكر الشاعر الصوفى أن ينسب نفسه الى الاماكن أو الاشخاص او الصور أو الأديان او العقائد او البلدان أو الانهار ويثبت نسبه متصلا بشيء واحد .. انه يحيا فى روح محبوبه ..

انه يحب الله تبارك وتعالى .. هذا نسبه الوحيد .. ولان الصوفى منتسب الى الحب الالهى ، نرى مشكلة الموت تأخذ حجمين مختلفين عند

الشعراء والشعراء الصوفيين ..

كان احساس الخيام بالموت يختلف كل الاختلاف عن احساس جلال الدين الرومى بالموت ..

وقف الخيام وسط حيرة قائلة وقلق قاتل ، واذا الظلمة الموحشة تتكشف عن شبح هائل مروع ، ينعقد لرؤيته لسان الخيام ، ويسد عليه مسالك الحيلة ويتعطل التفكير .. شيء لا كالأشياء ، جبار مخوف يلتهم كل شيء .. هو الموت ..

يقول الاستاذ عبد الحق فاضل فى دراسته الممتعة عن الخيام أن شبح الموت كان يتمثل لعينى الخيام حيثما التفت .. فهذا جسدك كان طينا لاجساد الغابرين ، وسيصير طينا لاجساد الآتين ، وهذه حياتك ليست الا موتا ، ففى كل ليلة يموت منها يوم .. وسوف تأكلك الارض فيما بعد كما تأكلها اليوم ، فان كان غرك انها لم تأكلك بعد فاصطبر ، فما فات الأوان ..

صار عبق الموت يفوح أمام الخيام فى كل مكان وكل زمان وكل شيء ..

أصبح الخيام يرى الاجساد فى كل جماد ، يمشى على الأرض فيشفق ان يطأ العيون الناعسة والثغور اللعساء ، ويضع شفته على كاس الخمر الخزفية فيتوهم انه يقبل ترابا كان فى الاصل شفة كاعب حسناء ، تكلمه وتذكره انها كانت مثله ، ويرفع الخيام رأسه الى شرفات القصور فيرى فى لبناتها كف مليك أو رأس وزير ..

اذا وقعت عيناه على كوز خزفى قال انه انسان باعتباره ما كان ، واذا ابصر انسانا قال انه كوز باعتبار ما سيكون ، واذا شاهد الوجه الجميل تذكر انه سيدفن فى التراب فتنمو منه الزهور ، واذا نظر الى الزهور قال انها نبتت من الوجه الجميل . ورب طين يركله الانسان بقدمه فيسمعه الخيام يقول مستعطفا « لقد كنت مثلك فارعنى وارفق بى » ، أو يسمع الطين يهدد الانسان قائلا « لا تركلنى فغدا تذوق الركل مثلى » ..

فيا ويح الخزافين يصفعون الطين ويلكمونه غافلين ، وما يدرون أنه تراب الآدميين انظر الى هذه الوردة الرائعة ، تستيقظ مع الفجر وتقص حكاية لنسيم الصبا ، فما تكاد تتم حكايتها حتى تنتفض انتفاضة الموت وتهوى ، أفهكذا فى عشرة أيام فحسب ، تنبثق برعما صغيرا حيبا كالطفل الوليد ، ثم تنمو كما تنمو الصبية الكاعب ، ثم تكتمل كما تكتمل الغادة الناهد ، ثم تموت .. يا لغدر الدهر ..

هذا موقف الشاعر من الموت ..

ما كره الخيام شيئا كما كره الموت ، ولا هاب شيئا كما هاب الموت ولا شغل فكره شيء كما شغله الموت ..

يقول الخيام ..

حللت مشكلات الكون كلها

ووثبت من كل احبولة نصبها الخداع لاقتناصي

وفضحت كل الأسرار ..

الا سر الموت ..

وبسبب هـــذا الموقف من الموت ، وربما بسبب الموقف من الحياة ، تساءل الخيام عن جدوى الوجود بعد ان ذهب الشباب ، وحلت الأحزان .

ويرى أنه لم يبق الا الأسف على العمر الذى مضى عبثا كما تمضى ليله السكر ، ويصل الخيام الى أننا لعبة بيد الفلك ، لعب بنا برهة على مسرح الدهر ، فى حياة كلها خيبة آمال وقنوط ، ثم جمعتنا يده الجبارة واحدا واحدا وألقتنا فى صندوق العدم ..

ليت الانسان يعود بعد دهور الى الحياة ، ولكن هيهات ..

. . . .

اذا كان الشعر البحت يقول عن الموت انه غدر الدهر .. فان الشعر الصوفى يرى فى الموت رأيا آخر .. ربما لأنه يرى فى الحياة رأيا آخر ..

لا ينظر الشعر الصوفى الى الموت هذه النظرة المتشائمة التى ينظر بها عامة الناس او عامة الشعراء ..

ليس الموت عند الشعراء الصوفيين نهاية حياة سعيدة ، وانما هو مقدمة حياة خالدة .. وبداية انطلاق أكبر فى سلم الخليقة .. والعمران لا يكون الا بعد خراب .. والكنز الثمين لا يستخرج الا بعد حفر الأرض واثارتها ، فاذا رأيت بيتا يهدم ويخرب ، فاعلم أن هناك بناء جديدا ، واذا رأيت أرضا تحفر فاعلم ان هناك كنزا وراء هذا النقص ، والشجرة لا تعطى الثمار الا حين تتفتح وتسقط الأزهار .. وحين تسقط الأزهار وتموت تبدأ حياة الثمار الجديدة ، وكذلك الروح لا تقوى ولا تلبس كسوة جديدة حتى يتهدم الجسد الفانى ، ويخلع العمر البالى .. والله تعالى هو الجواد المطلق ، وهو لا يسلب نعمة الا ويعطى نعمة أكبر منها فاذا سلب الحق تعالى الحياة الضعيفة السقيمة ، أعطى بدلا منها حياة أوسع وأبقى وأجمل وأرقى ..

يقول جلال الدين الرومى ..

« لماذا هذا الاشفاق من الموت ، ولماذا هذا الفرار من الأجل ، انك لم تزل فى انتقال من مرحلة الى مرحلة ، ومن عـــدم الى وجود ، ثم من وجود الى عدم ، ولم تزل تخلع لباسا وتلبس لباسا حتى وصلت من العناصر الأربعة الى القالب الانسانى ، فاذا تشبثت بحالة وتمسكت بها ورفضت الانتقال منها الى حالة اخرى ، بقيت على بدايتك ، ولم تصل الى قمة الانسانية وذروة الكمالات الروحية والعلمية ..

ان الانسان لم ينل البقاء الا عن طريق الفناء ، فلماذا تفر يا هـــذا من الفناء الجديد الذى هو مقدمة للبقاء الخالد .. ولماذا تتمسك بهذه الحياة وتلتصق بهـا مع انهـا تخلف حياة لا زوال لها ولا خوف فيهــا ولا احزان بها ولا متاعب ..

ان هناك فرقا بين موت وموت .. فالعارفون لا يقـــاس موتهم على موت الجهـــلاء والعامة .. ان العارف لا يتوجع لمفارقة هـــذه الحياة ولا يحزن ..

ان الموت عند العارفين نفحة حياة » ..

. . . .

اذا كان الموت يخيف الانسان لانه محو لذاته او فناء لها .. فان الصوفي يسعى خلال حياته لمحو ذاته وفنائه ..

وهكذا يهرب الانسان من الموت ، ويهرع الصوفى الى الموت .. وهكذا يقول الصوفيون فى كلماتهم الغامضة الموحية ..

« موتوا قبل أن تموتوا » ..

فمن هذا الموت تولد الحياة الحقيقية

ويقصد الصوفيون بالموت هنا .. موت الرغبة فى الدنيا .. وفى الخلائق والعلائق .. وفى كل السوى .. أى كل ما سوى الله عز وجل ..

وفى هذه المرحلة ترد على الصوفى الكرامة ..

. . . .

والكرامة من المسائل التي تثير الخلاف عند خصوم الصوفيين وعند بعض انصارهم ، يجحدها الخصوم وينكرها بعض الصوفيين أنفسهم والأفضل أن ننظر فى موضوع الكرامات قبل ان نخوض فى بحار القوم ..

ها هو ابراهيم بن أدهم ..

صوفى كان يعيش كالملوك قبل أن ينطلق فى الصحراء بحثا عن الحقيقة .

تقدم الفقر واستولى على ملابسه وسيفه الذهب وعباءته المرصعة بالجواهر .. ولم يترك له الفقر غير رداء واحد من الصوف الخشن المزق .. ابراهيم بن ادهم جالس على شاطىء النهر وقد أخرج الابرة والخيط ليخيط ثوبه الممزق ..

ها هى الابرة تنزلق من يده الى النهر ..

ضاعت وضاعت معها فرصته فى رتق ثوبه .. أى فقر بعد هذا ..

فى المشهد رجل يتأمل ما يجرى امامه .. كان هذا الرجل يعرف ابراهيم حين كان بالغ الثراء .. ويقول الرجل فى نفسه .

ـ سبحان مغير الاحوال .. كان إبراهيم غنيا وصار فقيرا يثير الشفقة .. حين انتهى الرجل من الاعتراض فى قلبه على حال ابراهيم بن ادهم .. نظر ابراهيم بن أدهم الى مياه النهر وقال ..

ـ أين الابرة .

وعلى الفور خرجت من النهر الف سمكة ، كل سمكة فى فمها ابرة من الذهب ..

قال ابراهيم : أريد ابرتى ..

وخرجت من النهر سمكة تمسك الابرة ..

وادرك الرجل الذى اعترض على فقر ابراهيم بن أدهم ، انه لم يكن يدرك الى أى حد بلغه ثراء ابراهيم بن أدهم .

هذه كرامة من كرامات ابراهيم بن أدهم ، وربما عثرت عليها منسوبة لصوفى غيره ..

وهذا الامر كثير الحدوث فى الحياة الصوفية ، أعنى نسبة الكرامة الواحدة لأكثر من صوفى ، أو ادعاء صدور الكلمة الواحدة من اكثر من صوفى ، ونحن نحسن الظن بأهل التصوف ، ونعتقد ان تلاميذهم هم المسئولون عن اضافة هذه الهالة عليهم .. سواء كانت الاضافة بحق أو غير حق ..

وموضوع الكرامات هو الخطوة الثانية بعد موضوع المعجزات ..

والمعجزات تصدر من الانبياء ، اما الكرامات فتصدر من الأولياء ..

وموضوع المعجزات واضح ، والأصل فى المعجزة انها امر خارق يأمر الله تعالى بوقوعه على يدى نبى من الانبياء او رسول من الرسل ، لتصديقه واقامة الحجة على قومه .

وتختلف معجزات الأنبياء من حيث نسبة الخوارق فيها ، فى الانبياء من كانت معجزته طوفانا أغرق الكافرين ، وفى الأنبياء من شق الله تعالى له البحر أو احيا له الموتى ، وفى الانبياء من كانت معجزته ناقة ، وتشترك

جميع معجزات الانبياء السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها مؤقتة بزمان معين ..

فشق البحر او احياء الموتى امران خارقان لم يعاصرهما غير اهل هذا الزمان البعيد .. على حين تنفرد معجزة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدوام .. فقد شاء الله تعالى أن تكون هذه المعجزة كتابا حفظه الله عز وجل من التدخل البشرى سواء بالاضافة او المحو أو التبديل أو التحريف ..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء ..

وكان عصره ايذانا بانتهاء المعجزات المادية المبهرة الخارقة ، وبدء لون جديد من عصور الرشد العقلى ..

وليست مصادفة ان تكون معجزة خاتم الانبياء كتابا يرفع قيم العقل والنظر العلمى ويسخر من المقلدين لما كان عليه آباؤهم ..

. . . .

موقف الاسلام من المعجزات واضح ..

اقر كتاب المسلمين الذى انزله الله كل معجزات الانبياء السابقين .. وصحح حقائقها واوردها كما وقعت بحق ..

بل ان هناك معجزات تسكت عنها الاناجيل والتوراة .. ولم يسكت عنها القرآن الكريم ..

ان عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام تكلم فى المهد ..

تكلم بعد ولادته خرقا للقوانين الطبيعية التى تجعل الأطفال المولودين لا يستطيعون الكلام قبل سنتين تقريبا ..

لم تورد الاناجيل هذه المعجزة ..

سكتت تماما عنها واوردها القرآن فى سورة مريم .. فى موقف يؤكد ان اتهاما سـيئا قد وجه الى مريم فرد عيسى على الفور ..

وكان الرد معجزة من عيسى .. بوصفه نبيا وكرامة لمريم بوصفها من اولياء الله ..

يقول تعالى فى سورة مريم ..

« فاتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا اخت هرون ما كان ابوك امرا سوء وما كانت امك بغيا . فاشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا اين ما كنت واوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا .. »

قال عيسى ابن مريم ٣٢ كلمة وهو مولود ..

واثبت بكلماته اكثر من حقيقة ..

نسف اتهام مريم الظالم بانها بغى ..

واكد انه عبد الله الذى آتاه الكتاب وجعله نبيا مباركا واوصاه باقامة الشعائر ..

واشار الى أن الله تبارك وتعالى قد جعل ميلاده وموته وبعثه سلاما عليه ..

هذه المعجزة تؤيد عيسى فى دعوته الى الله ..

وهى معجزة علنية شهدها الذين اتهموا مريم وشهدها الذين تجمعوا فى هذا الموقف من الفضوليين وما أكثرهم ، وحكاها هؤلاء بعد ذلك ، وربما يكون هؤلاء قد اسدلوا عليها ستارا متعمدا من الصمت ، فلم يذكروها تحقيقا لمصالحهم الخاصة فى انفرادهم بالشريعة وكجزء من خطتهم فى حرب هذا النبى الجديد ..

ولقد ذكر القرآن معجزات الانبياء ، كما اشار الى معجزات الأولياء وذكرها ..

ومن الاولياء الذين تحدث القرآن الكريم عن كراماتهم مريم ابنة عمران

التى احصنت فرجها فنفخ الله تبارك وتعالى فيها من روحه .. وكان من كراماتها ما يحكيه القرآن عنها ..

« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » ..

قال العلماء كان يجد فاكهة الشتاء عندها فى الصيف ..

ومن الأولياء الذين يورد القرآن قصص ولايتهم هذا العبد الصالح الذى آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما .. وهو العبد الذى يعتقد بعض العلماء انه الخضر ، ويختلف العلماء على درجته فمن قائل انه نبى ومن قائل انه عبد صالح من الأولياء ..

وقد سار هذا العبد مع موسى وعلمه من علمه ولم يصبر عليه موسى . من الأولياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن بغير اشارة لأسمائهم .. هذا الذى عنده علم من الكتاب ..

قال تعالى فى سورة النمل ..

« قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك وانى عليه لقوى امين . قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر ام اكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم » ..

نحن فى مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام ..

يطلب سليمان احضار عرش ملكة سبأ .. عفريت من الجن يتقدم لاحضاره ويحدد فترة من الوقت هى الفترة التى يستغرقها سليمان فى مجلسه ..

« قبل ان تقوم من مقامك » ..

الفترة ساعة أو شىء بين الساعات ..

لم يرض سليمان عن هذه الفترة .. ربما اشاح بيده أو بدا من ملامح وجهه أن فترة احضار العرش طويلة ..

عندئذ تقدم واحد كان يحضر المجلس ..

واحد لم يحدثنا القرآن الكريم عن اسمه ..

أشار اليه القرآن اشارة تزيده غموضاً على غموض ..

« قال الذى عنده علم من الكتاب » ..

من الذى قال ؟

ما هو هذا العلم ؟

ما هو هذا الكتاب ؟

ثلاثة أسئلة لم يجب عليها القرآن .. تخطاها عمدا .. ولحكمة الهية .. فالأمر يتعلق بأمر خارق .. والجن قد عرض خدماته وسيحضر العرش فى ساعة من مسافة تبعد خمسة آلاف كيلو متر « من فلسطين الى مملكة اليمن » .. ورفض سليمان هذه الخدمة رغم أنها أمر خارق ..

المطلوب شيء فوق طاقة الجن ..

من الذى يملك قدرات فوق قدرات الجن المسخر لسليمان .. لم يقل لنا الله تعالى ..

وسوف نلاحظ ان أولياء الله تعالى الذين أشار اليهم القرآن ، قد أشار اليهم دون ذكر اسمائهم ..

اخفى اسماءهم تماما ..

واخفى امكنة وجودهم ..

ودثرهم بسر خفى غامض ..

وليست هذه مصادفة ..

. . . . . .

أولياء الله الذين ورد ذكرهم فى القرآن قليلون .. منهم ولى ورد ذكره فى سورة الكهف ..

« فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معى صبرا » ..

يعتقد بعض العلماء أن هذا العبد هو الخضر ..

ولو التصقنا بالقرآن الكريم كمددا ومنهاج .. فسوف نلاحظ أن الآيات قد اغفلت ذكر الاسم ..

وما يورده القرآن يورده لحكمة .. وما يسكت عنه يسكت عنه ايضا لحكمة « وسبحان الله عز وجل » ، والقرآن كنز من كنوز الحكمة ، ومعنى سكوت القرآن الكريم عن ذكر الاسم ، أن الله تعالى لا يريد أن يحدثنا من اسم هذا العبد . جعل الله تعالى اسم العبد سرا كعلم هذا العبد ..

وترك الفضول فى هذا المجال من آداب العارفين بالله ..

ومن كمال السر الا نسأل من هو هذا العبد الصالح ..

. . . .

أيضا يرد ذكر ولى آخر من أولياء الله فى سوره النمل ..

« قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك » ..

يعتقد بعض العلماء أن هذا العبد هو آصف بن برخيا .. وقد استغلت الأساطير الدينية موضوع الخضر فجعلته يعيش الى يوم الساعة ، وجعلته يقابل كثيرا من الصوفية ويجرى معهم أحاديث ويحدثهم ويحدثونه ، ولم تهمل الأساطير الدينية موضوع آصف بن برخيا . فجعلته طرفا فى مسائل عديدة ، رغم أنه كان موجودا فى زمن سليمان .. ونحن نأبى الدخول فيما لم يرد فيه نص ، كما نأبى ان نقحم فضولنا على قرآن الله ..

لقد تعمد القرآن الكريم ان يورد اشاره لهذا العبد الصالح دون ان

يذكر اسمه .. سكت القرآن عن ذكر الاسم لنفس السبب الذى سكت فيه عن ذكر اسم العبد الذى صاحبه موسى ..

اتصلت قدرة العبد الذى يحضر مجلس سليمان مع علم العبد الذى صاحبه موسى ..

إحدهما يملك قدرة تعجز عنها قدرة الجن ، والآخر يملك علما يعجز عنه صبر نبى من أولى العزم .

صاحب سليمان أوتى قدرة تتصل بأسرار الله عز وجل ..

وصاحب موسى يملك علما يتصل بأسرار الله عز وجل ..

نحن اذا نبحر فى منطقة أسرار ..

ولهذا تختفى الوجوه وراء أقنعة واستار ..

ولهذا لا يورد القرآن أسماء الأولياء ..

اذا كنا لا نصدق فلنمض معا فى رحلتنا مع الأولياء الذين يورد القرآن لمحات من قصصهم ، سنلاحظ انهم يظهرون بغير أسماء ، أحيانا يصفهم المولى بصفات .. ولكن أسماءهم تظل سرا ..

اهل الكهف ..

اليسوا من أولياء الله الصالحين ..

انهم باتفاق العلماء ليسوا أنبياء .. فهم فتية آمنوا بربهم .. وهم من آيات الله المعجب . وكرامتهم من الكرامات المدهشة فى التاريخ البشرى .

« أم حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . اذ اوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من امرنا رشدا » ..

لا يذكر القرآن اسماء هؤلاء الأولياء ..

وهو يتجاوز عمدا عن ذكر اسمائهم لاتصال أمرهم بآية من آياته الله المجيبة .. وهو لا يحدثنا فى بداية القصة عن السبب الذى جعلهم يأوون

الى الكهف ، انما يبدأ قصتهم بدعائهم عند دخول الكهف ..

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من امرنا رشدا » ..

واضح انهم يسالون الله ان يفيض عليهم من رحمته .. وأن يهيىء لهم من امرهم رشدا .. نفهم انهم مقدمون على عمل خطير ويخشون مطاردة شيء بالغ القسوة ؛ وربما امتـــــدت يد هذا الشيء اليهم وعثرت عليهم فى مكانهم .. لم يكد دعاؤهم ينتهي حتى ضرب الله على آذانهم فناموا ..

ضرب الله على آذانهم ..

تأمل هذا التعبير باعجازه واسراره .. نعلم الآن أن صلة النائم بالحياة واليقظة هي الاذن .. اى صوت يصل الى المخ من الأذن يوقظ النائم ..

واى ضوء يسقط على العين يترجم ويصل الى المخ فيوقظ النائم ..

فاذا كنا أمام قوم ضرب الله على آذانهم فنحن أمام ناس لن تستيقظ الا اذا ارتفع الحجاب المضروب على الأذن ..

« فضربنا على آذانهم فى الكهف ســـــنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم اى الحزبين احصى لما لبثوا امدا » ..

استمر الحجاب على آذانهـم سنين عـددا . سنعرف فيما بعد من السياق القرآنى انها كانت ٣٠٩ سنوات ..

هل ينام ناس اكثر من ثلاثمائة عام .. لو نام الانسان أياما متتاليه هلك من الجوع ..

لكن هؤلاء ناموا اكثر من ثلاثمائة عام واستيقظوا جائعين ..

ما هذا السر ..

كيف وقع ما وقع ..

نحن أمام سر هائل .. حياه ولا حياة .. موت ولا موت .. ناس نائمون وليسوا نائمين ..

كيف دقت قلوبهم ٣٠٩ سنوات ، كيف تنفسوا طوال هذا الوقت ..

كيف اطاعت اجهزة اجسامهم هذه الفترة الطويلة واستمرت في العمل كان الثلاثمائة سنة ليل عادي واحد ..

نحن امام عمل الهي خارق .. امام كرامة من كرامات الاولياء .. ولم يحدثنا الله تعالى كيف ناموا هذه الفترة ثم استيقظوا بشكل عادى .. يتصل هذا الامر بمشيئة الله ..

لقد امر الله تعالى .. وانما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون ..

ما هي قصة أهل الكهف بالحق ؟

« نحن نقص عليك نباهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه الها لقد قلنا اذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا ياتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا . واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فاووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من امركم مرفقا » ..

هذه قصتهم بالتفصيل ..

يحكيها القرآن بالتفصيل ..

انهم فتية يعيشون وسط مجتمع كافر يعبد من دون الله عز وجل آلهة متعددة ، ولا شك ان هذا المجتمع يريد أن يقهر هؤلاء الفتية على عبادة الأوثان والأصنام .. وربما اتهمهم المجتمع بالخروج على نظامه لأنهم يعبدون الله ، لا حل أمامهم غير الخروج والهجرة .. ولكنهم لا يعرفون أين يذهبون .. واحساسهم بأنهم مطاردون أمر واضح .. ويلجأون الى الكهف للاستتار والاختباء ريثما يفكرون .. دخلوا الكهف فناموا ..

ضرب الله على آذانهم فناموا .. ولعبت الشمس دورا في المعجزة ..

« وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله » ..

تحدثنا الآيات ان الضوء لم يكن يصل اليهم .. فقد كانت اشـــعة الشمس تتجنب الكهف وتميل عنهم فى الشروق والغروب .. ولكى يبدد النص القرآنى الغرابة التى يمكن ان تنشأ فى النفس من هذا الأمر الخارق .. يضيف قوله : « **ذلك من آيات الله ..** »

لا غرابة اذا ما دام الأمر معلقا بآية من آيات الله ..

« **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** » ..

يريد النص ان يقول ان هؤلاء الفتية من اوليائه المهتدين .. ولهـــذا وقعت لهم الكرامة .. بعد أن أزال النص كل سبب للدهشة ، ببيانه أن الامر آية تقع لمن هـــداه الله وتولاه .. عاد النص يورد ما هو أدعى الى العجب ..

« **وتحسبهم ايقاظا وهم رقود ..** »

نظن انهم أحياء والحقيقة أنهم موتى ..

« **ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال** » ..

رغم انهم موتى الا انهم يتقلبون .. وهم ليسوا موتى لانهم يتقلبون .. وليسوا أحياء لانهم لا يقومون .. وليسوا وحدهم فى الكرامة الخارقة التى وقعت لهم فمعهم كلب ..

« **وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد** » ..

ان الكرامة التى وقعت للبشر .. وقعت لكلبهم الذى أحبهم وتبعهم الى الكهف .. وبهذا الحب للأولياء دخل الكلب تاريخ الكرامات كما دخلت نملة سليمان وناقة صالح وحوت يونس تاريخ المعجزات ..

ورغم أنهم رقود .. رغم انهم لا يقومون كالموتى ويتقلبون كالأحياء ، رغم ذلك تطول لحاهم واظافرهم بشكل مستمر .. ويتحول منظرهم الى شيء يخيف ..

« لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » ..

ومر الوقت ..

مرت ٣٠٩ سنوات ..

ثم بعثهم الله من هذا الموت العجيب الذى تعمل فيه أجهزة الجسم ويطول الشعر واللحية والأظافر ..

بعثهم الله ليعلموا أن وعد الله حق ... يستخدم النص القرآنى لفظ « وكذلك بعثناهم » اشارة الى أنهم كانوا موتى ..

ولقد تساءلوا حين بعثوا كم من الوقت مر عليهم وهم نيام ..
« وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم . قال قائل منهم كم لبثتم . قالوا لبثنا يوما او بعض يوم ، قالوا ربكم اعلم بما لبثتم » ..

اتفقت الاراء انهم لبثوا يوما أو جزءا من يوم .. ثم اختلفوا فى تحديد الوقت فارجعوا الأمر الى الله .. وقالوا ان الله أعلم بما لبثوه .. أحسوا بالجوع فقرروا ارسال أحدهم ليشترى لهم طعاما ، وأوصوه أن يتخفى حتى لا يقع فى قبضة السلطة الحاكمة الكافرة التى تهددهم بالقتل ..

« فابعثوا احدكم بورقكم هـذه الى المدينة فلينظر ايها ازكى طعاما فلياتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم احدا . انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم او يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا ! » ..

حتى الآن يخفى الله تعالى عن الفتية المطاردين حقيقة الوقت الذى لبثوه نائمين ..

كانوا يتصورون حتى هذه اللحظة انهم قضوا يوما أو بعض يوم .. وكانوا يتصورون أن نقودهم وأوراقهم المالية تصلح لشراء طعام ، كانوا يجهلون مرور أكثر من ثلاثمائة سنة على نومهم ، وكانوا يجهلون أن نقودهم قد تحولت الى عملة أثرية ..

هذه العملة الأثرية هى التى قادت الى اكتشافهم ..

عثر الناس عليهم وعرفوا انهم ناموا هذه الفترة ..

« وكذلك اعثرنا عليهم » ..

المفاجأة هنا مزدوجة ..

فوجىء الناس أن هناك من يخرج عليهم من وراء ثلاثمائة سنة ليشترى طعاما بنقوده الأثرية ..

وفوجىء الفتية الأولياء أنهم ناموا أكثر من ثلاثة قرون ..

وكانت هذه المفاجأة المزدوجة سبيلا لاكتشاف حقيقة كونية يجهلها كثير من الخلق ..

هذه الحقيقة أن وعد الله حق ..

وعد الله أن ينصر أولياءه ..

وعد الله أن ينصر الخير على الشر .. مهما نفش الشر أسلحته واستعلى وظن أنه الأقوى والأغنى والأثبت ..

« وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها » ..

لم تكن كرامة هؤلاء الأولياء قد أثمرت ثمرة واحدة فقط .. كانت هناك ثمار كثيرة فى الشجرة ..

عرف الناس أن هناك من نام منذ ثلاثمائة عام وتسع سنوات ثم استيقظ ..

وعرف الأولياء أن تطورا خطيرا قد حدث فى مدينتهم الكافرة ، أن السلطة التى طاردتهم بتهمة الخروج على قوانين عبادة الأوثان ، وكانت تعد لهم القتل رجما بالحجارة ، هذه السلطة قد سقطت منهزمة أمام المؤمنين بالله .. أسفرت المعركة عن انتصار الخير فى النهاية .. لم يشهد أهل الكهف هذا الانتصار لعقيدتهم .. ولكن الأجيال التالية شهدته ..

كان هروبهم الى الكهف هو المقاومة الوحيدة الممكنة فى زمنهم لكثرة الكافرين وقلة عددهم .. كانت هذه السلبية هى الحل الوحيد المتاح لهم ، ثم مرت الأيام ، وزاد عدد المؤمنين وحاربوا الكافرين وانهزمت دولة الأوثان وجاءت سلطة تؤمن بالله .. وإذاً فان المعارك بين الخير والشر

محسومة مقدما ومعروفة النتائج مقدما ..

ينتصر الخير وان طال الوقت واستحكم اليأس وراود العقل التفكير في الهرب ..

ويتحقق وعد الله بانتصار الخير كما وعد ..

ويعرف الناس أن الحياة والموت والبعث أمور من أمور الله عز وجل ، والموت ليس نهاية للحياة .. وليس عدما محضا كما يتوهم الواهمون ، انما هو نوم تليه يقظة .. ورقود يعقبه بعث .. وها هي كرامة أهل الكهف تشت فيما تثبته حقيقة البعث والنشور ..

فما هو الفرق بين نوم يستمر ثلاثة قرون أو نوم يستمر عددا اكبر من القرون .. ان القدرة القادرة هنا أو هناك هي نفسها قدرة الله عز وجل .

. . . .

حين تتعلق قدرة الله تعالى بشيء ، تخرج قوانين هذا الشيء عن طبيعته المعتادة التي خلقها الله ، وتخضع بخروجها لمشيئة الله الطليقة .. هو اذا خروج من الله الى الله ..

حين انشق البحر أمام موسى ، وليس من طبيعة البحر ان ينشق ، كان هذا الأمر الخارق خروجا من قوانين البحار الى مشيئة الله .. وهذه المشيئه ذاتها هي التي قضت في الأزل أن يكون البحر بحرا فلا ينشق موجه الا بمعجزة ..

وحين احيا عيسى الموتى أمام أعين النـــاس ، خرج هؤلاء الموتى من طبيعة الموت التي تقضي بعدم القيام الا يوم البعث ، وكان خروجهم خاضعا لمشيئة الله عز وجل ..

وحين نام أهل الكهف اكثر من ثلاثة قرون ، واستيقظوا من نومهم ، وليس في الطبيعة البشرية نوم كهذا او يقظة كهذه ، حين وقع هذا خضع أهل الكهف لقانون الخوارق .. وهو قانون غامض يتبع مشيئة الخالق

تبارك وتعالى ..

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد بسط أمام أعين الناس قوانينه فى الكون المخلوق ، وأمرهم بتتبع دقائقها واكتشاف حقائقها ودعا الى النظر والسياحة والتامل والاكتشاف ، فانه سبحانه قد أخفى قوانينه التى تتصل بالخوارق وحجبها وراء ستائر السر واقنعة الخفاء العظيم ..

وحكمة ذلك واضحة ، فالخوارق تتصل بمشيئة الله ، وليست مشيئة الله تعالى شيئا مخلوقا كالكون وعلاقاته ، انما هى أمر يتصل بالذات الالهى ويصدر عنها .. والأسئلة هنا ليست جائزة ..

ولهذا السبب لا نعرف كيف وقعت المعجزات .. لا نعرف كيف انشق البحر لموسى ورفع الجبل له ، ولا ندرى كيف نهض الموتى حين أمرهم عيسى ولا نفهم كيف اهلك الله الكافرين القدامى بالصيحة او الصرخة ، ولا نستطيع ان نصل الى القوانين التى حكمت بتدمير اصحاب الفيل الذين هجموا بجيشهم على الكعبة ..

ايضا لن نفهم طبيعة القوانين التى جعلت قوما ينامون اكثر من ثلاثمائة عام ثم يستيقظون وهم يحسون بالجوع ..

هذه كلها أمور خارقة ..

هى أسرار من أسرار الله ..

شاء الله أن تقع لحكمة ارادها سبحانه فوقعت كما شاء .. وليس من حق احد ان يسال كيف وقعت .. لأن السؤال عن كيفية وقوع المعجزة ، يشبه سؤال الله أن نراه ..

ان ابراهيم هو خليل الله تعالى .. « **واتخذ الله ابراهيم خليلا** » وموسى هو كليم الله تعالى .. « **وكلم الله موسى تكليما** » رغم مقام النبيين سأل ابراهيم ربه ان يريه معجزة احياء الموتى فسأله الله : أولم تؤمن ؟

وسأل موسى ربه الرؤية فقال : لن ترانى وامتناع رؤية معجزة احياء الموتى كامتناع رؤية الله عز وجل ، لأن المعجزة هنا هى مشيئة الله ..

ورؤية الله تعنى رؤية الذات ..

وكل ما تعلق بالذات والمشـــيئة والاسرار أمور لا يقوى عليها الوعاء البشرى ..

« واذ قال ابراهيم رب ارنى كيف تحيي الموتى قال اولم تؤمن قال بلى ولـكن ليطمئن قلبي قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبـــل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم » ..

أراد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو خليل الله عز وجـل ، أن يثلج قلبـــه برؤية يد القـــدرة الخالقة وهي تبدع امرا خارقا كاحيــــاء الموتى ..

وسأله الله : أولم تؤمن ..

كان الله تبارك وتعالى يعلم أن ابراهيم مؤمن محب ، ولكن الحق يريد اقرار حقيقة تتصل بذاته ومشيئته ومعجزاته سبحانه ...

هذه الحقيقة هي استحالة رؤية هذا أو شيء من هذا لأنه ليس شيئا وليس كمثله شيء ..

وقد انبعث طلب ابراهيم كما انبعث طلب موسى من حب كبير لله ، وعبودية كاملة ، واخلاص عظيم ..

ولكن الامر كان يتصل بذات الله عز وجل او اسراره ولهـــذا لم ير احدهما ما أراد رؤيته ..

امر الله ابراهيم أن يقطع اربعة من الطير ويفرق اجزاءها على الجبال ثم يدعوها اليه .. فتأتيه مستيقظة من الموت والذبح .. لو افترضنا أن ابراهيم نفذ ما امره الله به .. فما الذى سيراه ..

هل يرى السر ؟

هل يرى سر بعث الموتى من الموت .. ويعرف القانون الخارق الذى يسيطر على هذه المنطقة الغامضة ؟

لم ير شيئا ، لأن اقبال الطيور نحوه مستيقظة من الموت لا يضع عقله

أيضا كان جواب الله عز وجل لموسى مماثلا .. طلب موسى الرؤية .. وطلبها في موقف حب عظيم ..

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني انظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين » ..

أفهم الله تعالى موسى أن طلبه الرؤية مستحيل ، ولكي يرفق بحبه الذي دفعه للتجاوز وطلب الرؤية ، أمره أن ينظر الى الجبل ، ثم تجلى الله على الجبل .. واندك الجبل واستحال ترابا ، وخر موسى صعقا ومات .. مثلما خر سليمان ميتا ، استخدم النص القرآني تعبير « خر » للدلالة على الموت ، وكانت أول كلمات رددتها شفتي موسى حين بعث من الموت قوله : « **سبحانك .. تبت اليك** » ..

أدرك موسى أن الانسان المخلوق من تراب لا يقوى على الصمود لنور الله ..

وتاب موسى من طلبه الرؤية ..

كان يتوب من تصوره أن انسانا ــ كائنا من كان ــ يستطيع وهو ابن الفناء المخلوق من تراب ، أن يعاين أنوار الجلال الأقدس ..

تتصل مشيئة الله تعالى بذاته ..

وتظل أسرار الله تعالى أسرارا ، سواء منها ما تعلق بمعجزة احياء الموتى أو شق البحر أو نوم يمتد ثلاثة قرون ..

. . . .

كانت الخارقة التي وقعت لأهل الكهف كرامة للفتية الذين هجروا مجتمعهم ، وكانت في نفس الوقت معجزة عاينها الناس بعد ثلاثة قرون

وتسع سنوات ..

وادرك هؤلاء وأولئك ان وعد الله حق ..

ادركوا ان نصر الله تعالى لعباده حق ..

وذهبت دهشة المفاجاة وغرابة الصدمة ..

وعاد أهل الكهف الى الكهف ..

تسللوا الى الموت بهدوء كما تسلل احدهم الى القرية ليشتروا طعاما بهدوء ..

لم يعد لحياة اهل الكهف معنى ..

كانت حياتهم حتى الآن معجزة شاهدها الناس ، انتهى الوقت المحدد لحياتهم فى كتاب الله يوم خلق السماوات والارض ..

ومات الفتية الذين آمنوا بربهم وزدناهم هدى ..

هجروا مجتمعهم بكل ما فيه من علاقات وأصدقاء وأقارب وأعداء ، وعادوا الى مجتمع لا علاقة لهم به ولا قرابة لهم فيه ولا أصدقاء ولا أعداء .. عادوا كأبطال الأساطير ..

خرجوا فى السر خائفين على دينهم ، ودلفوا الى الكهف فى صمت خشية ان يراهم احد ، كانوا يخبئون سرا دون أن يعرفوا ، او كانوا هم انفسهم السر المختبىء الذى سيظهر بعد ثلاثة قرون وتسع سنوات ..

بعد أن ظهر السر واكتشفه الناس عاد للاختفاء ..

يعبر السياق القرآنى على نهايتهم ، ويضع القارىء أمام موتهم ..

نعرف انهم ماتوا من اختلاف الناس فى أمرهم ..

« اذ يتنازعون بينهم امرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم اعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا » ..

انتهى الامر الخارق وبدات ثرثرة الناس فيما لا قيمة له ..

« سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم احدا » ..

اختلف الناس فى عددهم ..

واختلف أهل الكتاب فى عددهم ..

وقيلت اشياء كثيرة .. كانت كلها رجما بالغيب ولا تستند على أساس صحيح .. وليس لعددهم اى قيمة .. الا قيمة الفضول البحت ، وذلك أمر لا يعبأ به عقل جاد ..

ما قيمة عددهم ..

ان المعجزة قد تحققت بوقوع ما وقع لهم ..

ولن يزيد العدد فى كمال المعجزة شيئا ولن ينقص العدد من كمالها شيئا ..

تجاوز القرآن الكريم عن عددهم وأمر بعدم المراء والجدل والسؤال .. سؤال أهل الكتاب ..

وفى هذا المجال .. حيث لا زال الجو نديا بأصداء الكرامة المعجزة .. أحال النص القرآنى كل تصرفات الانسان على مشيئة الله .. حتى ما يريد الانسان فعله غدا ، ذلك شيء لا يقع الا بعد مشيئة الله .. هذه الاحالة على طلاقة المشيئة الالهية هى العمق الذى يكشف عنه البعد النهائى للقصة .

ولا قيمة لشيء بعد ذلك كالعدد او الأسماء او التفاصيل ..

« ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لاقرب من هذا رشدا » ..

بعد بيان حقيقة التسليم والدعاء .. ذكر القرآن الكريم عدد السنوات التى قضاها أهل الكهف فى كهفهم ، لأن العدد هنا جزء له دلالته فى المعجزه التى وقعت .. بل هو لب المعجزة ذاتها ..

« ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله اعلم بما لبثوا له غيب السماوات والارض ابصر به واسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه احدا » ..

انتهت قصة اهل الكهف ..

انتهت بالتوحيد ..

توحيد من له غيب السماوات والأرض من له أسرار السماوات والأرض ..

. . . .

ليست مصادفة أن القرآن لا يحدثنا عن أسمائهم وعددهم ..

كانوا جزءا من سر الله ، وعلى السر أن يدثر نفسه جيدا فلا يكشف الا مبرته ..

ليس اهل الكهف هم وحدهم أولياء الله الذين يذكرهم القرآن بغير أسماء ..

فى القرآن آيات تتحدث عن أحد أولياء الله ..

لا تذكر الآيات له اسما ، وانما تذكره بصفته ..

« ذو القرنين » ..

والصفة تزيده غموضا وسرا ..

وهو صورة مقابلة لصورة اهل الكهف .. كان أهل الكهف مغلوبين على أمرهم فارين بدينهم .. اما ذو القرنين فهو حاكم يقضى بين الناس وحكمه بلا استئناف ..

ورد ذكر ذى القرنين فى سورة الكهف بعد قصة موسى والعبد الربانى الصالح الذى لم يستطع موسى أن يصبر عليه ..

« ويسالونك عن ذى القرنين قل ساتلو عليكم منه ذكرا . انا مكنا له فى الارض وآتيناه من كل شيء سببا . فاتبع سببا » ..

سئل رســـــول الله صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، ويبدو أن السؤال صدر ممن سمع عنه من أهل الكتاب . ويبـــدو أن قصـــته كانت معروفة لأصحاب الكتب القديمة ، ويبدو أن الاســـاطير كانت قد لعبت دورها فى القصة ، وأورد الله تبارك وتعالى قصة ذى القرنين فى ١٦ آية من سورة الكهف ، وبدأت الآيات ببيـــان ان الله مكن له أســـباب الحـــكم والولاية .. وسنرى أنه منح حرية مطلقة ليعذب أو يعفو ، ولكنه اختار العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض ..

« حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا » ..

يمنحه الله تعالى الحكم المطلق .. ويكل الى مشيئة ذى القرنين ان يختار ما يريد .. ما الذى اختاره ذو القرنين ؟ ماهو القانون الذى اختاره ولى مطلق الحرية وحاكم لا رد لقوته أو حكمه ..

« قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا . واما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا »

اختار ذو القرنين قانون الشريعة .. من ظلم فسوف يعذب .. ومن آمن وعمل صالحا فله الثواب والطمانينة .

هذا حكم الشريعة .. واجمل ما فى الحكم انه يتفق مع حكم الحقيقة .. فحين يموت من يموت ويبعث الموتى ويردون الى الله ، فسوف يعذب الله من ظلم ويثيب من آمن ..

حكم ذو القرنين بحكم الله عز وجل ..

رغم حريته فى أن يحكم فيهم بما يشاء ..

كان مطلق المشيئة . ولكنه قيدها بمشيئة الله عز وجل وعدله .

وهذه هى الولاية ..

وتمضى قصة ذى القرنين ..

« ثم اتبع سببا . حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم

لم نجعل لهم من دونها سترا . كذلك وقد احطنا بما لديه خبرا . ثم اتبع سببا »

وصل ذو القرنين الى مكان مجهول يرجحه العلماء بانه خط الاستواء حيث تشتد حرارة الشمس ويعيش الناس وسط غابات حارة فلا يطيقون ارتداء الملابس (لم نجعل لهم من دونها سترا .. اشارة الى عريهم) .

وحكم ذو القرنين هذا المكان كما حكم المكان الاول .. ويؤكد النص القرآنى ان الله قد احاط بما لديه خبرا ..

بمعنى أن الله تعالى كان محيطا بأخباره عالما بأسباب قوته ممدا له بهذه الأسباب ممكنا له من الملك على كل حال ..

لم تزل رحلة ذي القرنين مستمرة ..

وصل بين السدين ..

« حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا » .

من أغرب العبارات التى ترد فى قصة ذى القرنين هذه العبارة ..

ما الذى تعنيه ؟

حدثهم ذو القرنين عن الحق والباطل ، فوجدهم لايستمعون اليه .. أو يستمعون اليه ولا يفهمون حديثه .. أو يستمعون اليه وهم مسجونون وسط خوف يمنعهم من الاستماع اليه او تأمل كلماته .. كانوا يتعرضون لغزو دائم من جيرانهم ، وهم ياجوج وماجوج .. لا أحد يعرف اين وقعت احداث القصة ..

ولا أحد يعرف من هم ياجوج وماجوج ..

يتجاوز القرآن عن الأسماء والأماكن والمعلومات التى لا تقدم ولا تؤخر الى عمق القصة وغرضها الأصلى .

« قالوا ياذا القرنين ان ياجوج وماجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكنى فيه ربى

خير فاعينونى بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما » .

لجأوا الى ذى القرنين بموضوع واحد .

طلبهم للحماية من ياجوج وماجوج .. واجابهم ذو القرنين الى ماسالوه ..

وافهمهم انه سيجعل بين الجبلين حاجزا يمنع ياجوج وماجوج من الهجوم عليهم او اختراقه . .

واستجابة ذى القرنين لهؤلاء الذين لا يكادون يفقهون قولا ، يعنى ان الرفق كان جزءا مرادفا من حملة ذى القرنين ، العدل والرفق . كما اراد الله أن يكشف على يدى ذى القرنين ان الحماية من الله وان الطمانينة منه ، وان الاسباب كلها منه **« قال ما مكنى فيه ربى خير »** .

يرد ذو القرنين القوة الى الله . .

ويشير فى نفس الوقت الى قانون الاخذ بالاسباب ، وهو قانون لازم للحياة على الارض ..

« فاعينونى بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما » ..

وبدأ تنفيذ السد .. قال ذو القرنين : **« آتونى زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى افرغ عليه قطرا فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا »** .

استخدم فى صنع السد قطعا من الحديد الكبيرة ، واشعلت النار تحتها حتى تحول الحديد الى نار واحمر مثلها ، وافرغوا عليه النحاس المصهور فصار قطعة واحدة يستحيل اختراقها .

وانبت ذو القرنين لهؤلاء القوم ان السد قد انتهى .. ولن ينقبه احد او يخترقه احد او ينفذ منه أحد ..

حين انتهى ذو القرنين من بناء السد .. قال كلمته فى الولاية .. وأحال الامر كله الى مشيئة الله المطلقة ووعده الحق .

« قال هذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى جعله دكا وكان وعد ربى حقا » هذا عمق القصة البعيد ..

ان وعد الله حق ..

ترد هذه العبارة الموحية فى قصة أهل الكهف .

« وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق » .

وترد العبارة فى قصة ذى القرنين **« وكان وعد ربى حقا »** ..

ووعد الله تعالى هو عمق الولاية البعيد .

شيء مؤكد ان الولى انسان موصـــول القلب بوعد الله ..

انه يصدق هذا الوعد ابتداء .. ويســـعى فى تحقيقه انتهاء ، ومن تولاه الله جعله سـببا من أسباب تحقيق وعده ، وأجرى على يديه أسراره .. واذاً فان الانسان حين يختار لنفسه ما شـاءه الحق عز وجل .. يتحول الى الولاية ..

هذا قانون الولاية الحاكم ، أما عمقها البعيد فيتمثل فى التوحيد .. وقد أورد القرآن الكريم أكثر من قصـــة لأكثر من ولى من أوليـاء الله ، ورأينا هؤلاء الأولياء يختلفون فى كثير من التفاصيل والسمات كما يختلفون فى حظهم من الغنى والفقر ، ولكنهم جميعا صدروا من نبع واحد .. هو توحيد الله جل شأنه ، والسعى فى تحقيق وعده .

كان أستاذ موسى عالما بأسرار الحق .. ولم نكن نعرف هل هو غنى أم فقير ، وأغلب الظن ان مركزه المالى كان غامضا كتصرفاته وان بات مع موسى بغير عشاء حين أبت القرية أن تضيفهما .

وكان أهل الكهف فتية من الشباب المؤمن ، وأغلب الظن انهم كانوا متوسطى الحال ، أو كان معهم ما يكفى لاطعامهم حين نهضوا من نومهم فى الكهف .. لانهم ارسلوا احدهم بورقهم ليشترى طعاما .

وكان ذو القرنين ملكا حاكما فى الارض . واغلب الظن أنه كان غنيا ، فسياحته فى الأرض وقدرته على الفتح والحرب تعنى قدرته على الانفاق .

ولقد مر السياق القرآنى فى القصص السابقة مرورا عابرا على حظ هؤلاء الأولياء من الغنى والفقر .. لأن هذا الموضوع لم يكن له دور بارز فى القصة او اثرها الموحى .

ثم ها هو السياق القرآنى ينقلنا فى قلب قضية الفقراء والأغنياء بقصة رجلين ..

أحدهما فقير ..

وثانيهما عظيم الثراء ..

القصة فى سورة اهل الكهف .. ومعظم قصص الأولياء فى هذه السورة .. والقصة تصور لنا حوارا بين عقليتين ، عقلية رجل فقير ولكنه من أولياء الله ، وعقلية رجل نظر فى ثرائه فاستكبر وظن أن البعث وهم والحساب اسطورة . .

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت اكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا » .

أحد الرجلين فقير ..

والثانى غنى يملك حديقتين بديعتين ، فيهما زرع واعناب ونخيل ونهر .. يرسم الله تعالى صورة لثراء قد استغنى بنفسه عن غيره : ان الماء موجود : فالنهر يجرى خلال الجنتين ، والشمس كائنة ، والتربة خصبة .. وكل شىء يؤكد دوام هاتين الحديقتين الى الأبد .

« وكان له ثمر » ..

كان شديد الثراء .. يرمز الثمر هنا الى وفرة الثراء ، ويرمز الى أن الحديقتين كانتا من حدائق الفاكهة . ولم تزل حدائق الفاكهة اغلى

الحدائق فى العالم ، ولم يزل كسبها أعلى كسب فى الأرض الزراعية ..

كيف يفكر صاحب الجنتين ..

وكيف يفكر الرجل الذى لا يملك شيئا .

« وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره انا اكثر منك مالا واعز نفرا » .

المتكلم هو الغنى ، والعبارة التى يقولها تكشف عن شخصيته من اللحظات الأولى .. فهو رجل شديد الكبرياء ..

ـ انا اكثر منك مالا واعز نفرا .

يريد ان يقول لصاحبه المؤمن انه افضل منه . أو يرى انه افضل منه .. لقد نظر فى ثرائه وحكم لنفسه بالافضلية .

الكبرياء هو الخطيئة الاولى لصاحب الجنتين ..

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما اظن ان تبيد هذه ابدا »

دخل الحديقة ونظر فى خضرتها وثمارها واحس بالزهو .. وادلى بأول تصريح من تصريحاته الحمقاء ..

قال : ما اظن ان تبيد هذه أبدا ..

ظن أن هذا الثراء لن يزول أبدا ، تصور أنه سيبقى الى الابد ثريا ، نسى ان اسباب الثراء والفقر بيد الله عز وجل .. توهم ان اسباب الثراء بيده هو ..

حين وصل الى هذه النتيجة ، لم يعد مؤمنا ..

خرج من الايمان ودخل خيمة الكفر ، ومن المنطقى اذا ان ينكر البعث والساعة والحساب وكل اصول الايمان ..

« وما اظن الساعة قائمة »

مسألة الساعة والبعث مسألة يظن انها وهم ..

« ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا »

حتى لو افترضنا جدلا أن هناك بعثا ، معندما يبعث صاحب الجنتين . فسوف يراعى وضعه كرجل غنى ، وسوف يجد جنتين أفضل من جنتيه هناك ..

نحس بأثر السخرية فى كلمته .. ونحس بكبريائه العظيم أمام ثرائه الابدى .

استمع صاحبه الفقير الى كلماته واقشعر بدنه .. ان ما يقوله صاحب الجنتين كفر .. وبدا صاحبه يحاوره .

« قال له صاحبه وهو يحاوره اكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا » .

افهم الرجل الفقير صاحبه الغنى ان ما يقوله كفر .. ولفت نظره برفق الى معجزة خلقه من تراب ثم من نطفة ، وقام بتأنيبه فى كلمته الاخيرة **« ثم سواك رجلا »** ، وكأنما اراد ان يقول له ان الرجل لا يقول ما تقول ..

ان الرجولة التى تنسى أصلها الترابى ، او تنسى انها نطفة ، او تتعالى على خالقها .. ليست رجولة ..

« لكن هو الله ربى ولا اشرك بربى احدا » ..

اعترف الفقير بعبوديته لله .. ولتوحيده له . وفراره من الشرك .. اى شرك ..

هل كان الغنى مشركا .

توحى الآيات القرآنية ان الغنى كان مشركا ، فهل كان يعبد آلهة وثنية يعتقد انها هى التى حمت جنتيه ؟ أم كان مشركا حين نسب الغنى الى نفسه وتصور انه باق الى الأبد ربما تحقق السببان فى حقه ، وربما اكتفى بأحدهما ، وكلاهما شرك عميق .

« ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لاقوة الا بالله » ..

يعلمه الفقير هنا أصول الايمان وآداب استقبال النعمة .. حين تدخل حديقتك أو منزلك او عملك او كل ما هو مصدر رزق لك .. فعليك ان تقول :

ما شاء الله لا قوة الا بالله ..

بمعنى أن هذه مشيئة الله ، ولا قوة الا بالله ..

تنبع القوة من الله .

هو سبحانه مصدرها ..

وهو سبحانه القادر على سلبها ..

هذه هي حقيقة القوة ..

بعد هذه الاشارة العميقة الى خالق القوة والغنى والضعف والفقر .. عاد الفقير يحاور صاحبه فأفهمه أن عليه الا يغتر بدوام النعمة ، ولئن كان الفقير اقل منه فى المال والولد ، فعسى الله أن يغنيه ، ولا ينبغى ان يأمن الغنى من عاصفة تحيل جنتيه الى خرائب ..

« ان ترن انا اقل منك مالا وولدا فعسى ربى ان يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا . او يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا » .

لا شيء فى الدنيا أبدى ..

لا شيء على الأرض يدوم ..

لا الغنى يدوم ولا الفقر يستمر .. يقلب الله الناس فى صور شتى من صور الابتلاء .. وليس الفقر والغنى غير صورتين من صور الابتلاء ..

فى نفس الوقت الذى كان العبد المؤمن يحدث الغنى الكافر .. اشار العبد المؤمن الى نبوءة قاسية تتصل بصاحبه ..

مثل ريح غامض تنبأ المؤمن للكافر بان جنتيه ستصيران الى الخراب .. سوف ينزل عليهما من السماء ريح مشئوم يحيل أرض الجنتين الى

صحراء قاسية ، وسيجف ماء النهر ويغيب في شقوق الأرض وتموت حياة النبات ..

بعد هذه النبوءة ، ينقلنا السياق القرآني نقلة مفاجئة الى صورة الجنتين بعد أن تحققت النبوءة ..

« وأحيط بثمره »

يستخدم التعبير القرآني لفظا له جرسه العسكري . يقول العرب حين ينهزمون « أحيط بالجيش » أى حوصر الجيش وأحاطه العدو وتحققت الهزيمة ..

استخدم القرآن الكريم هذا اللفظ لبيان هزيمه الرجل الذى أشرك بربه ..

انتهى الثمر تماما وأبيد .. وتغير حال الكبرياء فصار ذهولا حائرا متخبطا يبعث على الضحك .

« فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهي خاوية على عروشها »

المشهد ارض خراب .. نبعت من نفس خراب .. ثمة رجل يمشي وسط الخراب وهو يخبط كفا على كف ، ويقلب يديه ذهولا وحيرة .. ويكلم نفسه مثل مجنون **« ويقول : ياليتني لم أشرك بربي أحدا »** ..

اكتشف — والندم يعتصره ويجففه — أنه كان مشركا ، وتمنى لو كان مؤمنا .. ادرك أن الثراء الفاحش مع الشرك ينتهي الى الهزيمة والفقر .. وعرف أن لا شيء في الدنيا يعيش الى الأبد ، كل شيء تطحنه دورة الميلاد والموت حتى الأرض .. أحيانا تدب فيها الحياة وأحيانا تموت .. أدرك انه فصل نفسه عن قوة الله ومشيئته ، واتصل بما يظن انه قوته الذاتية ومشيئته ، وحين فعل ذلك كان قد انهزم .

هزيمة ساحقة كاملة ..

هزيمة لا ينفع فيها نصر أحد أو رثاء أحد أو عون أحد ..

« ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا » ..

بهذه الحقيقة الحاسمة انتهت قصـة الرجلين .. الغنى والفقير .. انهزم الغنى حين فصل بين غناه وقدرة الله الغنى .. وانتصر الفقير حين شاءت أرادته ما شاءه الله تعالى لعباده من توحيـده والايمان به وعبادته سبحانه ..

« هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا » ..

نريد أن نتوقف بالتامل والاستغراق فى هذه الآية ..

هنالك الولاية لله الحق ..

هذه هى الولاية ..

هى التوحيد ..

وما وقع من تحقق نبوءة العبد الموحد ، كان سرا من اسراره كشفه له فرآه بعين البصيرة ..

يرى بعض العلماء ان هـذا الفقير الذى وردت قصـته فى اصحاب الجنتين كان وليا من أولياء الله ، ويدللون على ولايته بأنه راى أمرا لم يقع بعد من امور المستقبل ، وهذا هو الدليل على ولايته ونحن نعتقد انه ولى ، ولكننا نسـند رأينا فى ولايته الى أمر اخطر من نبـوءته بما لم يقع بعد فى المستقبل .

هذا الأمر هو التوحيد

وصول هذا العبد الى عمق التوحيد وادراكه الممثل فى قوله « **لـكن هو الله ربى ولا اشرك بربى احدا** » .

هذا معنى الولاية الحق ..

والدليل على قولنا قول الله تبارك وتعالى فى نهاية القصة .. « **هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا** » ..

يشير النص القرآنى الى أن الولاية الحقيقية هى التوحيد .

ويسند أستقراء القرآن هذا الفهم .. أيضا تؤكده السنة .. كمـا

يهدى اليه فقه اللغة العربية ..

كل آيات القرآن تؤكد أن الولاية هي الوجه الآخر لتوحيد الاسلام وعبودية الله .

قال تعالى : « **الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » ..

ونفي الخوف والحزن عن أولياء الله يعني انهم قد تحصنوا بقلعة التوحيد والعبودية الحقة ، وهي قلعة من دخلها أمن كل شيء .. يؤكد هذا الرأى قوله تعالى : « **فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما** » .

هذا العبد ولى من أولياء الله ــ قيل انه الخضر ــ وهو ولى لم يذكر النص القرآني له صفة تقدمه للقارىء أكثر من كونه « **عبدا من عبادنا** » ذكر هذه الصفة وحدها والاقتصار عليها ليس مصادفة ، انما هو أمر مقصود ، فأصل الولاية الحقيقي هو العبودية لله ..

يقول تعالى « **ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة** » .

ويقول تعالى : « **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور** »

وحين يربط القرآن قول من قالوا ربنا الله ثم استقاموا .. بالولاية . حين يربط القرآن الذين آمنوا بان الله هو وليهم ..

حين يفعل القرآن الكريم هذا يضع قاعدة الولاية وقانونها .

الولاية هي الايمان .. والاستقامة ..

ليست الولاية اذا هي الاتيان بالخوارق .. ليس هذا صفة الولاية وليس هذا من خصائصها ..

صفة الولاية هي الايمان بالله ..

اما الخوارق فامور قد تقع وقد لا تقع .. وليس وقوعها لازما للدلالة على الولاية ، كما ان عدم وقوعها ليس دليلا على عدم الولاية ..

بهذا الفهم السليم للاسلام نستطيع أن ننفض عن ثياب الصوفية ما علق بها من مبالغات فى نسبة الخوارق اليهم ..

اذا كان الايمان والعبودية والعلم بالله من صفات الولاية ، فما هو معناها .

يدق كثيرا معنى الولاية ..

اذا ذكرت عن الله عز وجل انصرف معناها الى الربوبيه والحراسة ان عبارة « **الله ولى الذين آمنوا ..** » **تعنى** الله **رب** الذين آمنوا وحارسهم واذا ذكرت الولاية عن الانسان انصرف معناها الى العبودية والتوكل فاذا التفت مشيئة العبد بمشيئة الله عز وجل صار العبد وليا من أولياء الله ..

والطريق الى معنى الولاية يمر بطاعة الله عز وجل .. أو بمعنى أصح يبدأ بطاعة الله تعالى .

ورد فى الحديث القدسى الكريم قوله « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب الى عبدى بشىء احب الى مما افترضت عليه . وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها » الى آخر الحديث

من معانى الحديث أن أولياء الله محروسون برعايته ، فمن عادى وليا لله حاربه الله ، ومن معانى الحديث أيضا ان الولاية تعنى القرب من الله ، وقد حدد نص الحديث القدسى أسلوب القرب من الله بانه اداء النوافل ، وفى الاسلام لا تؤدى النوافل الا بعد الفرائض ، فمن أدى الفرائض والنوافل فقد تقرب الى الله ، بعد هذا القرب تجيء درجة الحب .. يحب الله تبارك وتعالى هذا الولى ..

فاذا احب الله عبدا صار يسمع بالله ويبصر بالله ويبطش بالله ويسير

بالله ويعيش حياتها كلها لله وبالله .

وفى السنة النبوية قصة توضح معنى الولاية .

وردت القصة فى البخارى فى كتاب بدء الخلق فى فصل حديث الغار .

حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ثلاثة اشخاص ممن كان قبلنا كانوا يسيرون فسقطت الأمطار فهرعوا الى كهف فسقطت صخرة ضخمة من الجبل فسدت عليهم الكهف ..

وادركوا انهم حوصروا فقال بعضهم لبعض :

« انه والله يا هؤلاء لا ينجيكم الا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم انه قد صدق فيه » .

نريد ان نلاحظ تصوير الصدق كمعيار للنجاة فى الحياة . بعد هذه العبارة بدأ كل واحد من الثلاثة يحكى حادثا صدق فيه ايمانه بالله . وحكم تصرفاته هذا الايمان بالله .

قال احدهم انه كان يستاجر رجلا للعمل عنده . مدهب هذا الرجل بعد ان ترك عنده نصف كيلة من الارز ، فزرع المالك الارز وجمع المحصول وباعه واشترى بثمنه ابقارا ، وأتاه الرجل الاجير يطلب اجره فلم يعطه نصف كيلة من الارز ، وانما اعطاه ابقاره . وقد فعل ذلك حساسية وخشيه من الله ان يظلم احدا من خلقه .

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا فانساحت عنهم الصخرة » ..

وحكى الثانى انه كان له ابوان شيخان كبيران فكان ياتيهما كل ليلة بلبن غنم له ، فأبطأ عليهما ذات ليلة فجاء فوجدهما قد ناما ، ووقف باناء اللبن حتى استيقظ ابواه فى الفجر وشربا ، وكان له عيال جوعى استغاثوا به فرفض ان يسقى ابناءه الا بعد ان يشرب والداه ..

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا . فانساحت عنهم الصخرة » ..

وحكى الثالث انه كان يحب ابنة عمه ، وراودها عن نفسها ، فابت الا ان يعطيها مائة دينار ، فاحضر اليها النقود ودفعها اليها ، ثم هم بها فذكرته بتقوى الله فانصرف بغير ان يعتدى عليها ناسيا نقوده .

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ففرج الله عنهم فخرجوا » ..

. . . .

يحكى هذا الحديث النبوى قصة الامر الخارق الذى وقع لثلاثة لجأوا الى غار فسقطت صخرة سدت عليهم باب الغار ..

ومن المدهش ان بعض المسلمين قرأوا هذا الحديث من نهايته ، او قرأوه ولم يفهموا الا السطر الأخير فيه .

السطر الذى يتحدث عن انسياح الصخرة ودحرجتها ونجاتهم .

وهذه القراءة الناقصة للاحاديث النبوية هى السر المسئول عن عدم فهمنا لمعنى الولاية ، أو عن خلطنا بين الولاية والخوارق ..

نحن امام عمل ادى الى نتيجة ..

كيف نلتمس النتيجة بغير اداء العمل .

ان القصة الاولى فى الحديث النبوى تعطى صورة للأمانة الانسانية المطلقة ، وهى امانة تتصل بالشئون المالية ، حيث يميل الانسان عادة مع هواه ويؤثر ان يظلم غيره ، ولو أن صاحب المال اعطى العامل ما كان له من الأرز لما كان ظالما ، ولكنه اراد ان يكون صادقا فاعطاه ما صار اليه الأرز الذى كان له ..

اما القصة الثانيه فتقدم صوره للبر بالوالدين ، وهى صورة تبلغ الذروة فى احسان البر بالوالدين ، ولو ان هذا الرجل الذى وقف باللبن حتى جاء الصباح فى انتظار ان يشرب والداه . لو أنه سقى أولاده الجائعين قبل ابويه لما كان ظالما ، ولكنه اراد أن يكون صادقا فى البر بوالديه فسقاهما أولا .

اما القصة الثالثة فتقدم صورة للعفة الانسانية ، فى البدء نحن أمام خطيئة تتهيأ للوقوع ، ولكن كلمة واحدة عن تقوى الله توقظ المخطىء وترده الى الصواب وتذكره بالله فينصرف بغير أن يرتكب خطيئته .

لو تجاوزنا سطح المعنى فى القصة فسنرى أنها رمز للامانة والبر بالوالدين والعفة .. وهى ثلاثة اضلاع لمثلث لا يكون الايمان ايمانا بغيره ، ولا يكون الاحسان احسانا بغيره ..

ولقد وقعت الامانة والبر والعفة .. خشية من الله تعالى ومراقبة له وحبا فيه سبحانه .. « **فان كنت تعلم اني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا** » ولم يكن انسياح الصخرة ونجاتهم الا لأنهم صدقوا فى خشية الله ..

هذا هو مضمون الولاية الحقيقى ..

خشية الله عز وجل ..

وهذه الخشية ثمرة العلم .. قال تعالى « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » .

هذا المستوى هو الجدير بأن نتوقف عنده ونتأمله ..

المستوى الذى يظهر فيه سلوك الانسان المؤمن ..

اما مستوى العجائب والخوارق فنتيجة تترتب على السبب ، ومن الظلم للعقل أن نسقط السبب ونتوقع النتيجة ، أو ننظر فى النتيجة ولا ننظر فى السبب ..

ولقد رأينا كيف حرص القرآن الكريم وهو يقص اخبار الأولياء على اخفاء اسمائهم واخفاء امكنة وجودهم وتدثيرهم بسر الخفاء ..

ونفهم من هذا ان العبرة بمضمون الولاية لا بأسماء الأولياء .. كما ان المهم هو خشية الاولياء لله لا الخوارق التي يجريها الله على أيديهم ..

والحق ان أهم معنى للولاية هو الصدق مع الله ..

ومن المدهش أن يمتد الضباب لهذا المعنى فلا يبقى من الولاية فى عصرنا ــ بين عامة المسلمين ــ الا معنى الكرامة المتمثل فى الخوارق والعجائب ..

. . . .

ما هى الكرامة التى تقع لأولياء الله ؟

وما الفرق بينها وبين المعجزة ؟

وكيف ينظر كثير من المسلمين اليوم لكرامات الأولياء ؟

لماذا اخترت كلمة البحار تعبيراً عن الحب .. هل هو الولع بالأسرار الكامنة في مياه البحر .. أليس الماء أصل كل شيء حي ..

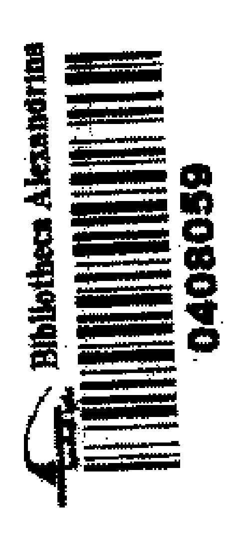
قبل أن يبدأ البدء أو يكون الكون ..

قبل أن تصفع الشمس ظلالها على الأرض ..

قبل أن تخلق الأرض من انفجار كوني أو ابتسامة كونية نتيجة أمر يتألف من حرفين ..

قبل أي قبل ..

كان الله ولا شيء مع الله ولا شيء قبله ..



المستقبل بالفجالة والإسكندرية
ومؤسسة المعارف ببيروت